

تاريخ الإسلام السياسي

نشأة الدولة الإسلامية

فتح جزيرة العرب

حروب الإسلام والإمبراطورية الفارسية

تأليف

أمين سعيد

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة عيسى الباني الحلبي وشركاه بمصر

تاريخ الإسلام السياسي

نشأة الدولة الإسلامية

فتح جزيرة العرب

حروب الإسلام والامبراطورية الفارسية

—
تأليف

أمين سعيد

—
حقوق الطبع محفوظة

طُبِعَ بِمَطْبَعَةِ عَيْسَى الْبَابِي الْجَلْبِي وَشِرْكَاهُ بِمِصْرَ

للمؤلف

(١) الثورة العربية الكبرى ٣ مجلدات

(٢) ملوك المسلمين المعاصرون ودولهم

(٣) أيام بغداد

هَذَا الْكِتَابُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وصلاة وسلاما على سيدنا
محمد النبي العربي ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وأهوانه من
الانبياء والمرسلين ، ولا حول الا بالله منه نستمد العون ،
وبه نستعين

لمصادر كتاب الثورة العربية الكبرى في شهر رجب سنة ١٣٥٣ ، وقد لقي
ولله الحمد اقبالا زائدا ، اقترح على بعض اهل الفضل ان اضع تاريخ الاسلام السياسى ،
وقالوا مادمت قد وفقت فى تأريخ هذا العهد الصغير من عهد العرب ، فيجب ان تعنى
بتدوين تاريخهم الاكبر ، فتصل حلقاته ، ويرتبط ماضيه بحاضره ، فقد انقضت
السنون على اشراق فجر النهضة العالمية الجديدة ولم يشمر عربى مسلم لتدوين اخبار
ثورة امته على الروم والفرس ، وتسجيل اخبار نهضتها - وقد ادهشت العقول
وحيرت الافهام - على منوال يتفق مع ذوق العصر الحاضر ومع ما بلغه فن التاريخ
من تقدم وارتقاء

وكاتبت اخوانى الادباء فى الشام والعراق والحجاز واليمن - وقد عودونى
المساعدة والتأييد - اسألهم رأيهم فكتبوا مشجعين ومنشطين وقالوا امض فى سبيلك
فنشد ازرك ، وناخذ بضعك ، واستعن بالله وتوكل عليه ، فحسن النية والرغبة الصادقة
فى الخدمة العامة هما لك خير شفيع وكفيل

والواقع ان وضع كتاب يتناول الناحية السياسية وحدها من تاريخ الاسلام
ويعنى بسرد اخبارها ، ويجمع مستنداتها وقائعها ، ويرافق الاسلام فى تحوله وتطوره
من ابتداء ظهور دولته حتى يوم الناس هذا ، ويبحث العوامل والاعتبارات
الاجتماعية والعنصرية والسياسية التى ساعدت على نموه وانتشاره ، ويعلمها تعليلا مقبولا
معقولا ، مما لم يسبق اليه حتى الآن ؛ ويشعر جمهور المتأدين والناشئين بشدة الحاجة
اليه فهناك حلقات مفقودة من هذا التاريخ ، وهنالك حوادث يكتنفها الغموض
والابهام ، ولم يصب تاريخ امه من الامم الحية فى هذا الوجود بما اصيب به تاريخنا ،
ولولا ما كتبه الاسلاف رحمهم الله فى القرون الاولى لضاع بعض معالمه ، ولغم علينا
معرفة غير قليل من حوادثه

ولقد نهجت فى وضع هذا الكتاب منهجا لم يألفه المسامون فى كتابة تاريخهم

فسردت حوادثه على المنوال الذى يسير عليه المؤرخون المعاصرون فى سرد الحوادث ، واجتنبت المبالغات فلدينا والله الحمد تاريخ مملوء بالمآثر ، مزدان بالمحامد ، لا تنفد كنوزه ، ولا تبلى جدة مفاخره

ومما شجعتنى على الاضطلاع بهذه المهمة الخطيرة انى طفت معظم الاقطار التى كانت محلى للحوادث الخطيرة فى تاريخنا العربى العظيم فقد مشيت الشام من جنوبيه الى شماليه ومن غربيه الى شرقيه ووردت دجلة والفرات والنيل وزمزم واليرموك ، واجتزت جبال طوروس والثغور والدروب ووطأت جبال حمرين (الحدود الفاصلة بين العراق وفارس) وجبت صحارى الشام وسيناء والحجاز ووعيت جغرافية هذه الاقطار ووقفت فى الجابية كما وقفت على اطلال القادسية وفحل وبصرى وقيسارية وبيت المقدس وحمص وحلب وانطاكية وطرسوس واطنة وقونية والقسطنطينية وقد سرت اليها برا من دمشق ومشيت اليها على الطريق التى مشى عليها جيش الامويين كما مشيت على الطريق التى مشى عليها عمرو بن العاص من قيسارية الى وادى النيل وطففت فى انحاء هذا الوادى المبارك ، ولا ريب ان التجوال فى هذه الاقطار ، وبين هذه الامصار يساعد على فهم كثير من حوادث التاريخ الاسلامى ، فيسفيها القارىء ويتذوقها حينما يصف معالمها وصف خبير وما راء كمن سمعا

واعتمدت على الخريطة فى وصف الحوادث العسكرية لتقريبها من الافهام فوضعت لكل حادثة من الحوادث الكبرى خريطة خاصة وفى هذا الجزء تسع خرائط هذا بيان عنها :

١ - خريطة للحجاز حين ظهور الاسلام ، وتساعد على تكوين فكرة عن حالة هذا القطر فى ذلك العهد

٢ - خريطة تحدد اماكن اليهود فى شمالي الحجاز ويستعان بها على معرفة الجهات التى كانوا ينزلونها

٣ - خريطة معركة بدر الكبرى وقد مكنت للاسلام فى الحجاز وساعدت على

انتشاره

٤ - خريطة معركة احد

٥ - خريطة معركة الخندق

٦ - خريطة معركة خيبر

٧ - خريطة تبين حدود الدولة الاسلامية حين وفاة مؤسسها الاعظم

٨ - خريطة معركة القادسية

٩ - خريطة الفتح العربي في العراق وايران ويستعان بها على متابعة حركات

الجيش العربي في زحفه على العراق وايران

تلك هي الخرائط التي يضمها هذا الكتاب بين دفتيه وسنوالى وضعها في كل

كتاب يصدر ان شاء الله طبقا للحاجة

واتبعنا هذه الخرائط برسوم شمسية لبعض الاماكن التاريخية فابنتنا رسما لمدينة

مكة المكرمة ، مهد الاسلام ، ومطلع شمسه ، وفي وسطها الكعبة المشرفة كما اثبتنا

رسما للمدينة المنورة اول عاصمة للاسلام ، وفي وسطها الروضة النبوية المطهرة . مع رسم

مسجد قبا وهو اول مسجد اسس في الاسلام ، ورسم لجبل احد وفيه مسجده وقد

انشىء لتخليد ذكرى شهداء تلك المعركة الكبرى ، مع مسجد الحديدية وقد اقيم في

المكان الذي جرت فيه بيعة الرضوان تخليدا لذكرى تلك الحادثة الخطيرة ، ونشرنا

ايضا رسم جامع صنعاء الكبير مع رسم البقية الباقية من طاق كسرى (ايوانه)

في المداين شمالي بغداد

ووصفنا الاماكن والديار التي مر بها الغزاة في حروبهم والمنازل التي

نزلوها وحققنا كثيرا من اسماء المدن والاماكن القديمة ، ووضعنا الى جانب اسم كل مدينة

او اقليم ابدل اسمه القديم ، الاسم الجديد ، وحددنا المسافات بقدر الامكان بين المدن

والاقاليم واعتمدنا في سرد الحوادث واثباتها على اقوال ثقات المؤرخين الاقدمين وعلى

روايات بعض افاضل المستشرقين وعلى مباحث الاساتذة المجددين ، والجهايزة

العسكريين وغيرهم من الذين عكفوا على نشر دراسات خاصة عن حوادث معينة في

التاريخ الاسلامي ، آخذين بالوثق والاقرب الى العقل والمنطق ، ومبتعدين عن

المبالغات والروايات الضعيفة فتاريخ العرب السياسي والعسكري من اجمع التواريخ

للحوادث الجسام ، وقد فعل العرب في الميدانين العسكري والسياسى فى خلال نهضتهم الاولى من الافعال مالم تسبقهم اليه الامم التى تقدمتهم ، ولم تلحقهم فيه الامم التى جاءت بعدهم . ولما انصرفوا بعد ذلك الى الميدان العلمى فاقوا الأقران وبزوا الأنداد وانشأوا حضارة كانت خير حضارة عرفها التاريخ حتى عهدهم

وقبل القاء القلم نعود فنكر راننا راعينا ذوق العصر الحاضر ، ومصطلحاته الكتابية فى وصف الحوادث واثباتها ، وان كتابنا هو خاص بالناحية السياسية دون سواها من تاريخ الاسلام . اما الناحية الدينية فقد وفاها اعلام الاسلام حقها فالقوا المطولات فى فضائله ومزاياه وآتوا بما ليس وراءه زيادة لمستزيد فجزاهم الله عن العلم والدين خيرا ورضى الله عنهم وارضاهم ، ووقفنا للاهداء بهديهم وهو حسبنا ونعم الوكيل ، نعم المولى ونعم النصير ، عليه توكلت واليه انيب

اصين سعيد

مَصَادِرُ الْكُتَابِ

الكتب التاريخية

تاريخ الأمم الإسلامية للخضري
أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم
خالد بن الوليد لعمر رضا كحاله
حروب الردة لطله الهاشمي
مرآة الحرمين لابراهيم رفعت
الرحلة الحجازية للييب البتانوني
قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة
تاريخ ملوك الحيرة لظريف الاعظمي
محمد صلى الله عليه وسلم لمحمد رضا
موجز تاريخ المدن العراقية
لعبد الرزاق الحسني

الكتب التاريخية القديمة

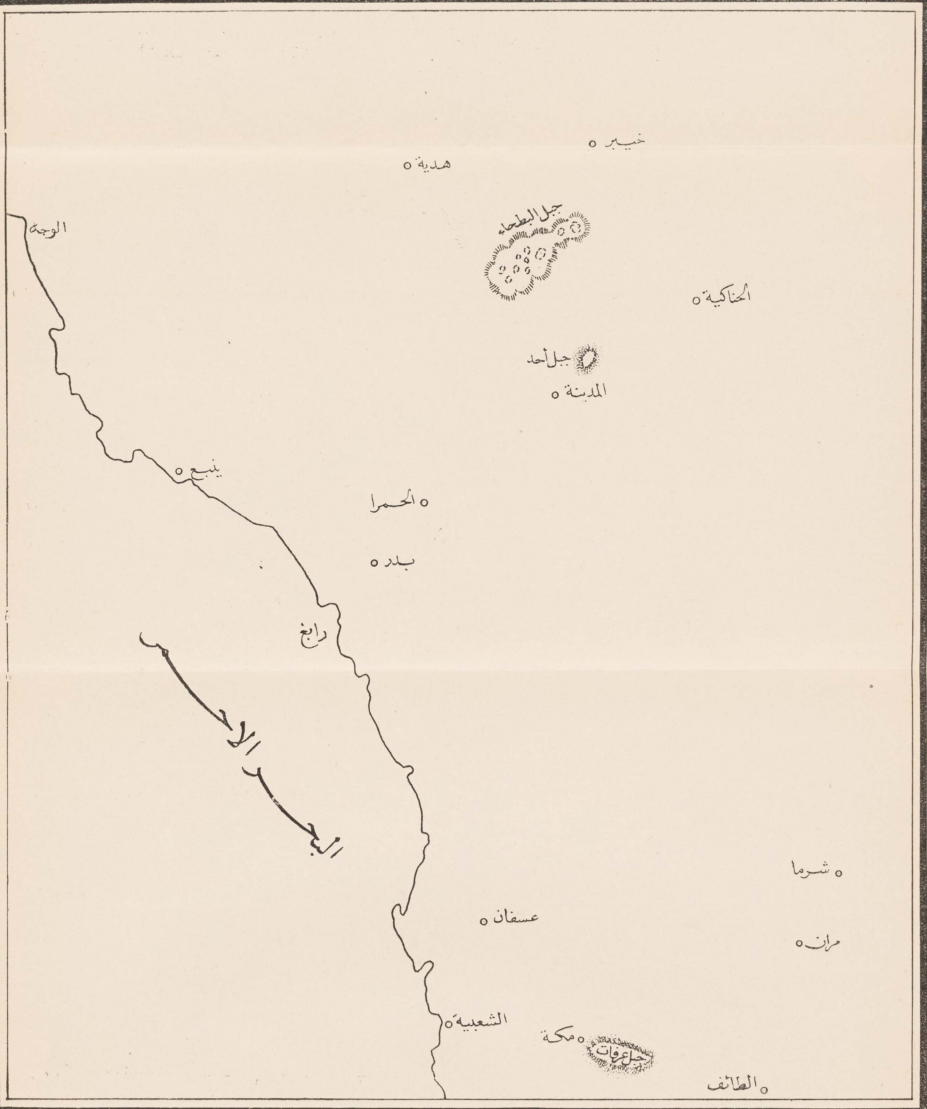
البخاري
سيرة ابن هشام
السيرة الحلبية
تاريخ ابن جرير الطبري
» ابن كثير
» الواقدي
» ابن خلدون

الكتب الأوروبية

دائرة المعارف البريطانية
Encyclopidia Britanica
تاريخ التواريخ
Historian's History
Of
the World
حياة محمد لدرمنجم
La vie de Mahamet
Par Dermenghem
الشاهنامة الفارسية
للفردوسي - نشرها عبد الوهاب عزام

نشأة الدولة الإسلامية

خريطة الحجاز قبل الاسلام



١ نظام الحكم في الحجاز قبل الاسلام

لم يكن للعرب في الحجاز ، قبل الاسلام « دولة » لا بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة في اصطلاح المتأخرين من علماء العصر الحاضر ، ولا بالمعنى الذى اصطلح عليه الروم والفرس والاحباش فى القرن السابع للميلاد وكانوا جيران الحجاز من الشرق (العراق) ومن الغرب (مصر والبحر الأحمر) ومن الشمال (سورية) ومن الجنوب (اليمن) فقد كانت فى القسطنطينية والمدائن (طيسفون) واكسوم دول عليها مسحة من النظام ، لها مالود عصرنا من اشارات ، ونظم ، وقوانين ، وقادة ، وجيوش ومدارس ، وحضارات ، وهيئات نيابية ، وشورية ، الخ

وكانت الحالة الاجتماعية لشعوب هذه الدول ، تفضل الحالة التى كان عليها سكان الحجاز يومئذ ، ومثل ذلك الحائتان الاقتصادية والعلمية ، فهناك تجارة رائجة وزراعة نامية ، وصناعات راقية ، وثروات ضخمة ، وحضارات وفنون لا تقل كثيرا عن حضارات هذا العصر وعلومه وفنونه ، ولسنا بحاجة الى الافاضة فى المقابلة ، فالنسبة تكاد تكون مفقودة بين حالة سكان الحجاز ، وبين حالة الاقطار المجاورة لهم وهى العراق والشام ومصر واليمن ، وكانت خاضعة لحكم اجنبى عنها فكان الروم يسيطرون على الشام ومصر وسيطرة الفرس على العراق واليمن ، فلا تناسب لبالعدد ولا بالعدد ولا بالثروة ولا بالعلم ، ولا فى أى ناحية من النواحي الاجتماعية ، أو الاقتصادية أو العديدية وقد اعتاد الباحثون أن يتخذوها قاعدة لدراساتهم وابعثهم

ونظام القبيلة أو « العصبية » هو الذى كان سائدا فى الحجاز ، ابان ظهور الاسلام ، فلكل قبيلة منازل ، وتقاليد ، بل ولهجة ، تختلف عن تقاليد ولهجة وديار

القبيلة الأخرى ؛ وما كانت حالة سكان المدن تفضل ، من هذه الناحية ، حالة البداة فقد انقسموا الى اخاذ وقبائل ، تدير كل منها ناحية خاصة من مدينته ، وتحصن فيها وضم إليها أنصاره وحلفاءه

وحالة مكة حين ظهور الاسلام تؤيد ما نقوله فقد كان الأمويون من أبناء عبد شمس ، ينزلون البطحاء ، وهي الجزء المنبسط حول الكعبة ، وبقربهم الأغنياء من بني مخزوم . أما الهاشميون فكانوا ينزلون شعب بني هاشم (شعب على بعد ذلك) وكان فيه قبة أقيمت حول المكان الذي ولد فيه النبي محمد وقدهمها الوهابيون حين دخولهم مكة فاتحين سنة ١٩٢٥ وينزل بنو نوفل وبنو أسد وبنو عبد الدار وبنو عدى وبنو تيم في الأحياء الأخرى ، ولكل قبيل حي يحتضن أبناءه وحلفاءه اما الأخطا (١) فكانوا ينزلون الأحياء البعيدة المنتشرة في سفح الجبل ، ومثلهم « الأخطاف » أيضا فكانوا يقيمون بقربهم

ولم تك هنالك صلات اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية بين مكة والمدينة ، بل بين مكة والطائف ، فكل منها مستقل الاستقلال التام الناجز في ادارة شؤونه الداخلية ، والخارجية ، والحربية ، يعتمد أبناؤه على سواعدهم في الدفاع عنها اذا هاجمهم مهاجم أو أغار عليهم مغير .

ويمتاز المكيون عن جيرانهم من سكان المدينة والطائف بميزتين :

الاولى انهم انشأوا جيشا أهليا خاصا سموه « الأحايش » كان رجاله مزيجا من عناصر ضاقت بها سبل العيش في بلادها فلجأت الى مكة فجندها قريش في جيشها ، وقادة هذا الجيش من العرب (٢) ويشبه نظامه كثيرا نظام الفرق الأجنبية (Légions Etrangères) في الجيش الفرنسي فجندها خليط من أمشاج شتى وضابطها

(١) يطلقون كلمة « الأخطا » على اللاجئين الى مكة من غير العرب

أما الأخطاف فهم من أبناء القبائل الذين طردتهم قبائلهم أو فروا لجرائم اقترفوها واستجاروا بقريش فأجارتهم

(٢) كان قائد الأحايش يوم « أحد » الحليس بن زيادة أحد بني الحرث بن

من الفرنسيين ، و يوزعها الفرنسيون في المالك والأقطار ويعتمدون عليها في حروبهم الاستعمارية

و بديهي أن المكين ما كانوا يجعلون كل اعتمادهم على « الأحيش » بل كانوا يتنادون الى الحرب والكفاح عند الحاجة معتمدين على أنفسهم في الدفاع عن مدينتهم ، يؤيد ذلك موقفهم يوم بدر ويوم أحد ويوم الخندق ، فقد اصطلوها بأنفسهم ولم يعولوا على الأحيش ، وما كانت مهمتهم في الغالب تزيد عن مهمة الشرط (البوليس) في هذه الأيام ، أى حفظ الأمن الداخلى وتوطيد النظام فلا يعبث به عابث وغنى عن البيان أنه لولا اشتغال المكين بالتجارة ، وكانت لمكة تجارة نامية في ذلك العهد ، وكان فيها تجار أذكىاء نشيطون ، يحملون اليها المتاجر والسلع من الشام والعراق واليمن و يبيعونها في المواسم ، مما أدى الى اثره بعض بيوتاتها لما استطاعت أن تقوم بنفقات « الأحيش » وما كانوا في الغالب يقولون عن مئات ؛ ولا تجبى الضرائب عادة الا من الشعوب القادرة على دفعها ، ولولا التجارة وما كانت تدره على المكين من أرباح لما استطاعوا دفع شئء ولكانت حالتهم لا تختلف عن حالة اهل المدينة والطائف

والميزة الثانية لمكة على بلاد الحجاز الأخرى هي أنه كان لها شبه « جمهورية » يسودها الأشراف وكبار ابناء الأسر العريقة في المجد ، ومع ما يشوب نظام هذه « الجمهورية » من شوائب فقد كانت الدولة الوحيدة للعرب في الحجاز ، قبل الاسلام

وكان مبدأ توزيع السلطات (القوى) محترما فيها ، فقد اقتسمت عائلات مكة المناصب الكبرى بالتساوى ، فاختص الهاشميون بالسقاية و بنو عبد الدار بالسدانة والحجابة واللواء والندوة وبنى سهم جباية الاموال وبنى عدى السفارة وبنى مخزوم القبة وبنى امية العقاب وبنى تيم الديات وبنى نوفل الرفادة

وكان « النظام الداخلى » لدار الندوة يقضى بعدم قبول من لم يبلغ الأربعين في عضويتها من غير قريش ، ويسمح لمن لم يبلغ هذا السن من القرشيين بدخولها

بشرط أن يكون امتياز بميزة ، وكانت تتألف عادة من الشيوخ الطاعنين في السن
ومن كبار التجار ، والشعراء

وكان ممثلو الأئخاذ من رؤساء الأسر يجلسون على التوالى طبقا لمقام انخازهم ،
وكانوا لا يرمون أمرا الا بعد بحثه وتمحيصه في برلمانهم الأهلئ (دار الندوة) وكانت
قراراتهم محترمة عند الجميع ونافذة على الجميع

وكان لدار الندوة - وهئ فى الأصل دار قصئ ، جد الهاشمئين والأموئئئ ،
وئقال انها أول دار بنتها قرئش فى مكة - باب ١١١١ بالكعبة ، أى انها كانت بمثابة
جزء متمم لها ، وقد عفت آثارها الآن ، وبحث كاتب هذه السطور خلال زيارته لمكة
فى سنتئ ١٩٢٨ و ١٩٣٠ عن مكانها فلم يوفق الى معرفة شئ عنها

وشهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم بعض اجتماعات دار الندوة وهو صغير ، وكان
يجلس فى حجر جده عبد المطلب ، وكانت الئه رئاستها . وتوفئ هذا وهو صغير فكفله
عمه ابو طالب . فلما بشر بالنبوة وقام يدعو بدعوته ، وينشر رسالته ، وئعمل لاءراج
قومه من الظلمات الى النور ، وهدائتهم الى السبئل الاقوم ، تألبت عليه قرئش فمنعه
منها ، وحماء من كئدها ، وكان له ردء وعونا

معنى الدعوة الإسلامية

الدعوة الإسلامية ، في أصلها دعوة دينية خالصة ، غايتها ارشاد البشر الى الله ، واخراجهم من الظلمات الى النور ، ورسالة علوية سماوية اختص الله بها نبيه ورسوله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب المكي القرشي ، ارسله الى الناس كافة ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ لانقاذهم من الهمجية والجهالة ، لا لتأسيس الدول وانشاء الممالك ، ولالافتح والاستعمار والباحث في سيرة المبعوث الأعظم من بدء بعثته حتى يوم هجرته ، وبينهما ١٣ سنة - فقد بعث وسنه ٤٠ سنة وهاجر وسنه ٥٣ سنة - يتبين انها مرت في أدوار شتى واجتازت مراحل متعددة ، فقد كانت في ابتداء أمرها قاصرة على الوعظ والارشاد واكتساب الأنصار عن طريق الاقناع والموعظة الحسنة، وقد آمن به في الدور الاول ويصح أن يسمى «الدور البيتي أو المنزلي» زوجته السيدة خديجة ، وهي أول من آمن به من البشر واهتدى بهديه ، ثم تلاها علي بن ابي طالب ريبه وهو أول فتى دخل في الاسلام ثم زيد بن حارثة عتيقه وهو أول رجل دخل في الاسلام ثم أبو بكر الصديق وأسلم بدعوته عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وطلحة بن عبيد الله . وانتقلت الدعوة من هذا الدور وكانت فيه ضيقة الدائرة محدودة النطاق ، وقد استمر ثلاث سنوات الى دور أعم وأوسع ونعني به « دور الأهل والعشيرة » فقد أمره الوحي بأن يدعو عشيرته الأقربين فأرسل فدعا آل عبد المطلب الى مأدبة أديها لهم فحضرها ٤٠ منهم خطبهم في ختامها خطبة

مؤثرة استمالة لهم ، فهزأ به بعضهم وسكت آخرون (١) وانتهت المأدبة من دون نجاح يذكر، فلم يضعف ذلك من همته ولم يحمله على التراجع والتباطؤ

وتلا هذا الدور دور ثالث هو «دور الجهر بالدعوة» فقد سعد ذات صباح، وذلك في السنة السادسة من سنى الدعوة على الصفا (بجوار الكعبة) وقال بصوت جهورى :

« أصبح الصباح فهبوا يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، يا بنى مخزوم ، بالبطون قريش فأقبلوا عليه، فقال لهم أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى يكمنون لكم اكنتم مصدق؟ قالوا نعم، ماجر بنا عليك كذبا. قال فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد

» يا بنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زهرة حتى عدد الانفاذ من قريش : ان الله امرنى أن أندر عشيرتى الاقربين وانى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا الا أن تقولوا لا اله الا الله »

فقال له عمه أبو لهب « تبالك سائر اليوم لهذا جمعنا »

وقاومت قريش الدعوة الاسلامية وكافحتها ، فلم يعأ بها ، ولم يحفل بمقاومتها ، وكان ينشر دعوته، فى كل ناد ، ويخرج للناس فى المواسم والأعياد ، يدعوهم «لدين التوحيد والايان بالله » ففسأ أمره وذاع ذكره ، وكثر اتباعه كثرة أخافت قريشا فأذته واضطهدت أصحابه فلم يزددهم ذلك الا ايماننا وتمسكا بدينهم وعقيدتهم فهاجر بعضهم الى الحبشة فارين بدينهم وایمانهم وأقام ذوو العصبية منهم فى مكة لهم من عصبيتهم درع متين وحصن حصين

ويبتدىء الدور الرابع باسلام حمزة وعمر بن الخطاب فى السنة الثامنة للبعثة وهما من أبطال قريش وصناديدها فقد عز الاسلام بدخولهما فيه

(١) هذا نص الخطبة « يا بنى عبد المطلب : ان الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم . والله الذى لاله الا هو ، انى لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالاحسان احسانا ، وبالسوء سوءا انها لجنة أبدا ولنار أبدا

وفي هذه السنة صلى المسلمون للمرة الأولى في الكعبة جهرة وكانوا يقيمون صلاتهم من قبل في الخفاء فأقلق ذلك قريشا وأزعجها ، وأخافها وأرهبها ، فضربت أخماسا في أسداس ودرست الوسائل والسبل التي تتوصل بها الى اضعاف شأن الاسلام والقضاء عليه بعد ما عجزت عن استمالة صاحب الدعوة وقد بذلت له أنواع المغريات لصرفه عن الأمر الذي جاء به ، فلم يغن ذلك عنها شيئا .

المقاطعان الاجتماعيه والاقتصادي

والمقاطعان الاجتماعيه والاقتصادي هما آخر سلاح تسلحت به قريش في نضالها وكانت تظن انها تبلغ به مناهها وتتخلص من صاحبها ، وبيان ذلك ان صناديدها وكبارها اجتمعوا في دار الندوة وتعاهدوا على مقاطعة بنى هاشم وعدم معاملتهم والاتجار معهم ومصاهرتهم مالم يسلموهم محمدا ويكفوهم أمره ، وراى بنو هاشم أن تخليهم عن رجلهم يلحق بهم سبة وعارا ، وكان معظمهم لا يزال على دين الجاهلية فأحاطوا به وتحصنوا في شعب بنى هاشم واعتزلوا قريشا واعتزلتهم لا يعاملونها ولا تعاملهم ولا يتصلون بها ولا تتصل بهم الا في الأشهر الحرم فقد كانوا يخرجون في خلالها الى مكة ويشتركون في المواسم التي تقام ، ثم يعودون بعدها الى معتصمهم في الشعب وظلوا على ذلك سنتين وقيل ثلاثا فحير قريشا ثباتهم وصبرهم وقوة عزيمتهم ، فأعدت النظر في أمرهم وقررت بعد طول المناقشة والبحث - وقد اشترك في الاجتماعات التي عقدت لدرس هذه القضية معظم صناديدها وأقطابها - الغاء « المقاطعة » ورفع « الحرمان » فرجعوا الى منازلهم في مكة وعادوا الى ما كانوا عليه من التعامل ، بيد أن هذا لم يحل دون اضطهاد المسلمين ، والتشديد عليهم افرادا وجماعات، والتندرع بجميع الوسائل لمحلمهم على الردة ، ومنع انتشار الاسلام ونموه

التجاء النبي الى الطائف

وتوفي أبو طالب في السنة العاشرة للهجرة وكان حامى الرسول وكأفاه، وناصره ومعينه ، فزادته قریش له جفاء فأخذ يبحث عن ذى عصبية يحميه ويكف عنه أذى السفهاء فقصده لذلك الطائف يوم ٢٧ شوال من السنة العاشرة للبعثة للهجرة ومعه مولاه زيد بن حارثة ، لاجئا الى ثقيف وقابل جماعة من أشرفهم فدعاهم الى الله فردوه وأغروا سفاهم وعبيدهم به ، يسبونونه ويصيحون عليه حتى اجتمع عليه الناس والجاؤوه الى حائط فلما اطمأن ورجع عنه السفهاء دعا بالدعاء الآتي :

« اللهم اليك اشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس

« اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلمتني ؟

الى بعيد يتجهمني أو الى عدو ملكته أمرى؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أباني ، ولكن عافيتك هي أوسع

« أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة

من أن تنزل بي غضبك ، أو تحل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك »

وقضى في رحلته الى الطائف عشرة أيام ، ثم عاد ولم تقض حاجته ، ولم يجد

الذي يأوى الى كنفه ، ولما بلغ نخلة (مكان بين مكة والطائف ويبعد عن الاولى نحو

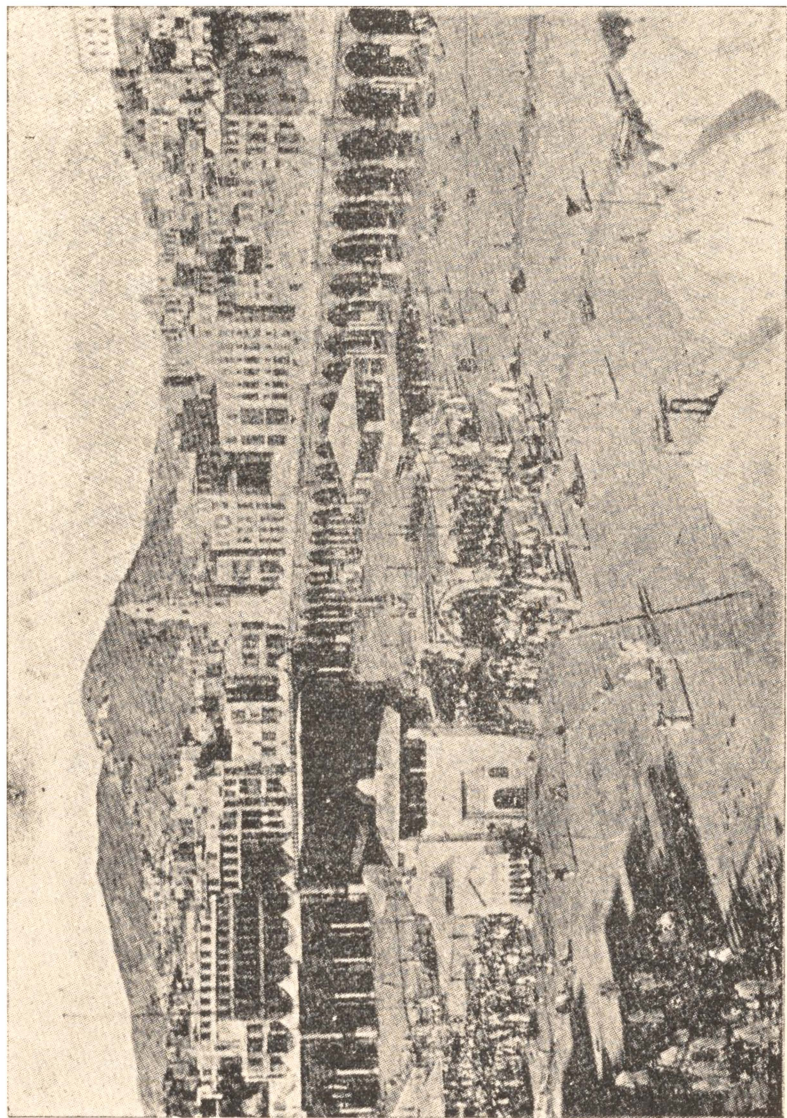
٣٥ كيلو مترا وهو الى شرقها ولا يزال قائما) أقام فيها وأرسل الى المطعم بن عدى

يسأله ان يجيره حتى يبلغ رسالات ربه ، فأجاره ، فدخل مكة في حماة آمننا مطمئنا ؛

وفي بحثه عن حام له بعد وفاة عمه وزعيم أسرته فيه ما فيه من الدلالة على عظم شأن

العصبية عندهم ، وتأثيرها في مجتمعهم الجاهلى . وقد كان لعصبية القوية دخل كبير في

نجاح دعوته ، وبلوغ مابلغه



مكة المكرمة وفي داخلها الكعبة

مضوره في المواسم

واستمر بعد رجوعه من الطائف في نشر دعوته ، وكان يحضر المواسم ويجتمع بالقبائل ويعرض عليها نفسه ، ويدعوها الى الدخول في دين الله ، فكان خبره يزداد شيوعا ، واسمه يزداد ذيوعا

اتصاله بالاوس والخزرج

واتصل في موسم السنة العاشرة بنفر من الاوس والخزرج اليثريين جاءوا من طيبة لزيارة الكعبة ، وكان عرب الحجاز يحجون اليها ، فدعاهم الى الاسلام فأسلموا (١) وانقلبوا الى قومهم فأخبروهم خبره ، ففشا الاسلام في المدينة ، وجاء في العام التالي اثنا عشر يثريا : ١٠ من الاوس واثنان من الخزرج فاجتمعوا به عند العقبة وبايعوه بيعة العقبة الاولى (٢)

وأرسل معهم حين منصرفهم الى المدينة مصعب بن عمير من أصحابه يقرؤهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم في الدين ، فانتشر الاسلام في المدينة ، وراج سوقه ، وكثر أتباعه ومعتنقوه

وأقبل في السنة الثالثة وفد كبير من اليثريين بلغت عدته ٧٢ شخصا منهم ٧٠ رجلا وامرأتان هما نسيبة بنت كعب أم عمارة وأسماء بنت عمرو بن عدى من بنى سامة فواعدوا النبي سرا واجتمعوا به بعد منتصف الليل عند العقبة وهي على يسار القاصد

(١) هذه اسماء النفر وهم ستة : أبو امامة أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وعامر بن عبد حارثة ، وقطيبة بن عامر ، وجابر عبد الله بن رباب

(٢) هذا نص صيغة البيعة : « نبأيعك يا رسول الله على ان لا نشارك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى يبرهان نفترية من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيك في معروف »

من منى الى مكة ، فجاءهم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ، وبدأ العباس الكلام فقال لهم :

«يامعشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم في عز ومنعة ، وانه قد أبى الا الانقطاع اليكم ، فان كنتم ترون أنكم تفنون له بما دعوتموه اليه ومانعوه فأتم ذلك وان كنتم ترون أنكم مساموه فمن الآن فدعوه فانه في عز ومنعة »

ثم تلا النبي بعض آي القرآن ورغب في الاسلام وقال لهم انى أطلب منكم أن تمنعوني مما تمنعون عنه نساءكم وأبناءكم وتكلم البراء بن معرور فأخذ بيده وقال :والذى بعثك بالحق لمنعك عما تمنع منه ذرارينا فبايعنا يا رسول الله فحنن والله أهل الحرب وتكلم أبو الهيثم بن التيهان حليف بنى عبد الاشهل فقال يا رسول الله ان بيننا وبين الناس حبلا وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان أظهرك الله عز وجل أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فتبسم الرسول ﷺ وقال بل الدم الدم ، الهدم ، الهدم ، أتم منى وأنا منكم أسلم من سالمتم ، وأحارب من حاربتم

ثم اختار منهم ١٢ نقيبا يكونون على قومهم ٩ من الخزرج و ٣ من الاوس وهذه أسماؤهم :

سعد بن عبادة ، واسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ، وسعد بن خيشمة.والنذر ابن عمرو ،وعبد الله بن رواحة ، والبراء بن معرور ، وأبو الهيثم بن التيهان ، وأسيد ابن حضير وعبد الله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت ورافع بن مالك وهذا نص صيغة بيعة العقبة الثانية

« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون عنه نساءكم وأولادكم »

الأوس والخزرج

في دخول الأوس والخزرج في الإسلام ، وبيعة العقبة الثانية ، فاتحة تحول خطير الشأن في سير الإسلام ولاغرو فقد لقي النبي بعد طول جهاده ونضاله ، مدة ثلاث عشرة سنة ، قبيلة عربية قوية متحضرة ، قبلت أن تنزله في أرضها وتحميه وتدافع عنه كما تدافع عن نساءها وأبنائها ، وهما أئمن ما عند العرب ، وتبذل كل شيء في سبيل تأييده ونصرته .

ولقد تبين مما قدمناه أن العلاقات بين النبي واليثر بين سارت في مجراها الطبيعي العادي ، فكان في المرحلة الأولى (السنة العاشرة) لقاء في الموسم ، فتعارف بينه وبين ستة منهم انتهى بدخولهم في الإسلام وعودتهم الى مدينتهم ونشرهم الدين في ربوعها ، ثم قدوم ١٢ منهم في العام التالي واجتماعهم اليه ، وارساله معهم مصعب بن عمير ، يعامهم القرآن ، ويفقههم في دينهم ، وقد أنتج ارساله أفضل النتائج فقد كان لاختلاصه في دينه ، ووجه لنبيه ، وتفانيه في نصرته ، تأثير كبير في نفوس زعماء الأوس والخزرج فأسلموا على يده فارتفع شأن الإسلام بهم وفشا في ديارهم ، وبدلا من الاثنى عشر الذين جاءوا في السنة الثانية ، جاء منهم ٧٢ في السنة الثالثة فاجتمعوا اليه سرا كما قدمنا وشهد اجتماعهم عمه العباس ، وبايعوه على غير ما بايعه اخوانهم في السنة الماضية ، وما ذلك الا لأن الموقف في مكة كان قد تبدل تبديلا أدرك النبي معه صعوبة الإقامة فيها فعول على الهجرة الى المدينة ، وكانت أخبار فشو الدين فيها تصله من مندوبه ، فيقيم بين أنصاره وأتباعه حيث يكون في مأمن ومنعة

ففكرة الهجرة الى المدينة ، لم ترتجل ارتجالا ، وإنما بعثت عليها الحوادث وفي

مقدمتها شدة ضغط المكين عليه وعلى أتباعه من الوجهة السلبية ، ودخول الأوس والخزرج في الاسلام وهم سادة المدينة وأصحاب الرأي فيها من الوجهة الإيجابية ، ومعنى ذلك أنه أصبح في مقدور المسلمين أن يلجأوا إليها فينزلوا عند اخوانهم و يقيموا معززين مكرمين ، يعبدون ربهم ، ويجاهرون بعقيدتهم ، من دون أن يخشوا اضطهادا وتعديبا ولا يخفى أن بعضهم كان مهاجرا في الحبشة عند النجاشي ولما اختمرت هذه الفكرة في رأسه ﷺ فاتح اليربيين بها حينما جاءوه في السنة الثالثة ، فقبلوها بدون تردد بعدما اشترطوا عليه أن لا يدعهم وشأنهم ، ويرحل عنهم اذا فتح الله له ، فقبل شرطهم ، وهكذا تمت البيعة وعين عليهم النقباء و بعد ما نظمهم ورتب أمورهم عادوا الى مدينتهم وأخذوا يتأهبون للعمل العظيم ، الذي اعدوه لأنفسهم ، أو أعدته الأقدار لهم ، وعاد هو الى مكة آمنا مطمئنا لانه لقي بين قبائل العرب من ترضى بأن تبذل دمها في سبيله وتحميه وتدافع عنه ، وقد كان ذلك فوزا عظيما له لا يستهان به وخصوصا متى ذكرنا ما لقيه من اعراض قومه وجفائهم . وما لقيه في رحلته الى الطائف من مقاومة شديدة واعراض جميع القبائل عنه خلال دعوته في ثلاث عشرة سنة

أصل الاوس والخزرج

والأوس والخزرج قبيلتان مشهورتان في شمالي الحجاز وأصلهما من قبائل قحطان التي هاجرت على أثر حادث سيل العرم المشهور وينزلون يثرب وهي على ٤٥٠ كيلو مترا من مكة الى الشمال ، و١٣٠٣ كيلو مترات من دمشق الى الجنوب ونحو ألف كيلو متر من بغداد شرقا وتعد عاصمة شمالي الحجاز وأوس وخزرج اخوان والدهما حارثة بن ثعلبة الغنقاء بن عمرو مزريقاء ابن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد ابن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ووالدتهما قبيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاة

و بطون الأوس تنتسب لمالك بن الأوس وولده :

خطة بن جشم بن مالك وثعلبة ولوزان وعوف وهم بنو عمرو بن عوف بن مالك
ومن بنو عوف حنش ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد ، ومن زيد عبيد
وضبيعة وأمّية ، ومن كلفة حججبا . ومن مالك بن الأوس الحارث وكعب ابنا الخزرج
ابن عمرو بن مالك

ومن كعب بنو ظفر ، ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم . ومن جشم
بنو عبد الأشهل

ومن مالك بن الأوس بنو سعد و بنو عامر ابنا مرة بن مالك و بنو سعد الجعادرة
ومن بنو عامر عطية وأمّية و وائل بنو زيد بن قيس بن عامر . ومنه أيضا اسلم و واقف
ابنا امرئ القيس بن مالك

و بطون الخزرج خمسة : كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث
فمن الأول : بنو ساعدة بن كعب

ومن الثاني : بنو النجار وهم تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة : بنو
مالك ، و بنو عدى ، و بنو مازن ، و بنو دينار . ومن مالك مبدول واسمه عامر وغانم
وعمرؤ ، ومن هذا عدى ومعاوية

ومن الثالث : بنو سالم والقواقل وهما عوف بن عمرو بن عوف . والقواقل ثعلبة
وصرخمة بنو قوقل بن عوف . ومن سالم بن عوف بنو العجلان بن زيد بن عصم بن
سالم و بنو سالم بن عوف

ومن الرابع : بنو غضب بن جشم ويزيد بن جشم . ومن الأول بنو بياضة ،
و بنو زريق و بنو عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب ، ومن يزيد بن
جشم بنو سامة بن سعد

ومن الخامس : بنو خدرة و بنو حرام بن عوف بن الحارث بن الخزرج

عدد نفوس الاوس والخزرج

تلك هي بطون الاوس والخزرج ، وكانت تنزل في نفس المدينة وفي ضاحتها وتعمل في الزراعة ولها نخيل وكروم وبيوت ومساكن أى انها مستقرة متحضرة ، بعكس بعض قبائل الحجاز الاخرى . اما عددها فالمرجح انه كان يتفاوت بين الفين وخمسمائة وثلاثة آلاف ، يخرجون نحو ألف مقاتل وقد ابلوا أحسن بلاء في نصره الاسلام ونشره وتأيدته

قريش تأتمر بالنبي وتقرر اغتياله

لم يخف على قريش ، وما كانت تجهل ما بين النبي ﷺ والاوز والحزرج من صلات ، أمر العقبة الثانية والاتفاق الذي عقد فيها ، ولم يبق خبر انتشار الاسلام في المدينة وفسوه بين طبقاتها سرا من الاسرار ، فصعب بن عمير مندوب النبي ﷺ ينزلها و يعلم أبناءها الدين والقرآن و يصلى بهم ، و يعمل على ازالة ماينهم من ضغائن واحقاد وأدركت قريش ان صبرها على النبي كاد يوصلها الى النتيجة التي طالما تخوف منها بعض غلاتها ، وهي فشو أمره بين القبائل وانتشار صيته ، ونجاح قضيته ، فعزمت على القيام بأمر حاسم ، يحل مشكلته ، وينجز أمره ، وذلك باغتياله والتخلص منه ، فتدفن دعوته في قبره ، وتلحد في كفنه ، فيتناساها الناس وتدخل في خبر كان

ولكن كيف السبيل الى اغتياله ؟ وما هي طرقه واساليبه ؟ وما يكون موقف بنى هاشم ، وهم ذوو عصبية ونجدة واولو بأس وقوة ازاء هذا الحادث ؟ وهلا يؤدي الاقدام عليه الى اضرار نار حرب اهلية في بطن مكة لاتبقى ولا تذر فتصطدم القبائل بالقبائل وتقع الواقعة بين بنى الاعمام وهو ما يحذره العقلاء ويعملون على اجتنابه واتقائه ! ودار بحث طويل بين دعاة هذه الفكرة وأنصارها حول تنفيذها ، ويقال انهم عقدوا اجتماعا سريا خاصا في دار الندوة ، لم يدع اليه أحد من بنى هاشم ، وكانوا رغم بقاء أكثرهم على دين الجاهلية ، يؤيدون صاحبهم وينصرونه ، عملا بمبدأ العصبية ، واعتقادا منهم أن في فوزه اعلاء لشأنهم ، وتعزيزا لمكاتهم ، وقد لانبالغ اذا قلنا ان النضال بين الهاشميين والامويين في زمن البعثة كان محليا

أكثر منه دينيا ، فقد أدرك الامويون من الساعة الاولى ان فوز محمد ﷺ يؤدي الى انتزاع السيطرة منهم على الوادى ، ويرفع شأن الهاشميين ويرجح كفتهم ، وكانوا دون الأمويين وجاهة وغنى وان كانوا أكثر منهم عددا

وقد جاء سير الحوادث فى النهاية مؤيدا لهذا الرأى ففتح مكة بعد ذلك على كل ما كان للأمويين وحلفائهم من بنى مخزوم من نفوذ ومقام وصاروا تبعا لبنى هاشم ، ولم يرتفع رأسهم الا بعد خلافة عثمان الأموى ، أى بعد انقضاء نحو ربع قرن على فتح مكة

واستقر قرار المؤتمرين على انتداب اثنى عشر شابا يمثلون بطون مكة واخذها يجتمعون فى ليلة معينة على باب داره ويرابطون حتى الصباح فيأخذونه بسيوفهم السلولة حين خروجه فيضيع دمه بين القبائل فلا يعرف الهاشميون من يطالبونه به فيرضون بالدية لانه لا قبل لهم بمحاربة مكة طلبا بثأره

نعم : هذا ما أجمع المؤرخون على أن رجال قريش اتفقوا عليه حينما عجزوا عن إخماد الحركة الاسلامية ، وعن اطفاء نورها ، وعن استمالة صاحبها ، وصرف الناس عنه ، وهى تدل على منتهى العجز والجهن ، ولم يخف عليه ما يدبرونه له فى الخفاء وما يكيدونه له من مكائد ، ولعله عرف أيضا تاريخ الليالة التى استعدوا لتنفيذ خطتهم فى صباحها ، فغادر منزله متنكرا ، الى منزل أبى بكر ، ولكى يرج الوقت الكافى للتغيب أو عز الى ابن عمه وريبه على بن ابى طالب بأن ينام فى فراشه ، ويتسدر بدثاره الأخضر ، تضليلا للمؤتمرين وصرفا لهم عن مطاردته واللاحق به ، فلا يأخذون عليه الطرق والمسارب قبل أن يبلغ مأمنا يأمن به

وجاز عليهم الأمر حينما بصروا بعلى وهو نائم فى مكانه ، ففضوا الليل فى ابتظاره ، ولما طلع النهار وخرج عليهم أسقط فى أيديهم ، وعرفوا أنهم خسروا الصفقة وأضاعوا الوقت ، فلم يثبط ذلك من عزائمهم فأرسلوا من يطلبه ويبحث عنه وأذاعوا فى القبائل أنهم يدفعون جعلاً كبيراً لمن يأتيهم به ، وكان قد احتاط لمثل هذا

الأمر فلجأ الى غار ثور فأقام ثلاثة أيام بلياليها . ولما هدأت الضجة وعرف أنهم كفوا عن مطاردته غادر الغار الى يثرب ومعه صاحبه أبو بكر الصديق وقد لجأ الى بيته في الليلة التي ائتمر به المشركون فيها ، ثم لجأ معه الى الغار ، وقصدا المدينة يوم الخميس أول شهر ربيع الاول من السنة الثالثة عشرة للبعثة (٢٨ يونيو سنة ٦٢٢ م) فدخلها بين مظاهر الحفاوة والتكريم

الهجرة

عكف النبي ﷺ بعد بيعة العقبة الثانية على تنظيم الحركة تنظيماً جديداً ، فأصدر أوامراً سرية إلى أصحابه بأن يلحقوا بالمدينة وبأن يتكتموا في خروجهم فقصدها تحت إشرافه وملاحظته جماعات ووحداً ، وكان أول من بلغها في هذا الدور أبو سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة وعبدالله بن جحش ، ثم تتابع وصول المهاجرين من بعدهم حتى لم يبق بمكة حينما غادرها في شهر ربيع الأول - أي بعد العقبة بشهرين وبضعة عشر يوماً - سوى أبي بكر وقد جاء معه ، وعلى بن أبي طالب وقد لحق به ومعه الفواطم وأم أيمن وولدها وبعض ضعفاء المؤمنين . ومعنى ذلك أن عملية الهجرة استغرقت شهرين وبضعة أيام ، لم يتخلف عنها أحد من اصحاب الأيمان

ولم نقف في كتب السير المختلفة على إحصاء دقيق لعدد المهاجرين الذين غادروا مكة إلى المدينة في تلك الفترة ، ويلوح لنا أن عددهم ما كان يزيد على المئة يؤيد ذلك ما روى في الأسانيد الصحيحة وهو أن الجمعة أدركته في بني سالم بن عوف ، في طريقه من قبا إلى المدينة فصلاها في المسجد الذي ببطن الوادي بمن معه من المسامين وهي أول جمعة صلاها بالمدينة وكان معه مئة من أصحابه ، ولا بد أن يكون بينهم عدد غير قليل من الأنصار الذين جاءوا لاستقباله وصحبوه في سيره إلى المدينة

وفضلاً عن ذلك فإن ابن هشام لم يورد أسماء أكثر من ٦٠ صحابياً قال أنهم هاجروا إلى المدينة حينما صدر إليهم الأمر بالهجرة ، وكذلك فإن عدد الذين آخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار من المهاجرين لم يزد على خمسة وعشرين صحابياً

وإذا أضفنا الى هذا العدد ، عدد المهاجرين المكيين الذين كانوا في الحبشة - وكان عددهم يوم هجرتهم ١٠١ مهاجرا منهم ٨٣ رجلا و ١١ امرأة قريشية و ٧ غير قريشيات ، وقد مات بعضهم في الحبشة وتخلف آخرون في مكة ، ولم يصل منهم الى المدينة بعد استقرار المسلمين فيها سوى ٤١ منهم ٣٣ رجلا و ٨ من النساء - عرفنا أن مجموع عدد المهاجرين الاول ما كان يزيد عن مئة وخمسين بين نساء ورجال وأطفال وشيوخ ويقال في رواية أخرى انهم كانوا أكثر من ذلك وقد انضم هؤلاء الى الاوس والخزرج « الأنصار » ومن هؤلاء وهؤلاء تألفت نواة الامة الاسلامية، وبفضل اخلاصهم وتضحياتهم فاز الاسلام وانتشر الدين وعلت كلمة الله

في طريق المدينة

يلوح لنا أن مؤامرة قريش ، لم تزد على أن عجلت في سفر النبي ﷺ من مكة الى المدينة ، وقدمت مواعده ، فجميع الدلائل تدل على انه كان معتما مهاجرة الى يثرب مقرها لها

ولا ريب ان في هجرة جميع من كان في مكة من المسامين الى المدينة، في خلال الفترة الممتدة بين النصف الثاني من شهر ذى الحجة وبين النصف الثاني من شهر صفر، على أثر العقبة الثانية - وقد قصدوا المدينة بأمره وسافروا تحت اشرافه - ما ثبت اعتمامه اللحاق بهم ليكون على رأسهم . هذا فضلا عن انه لم يكن في مكة يوم خروجه منهم سوى ابي بكر الصديق وكان قد أعد معدات الرحلة ، وأقام ينتظر الرسول ليكون في صحبته . وقد سافرا فعلا بعد ذلك ، وعلى بن أبي طالب وقد لحق به على الأثر ، يضاف الى هذا أنه عاهد اليبثريين في منى على ان يلحق بهم وينزل بينهم ، وأن يحموا ويدافعوا عنه

وعجل في الرحيل حينما عرف أن القوم يأتمرون به ، وبنوون اغتياله ، فقصد منزل أبي بكر متخفيا وفي غير الميعاد الذي اعتاد أن يزوره فيه ، فأيقظه من نومه ، وأبلغه أنه أذن له بالهجرة ، فقصدا غار ثور فليجآ اليه ، وكان ذلك مساء يوم الخميس أول ربيع الأول كما رواه المحققون وهو اليوم الذي اعتزمت فيه قريش تنفيذ مؤامرتها . ولولا ذلك لما اضطر الى التخفي وزيارة ابي بكر في غير موعد الزيارة وطلبه اليه أن يخلى منزله ثم التجأهما الى الغار ، وتكليفه على بن ابي طالب أن يرد الامانات الى أهلها

رواية البخارى لحديث الهجرة

ونحن ثبت هنا رواية صحيح البخارى منقولة عن السيدة عائشة بنت ابى بكر الصديق وهى تؤيد ما قلناه واستنتجناه قالت :

« فبينما نحن يوما جلوس فى بيت أبى بكر فى نحر الظهر^(١) قال قائل لأبى بكر هذا رسول الله جاء متقنعا فى ساعة لم يكن يأتينا فيها . فقال أبو بكر فداء له أبى وأمى والله ما جاء به فى هذه الساعة الا أمر . قالت عائشة : جاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال لأبى بكر أخرج من عندك (مما يدل على شدة الخدر) فقال أبو بكر انما هم أهلك

« قال فقد أذن لى فى الخروج (الهجرة) قال أبو بكر الصحبة بأبى أنت يارسول الله . قال نعم . قال فخذ احدى راحلتى هاتين . قال بالثمن

« قالت عائشة وجهنناهما أحث جهاز (أى أسرعه) وصنعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت اسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها فربطت بها على فم الجراب فسميت ذات النطاقين . ثم لحق رسول الله وأبو بكر بغار فى جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليال

الطريق الذى سلكه

وغادر الرسول ﷺ وصديقه الغار حينما شعرا أن الضجة التى قامت حول تعيهما سكنت وانه لاخوف عليهما ولا خطر ، وصحبهما دليل ماهر هو عبد الله بن اريقط من بنى الدليل ، وعامر بن فهيرة مولى أبى بكر (أى خادمه أو تابعه)

(١) أى ابان اشتدادها وكان ذلك فى أواخر شهر يونيو . ومكة تكون شديدة الحرارة فى مثل هذا الشهر وخصوصا عند الظهر ولا تقل درجة الحرارة فيها عن الأربعين فى ميزان سنتغراد

وسلك الدليل بالركب طريق الساحل (ساحل البحر الأحمر) وبين مكة
والمدينة أربع طرق يسلكها المسافرون وهي :

١ - الطريق السلطاني

٢ - الطريق الفرعى

٣ - الغاير

٤ - الشرقى

والمسافة بين المدينتين نحو ٥٠ كيلومترا فى الطريق السلطاني على انها فى
طريق الغاير أقصر ، ويسمونه الطريق المدنى لان أهل المدينة يستسهلونه فى حجهم
لقربه فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم ويسرون فيه قوافل قوافل ، ولهم منازل
ينزلون فيها

وي لوح لنا أن الدليل اتجه بهم الى عسفان وهى على مرحلتين من مكة ثم قصد
القضيمة فرابع ومنها اتجه الى المدينة رأسا فوصل يوم الاثنين ١٢ ربيع الاول الى قبا
(وهى قرية خصبة بها حدائق على خمسة كيلومترات من جنوبى المدينة الغربى)
فنزله ضيفا على كاثوم بن الهرم شيخ بنى عمرو بن عوف (الاوس) وكان قد أسلم
قبل وصوله وأقام عنده أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس

أول مسجمر فى الاسلام

وفى قبا أسس مسجدها المعروف وقد جدد بناءه السلطان عبد الحميد الاول فى
القرن الثانى عشر للهجرة ، وفى وسط صحنه قبة أقيمت على مبرك ناقة ﷺ ولا يزال
قائما تؤدى فيه الصلاة وهو الذى أسس على التقوى من أول يوم

اول جمعة فى الاسلام

وغادر النبى ﷺ قبا ضحى يوم الجمعة ١٦ ربيع الاول الى المدينة فأدركته
صلاتها فى بنى سالم بن عوف (آبار على فى الوقت الحاضر) فصلى بالذين كانوا معه

وهي أول جمعة صلاها في المدينة وخطب الخطبة الآتية فسن بذلك خطبة الجمعة قال :

« الحمد لله أحمده واستعينه ، واستغفره واستهديه ، وأؤمن به ولا أكفره ، وأعدى من يكفره ، وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمن ، وذنو من الساعة ، وقرب من الأجل »

« ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى ، وفرط وضل ضللا بعيدا

« أوصيكم بتقوى الله فانه خير ما أوصى به المسلم المسلم، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرا ، وان تقوى الله لمن عمل به على وجل ومحافة من ربه عون صدق على ماتبعون من أمر الآخرة

« ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية لانيوى بذلك الا وجه الله يكن له ذكرا في عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت حين يفتقر المرء الى ما قدم وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد

« ولقد صدق قوله ، وأنجز وعده ، لاخلف لذلك فانه يقول عز وجل ﴿ مَا يَدَّبُلُّ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجاله ، في السر والعلانية فان من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزا عظيما وان تقوى الله يوقى مقتته ويوقى سخطه . وان تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة

« خذوا بحظكم ولا نفرطوا في جنب الله ، قد عامكم الله كتابه ، ونهج لكم سبيله ، ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين

« فاحسنوا كما أحسن الله اليكم ، وعادوا أعداءه وجاهدوا في الله حق جهاده

هو اجتباكم وسماكم المسلمين ؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة ولا قوة الا بالله

« فأكثرُوا ذكر الله ، واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يصلح بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة الا بالله العظيم »

وهو له المبرية

واستأنف المسير الى المدينة فدخلها بعد الظهر دخول الفتح الظافر واستقباه أهلها استقبالا لاعهد له بمثله فمشى رجالها بين يديه وقد تقلدوا السيوف وهزوا الرماح وأنشدت فتياتها نشيد الاستقبال المشهور :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
 وجب الشكر علينا مادعا لله داع
 أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وواصل الموكب سيره في داخل المدينة ، وكان لا يمر بدار من دور الأئصار الا قالوا له هلم يارسول الله الى العدد والعدة والمنعة ويعترضون ناقته ، فيقول خلوا سبيلها فانها مأمورة ، حتى بلغت موضع مسجده الحالى ، فبركت فنزل عنها واشترى المكان وبنى مسجده واستقر فيه

بيان المروة الجديدة

تبدل موقف النبي ﷺ بعد وصوله الى المدينة تبديلاً ظاهراً وتغيرت حالته تغيراً مشهوداً ، فبعد أن كان في مكة خائفاً مضطهداً لا يجسر على الظهور في المجتمعات العامة ولا يستطيع التجول في الأسواق ، به الصلاة في الكعبة من دون أن يستهدف لاعتداء ، أصبح هنا مطاع الكلمة ، مهاب الجانب ، كما أصبح الرئيس والزعيم الطبيعي لاصحابه وأنصاره سواء منهم الذين جاءوه من مكة وقد ضحوا كل شيء في سبيله ، وسواء منهم أبناء المدينة وقد اعتزوا بنزوله بينهم ، وبايعوه على السمع والطاعة واسلسوا له القياد والغنان

وعكف في خلال الأسابيع الأولى على درس الحالة العامة وعلى التعرف الى الأشخاص والجماعات توطئة للعمل الذي لابد من عمله في المرحلة الجديدة ، فحال المسلمين هنا غير حالهم هناك ، وموقفهم في المدينة غير موقفهم في مكة وأول ما شرع فيه بعد نزوله المدينة انشاؤه مسجده ، فقد ابتاع أرضاً سهلاً وسهلاً وهما غلامان من بني النجار ثم باشر البناء

وكان ينقل الطوب (اللبن) على عاتقه . وكان طول المسجد مئة ذراع وجعل قبلته الى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب : باب في مؤخرته وهو في جهة القبلة الى اليوم ، وباب عاتكة و يسمى اليوم باب الرحمة ، والباب الذي كان يدخل منه وهو باب آل عثمان اليوم

وكان سقف المسجد جريدا وعمده من خشب النخل ، وكانوا يوقدون القش عند صلاة الصبح والعشاء والمغرب في أول الأمر ثم أسرجوا المصابيح وأنشأ الى جانب المسجد غرفاً خاصة لسكناه وسكنى أهل بيته ، وجعل بينه

و بين المسجد بابا (باب آل عثمان اليوم) وكان يدخل ويخرج منه
 واتخذ المسجد مقراله ، ومركزا لأعماله فكان يصل فيه ويستقبل الزوار ،
 ويفصل في الشؤون ، كما كان المسجد ناديا عاما للمسلمين يجتمعون فيه ، ويقضون فيه
 معظم أوقاتهم ، ويؤدون صلواتهم ، ولا يفارقونه إلا لضرورة ، وبالأجمال فقد كان
 مؤنثا لهم ومثابة

وبعد ماتم ببناء المسجد واستقر فيه ، وارتاح باله من جهة السكن ومن جهة
 قريش ، بدأ عمله السياسي في المدينة بكتابة الصحيفة الآتية فكانت في نظرنا أول
 عمل سياسي للدولة الجديدة ، وقد انشئت يوم نزوله المدينة ، وتوليه قيادة أصحابه
 وزعامتهم من الوجهة العملية ، وان لم تنشأ من الوجهة النظرية
 وهذا نص الصحيفة او البيان :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن
 تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس
 المهاجرون من قريش على ربعتهم (١) يتعاقلون بينهم وهم يفتدون عانيهم
 بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنوعوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفتدي عانيها
 بالمعروف والقسط بين المؤمنين
 و بنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفتدي
 عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفتدي عانيها
 بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفتدي عانيها
 بالمعروف والقسط بين المؤمنين

(١) الربعة والرابعة الحالة التي جاء الاسلام وهم عليها

و بنو النجار على ر بعثهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها
بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو عمرو بن عوف على ر بعثهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها
بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو النبيت على ر بعثهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها
بالمعروف والقسط بين المؤمنين

و بنو الاوس على ر بعثهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها
بالمعروف والقسط بين المؤمنين

وان المؤمنين لا يتركون مفرجا بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ولا
يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة
ظلم أو أثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وان أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد
أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ، ولا ينصر كافر على مؤمن ، وان ذمة الله
واحدة يجبر عليهم أدناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وانه من
تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وان سلم
المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله الا على سواء وعدل
بينهم ، وان كل غازية غزت معنا تعقب بعضها بعضا وان المؤمنين بيء (يمنع ويكف)
بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وان المؤمنين المتقين على أحسن
هدى وأقومه وانه لا يجبر مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على
مؤمن وانه من اغتبط مؤمنا (١) قتلا عن بينة فانه قود به الى أن يرضى ولى المقتول
وان المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الا قيام عليه . وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه
الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا ولا يؤويه وانه من نصره أو آواه
فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وانكم مهما اختلفتم
فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد

(١) قتله من غير شيء يوجب قتله

وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وان يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ (١) الا نفسه وأهل بيته، وان ليهود بنى النجار مثل ماليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الحرث مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ساعدة ، مثل ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى جشم مثل ما ليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى الاوس مثل ماليهود بنى عوف ، وان ليهود بنى ثعلبة مثل ماليهود بنى عوف الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ الا نفسه وأهل بيته

وان جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم ، وان لبني الشطننة مثل ما ليهود بنى عوف. وان البردون الاثم ، وان موالى ثعلبة كأنفسهم وان بطانة يهود كأنفسهم وانه لا يخرج منهم أحد الا باذن محمد وانه لا ينحجز على ثار جرح وانه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته الا من ظلم وان الله على أبر هذا

وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم وانه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للظالم ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وان يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة

وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة الا باذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله

وان الله على أتقى مافى هذه الصحيفة وأبره وانه لا تجار قريش ولا من تضرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب واذا دعوا الى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فانهم يصلحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين الا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم

وان ليهود الاوس مواليهم وانفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من اهل هذه الصحيفة وان البر دون الاثم لا يكسب كاسب الا على نفسه وان الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وانه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم وآثم وان من خرج آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة الا من ظلم وآثم وان الله جار لمن بر واتقى ومحمد رسول الله «

هذا هو نص الصحيفة كما نقلها الينا المؤرخون وهي تنطوي على كثير من المبادئ والقواعد الجديدة والتعايير والاصطلاحات التي لم تكن معروفة بين المسلمين من قبل فقد وصفت المسلمين بأنهم :

١ - أمة واحدة من دون الناس

٢ - اقرت المهاجرين على حالهم كما اقرت الانصار على حالهم وأراضيهم فلا تبديل ولا تغيير

٣ - نظمت العلاقات بين المسلمين أنفسهم وحددتها وقالت انهم متضامنون متكافلون « لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله »

٤ - قررت أن يكون مرد كل أمر يختلف فيه الى الرسول ليفصل فيه باعتباره صاحب السلطة العليا

٥ - حددت العلاقات بين البطون اليهودية و بطون العرب النازلة بينهم وقالت ان اليهود ينفقون مع المؤمنين واعترفت بأنهم أمة لهم دينهم وللمسلمين دينهم ، كما أنشأت بينهم مودة وتحالفا

٦ - نصت على اشتراك المسلمين واليهود في الدفاع عن يثرب اذا هاجمها مهاجم ، وعلى أن لا ينفرد فريق من الفريقين بعقد صلح اذا دعى اليه

٧ - جعلت المدينة دار أمان للفريقين فمن خرج منها فهو آمن ومن قعد فيها فهو آمن الا من ظلم وآثم

تلك هي بعض المبادئ التي انطوت عليها « الصحيفة » وهي تشبه من وجوه كثيرة البيانات Proclamations التي يصدرها القواد العسكريون بعد الفتح ، أو

برامج الحكومات Déclaration حين تأليفها فهو يحتفظ بـ « الستاتوكو » أى الحالة التى كانت قائمة فى المدينة من دون أن يدخل عليها أى تغيير أو تعديل وينظم العلاقات بين المسلمين أنفسهم فينشئ بينهم تعاوناً وثيقاً وإخاءً وطيداً كما ينظم العلاقات بينهم وبين جيرانهم اليهود وينشئ بينهم حلفاً ويقضى باشتراكهم فى الدفاع عن المدينة إذا هاجمها مهاجم وبأن تكون دار أمن لهما ويضع أحكاماً تشريعية أخرى تتعلق بالنظام الاجتماعى الجديد وهو من مميزات الاسلام

اتحاد الاوس والخزرج

وقد كان من النتائج العاجلة لنزوله المدينة تأخى الاوس والخزرج من أبنائها وتناسيهم ما كان بينهم من عداوة وأحقاد فأصبحوا اخواناً على سرر متقابلين ، يتنافسون فى اكتساب مرضاة سيد المرسلين، ويعملون باخلاص مع اخوانهم المهاجرين من قريش على رفعة شأن الدين. ولا يخفى أن العداوة اشتدت قبل الهجرة بين هاتين القبيلتين حتى كادا يفنيان فأزال الاسلام ذلك كله وقضى عليه

الإخاء بين المهاجرين والأنصار

وكذلك آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار ، وكان ذلك بعد وصوله الى المدينة بخمسة أشهر لتذهب عنهم وحشة الغربة ، وليؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ويشد بعضهم أزر بعض ، وكانوا يتوارثون بعد المات دون ذوى الأرحام (وقد بطل ذلك بعد معركة بدر) ، وكانت المؤاخاة على الحق والمؤاساة فزادت علاقاتهما قوة واحكاماً من جهة كما وطدت صلات الاخوة والمودة بين الاوس والخزرج من جهة أخرى ، وهكذا توحدت القوى الثلاث واندمج بعضها فى بعض وانصهرت فى بوتقة الاسلام فصارت كتلة قوية متماسكة تشعر بشعور واحد ، وتعمل لغاية واحدة ، وترعى الى مقصد واحد وهو نشر كلمة التوحيد واعلاء شأن الدين

اليهود في شمالي الحجاز

ما كاد النبي ﷺ يستقر في المدينة ، ويدرس حالتها عن كذب حتى أدرك أنه أمام قوة يهودية كبيرة ، لاتقل عن قوة قريش عدوته في مكة ولا يخفى ان اليهود كانوا إبان البعثة النبوية قوة كبيرة في شمالي الحجاز تعادل قوة قريش في جنوبيه ومعنى ذلك أن الحجاز كان مقسوما بينهما قسمة طبيعية ، فنفوذ قريش يشمل جنوبي الحجاز من المدينة حتى الطائف ، ونفوذ اليهود يشمل شماليه ، وكان يمتد من المدينة حتى تباء وهي واقعة في أقصى حدود الحجاز الشمالية أى حتى حدود سورية في مسافة لاتقل عن ٤٥٠ كيلومترا تقريبا ، ولولا الزعامة الدينية التي كانت تتمتع قريش بها بين العرب وما كان لها من مقام أدبي وديني في نظرهم لحراستها البيت الذي يقدسونه ويحجون اليه ، وقيامها على خدمته وسداته لقلنا ان نفوذ اليهود كان أكبر لانهم أكثر ثروة وغنى وأوفر سلاحا ولان بلدانهم كانت حصينة ، وكانوا يسيطرون سيطرة فعلية على اقتصاديات شمالي الحجاز ، وكانت زراعته أيضا في أيديهم ، وما كان الاوس والخزرج في المدينة سوى إجراء لهم . يعملون على تنمية زراعتهم ويخدمونهم بالاجرة وكان اليهود في شمالي الحجاز ينزلون المناطق الآتية :

١ - منطقة المدينة

وقد كان يهود بني قينقاع يقيمون في داخلها ، وكانت قبائل بني عوف وبني النجار وبقية البطون التي وردت اسمها في الصحيفة ، تقيم حولها بين قبائل الاوس

والخزرج وتنزل في نفس المناطق الزراعية التي كانت تعنى بها ، ولولا ذلك لما خصهم بالذكر.

بنو قريظة وكانوا ينزلون في ضاحتها من جهة الجنوب الشرقي في مهزورا
بنو النضير « « « « « الغرب في بطحان

٢ - منطقة خيبر

وكانت خيبر أعظم مراكز اليهودية في الشمال بعد المدينة وهي في مركز متوسط تقريبا بين المدينة وتيما وكان يهودها أشدهم قوة وأكثرهم ثراء ، وهي في شمالي المدينة أيضا وتبعد عنها نحو ١٥٠ كيلو مترا وفي هذه المنطقة أيضا وادي القرى ، وكان واحة كبيرة لليهود في الشمال أيضا وفيها أيضا فدك وهي منتصف الطريق بين خيبر وتيما

٣ - منطقة تيماء

وهي كما قلنا في أقصى حدود الحجاز الشمالية وعلى الحدود السورية وهي أقلها شأنا

تلك هي المناطق التي كان ينزلها اليهود في شمالي الحجاز، ومع اننا لانملك احصاء حقيقيا لعدد نفوسهم ، الا ان الذي نرجحه اعتمادا على أخبارهم المنشورة في بطون التواريخ العربية انهم كانوا يبلغون نحو عشرة آلاف نسمة هذا بيانهم

٦٠٠	البطون النازلة بين الأوس والخزرج حول المدينة
١٤٠٠	بنو قينقاع
١٥٠٠	بنو النضير
١٥٠٠	بنو قريظة
٣٠٠٠	خسر

مراكز اليهود في بلاد الحجاز

حدود الشام

تيماء

فدك

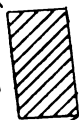
وادي القرى

خيبر

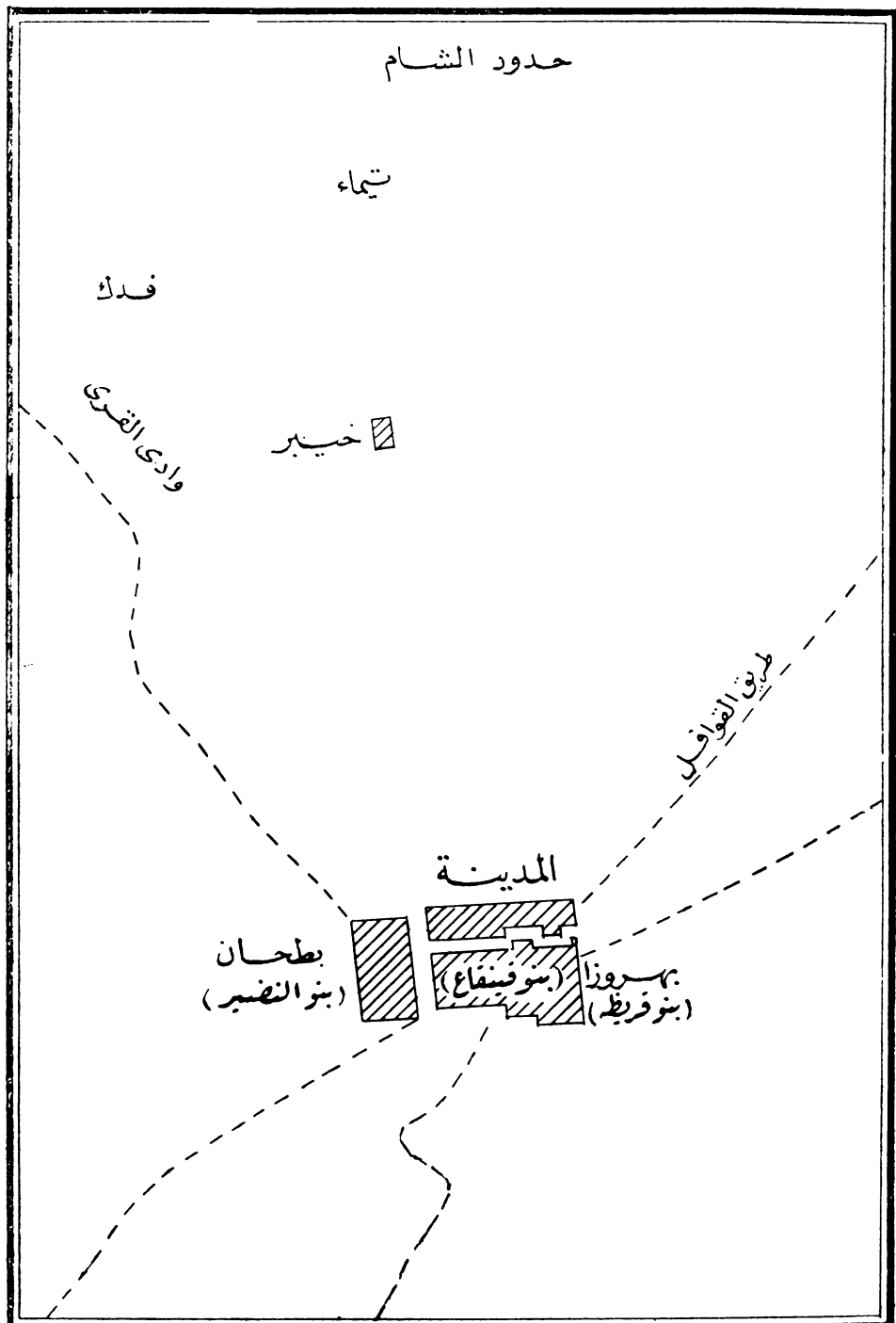
طريق القوافل

المدينة

بطحان
(بنو النضير)



يهود
(بنو قريظة)



٥٠٠

وادی القرى

٥٠٠

فدك

٥٠٠

تيماء

ولقد اعتمدنا فى وضع هذا الرقم التقديرى على ما استنتجناه من معلومات
مبشرة جمعناها من بطون الكتب العربية

قدرنا البطون النازلة بين الاوس والحزرج بـ ٦٠٠ شخص باعتبار أن عدد كل
بطن من بطون اليهود التسع وهى بنو عوف وبنو النجار وبنو الحرث وبنو ساعدة
وجشم والأوس وثلعة وجفنة والشطننة وقد ورد اسمها فى الصحيفة (انظر ص ٢٨)
سبعين شخصا بين ذكور واناث وأطفال وشيوخ وهو أقل رقم يوضع

وقدرنا عدد بنى قينقاع بألف وأربعمائة اعتمادا على رواية المؤرخين الاسلاميين
فقد ذكروا أن عدد الذين أطلق سراحهم من رجالهم بتوسط عبد الله بن أبى ٤٠٠
حاسر و ٣٠٠ دراع أى ٧٠٠ محارب فاذا أضفنا اليهم مثل هذا العدد من النساء والاطفال
ولا يقبلون عن ٧٠٠ بلغ المجموع ١٤٠٠ وهو الرقم الذى وضعناه

واستندنا فى تقدير بنى النضير على مارواه المؤرخون الاسلاميون وهو انهم حملوا
أمتعتهم على ٦٠٠ حمل . فلو فرضنا أن كل عائلة منهم حملت أمتعتها على جملين لكان
عدد عائلاتهم ٣٠٠ ولو فرضنا أن عدد كل عائلة خمسة أشخاص وهو تقدير متوسط لبلغ
المجموع ١٥٠٠

واستندنا فى تقدير بنى قريظة على ما ذكره المؤرخون من عدد الذين قتلوا منهم
فى المدينة بعد استسلامهم وحكم سعد عليهم فقد قدرهم بعضهم بستائة ورفعهم آخرون
الى ٧٠٠ وزادهم غيرهم الى تسعمائة فأخذنا العدد الوسط وهو ٧٥٠ وأضفنا اليه مثله
وهو عدد النساء والأطفال فبلغ المجموع ١٥٠٠ وهو الرقم الذى وضعناه
واستندنا فى تقدير خيبر على الاعتبارات الآتية :

١ - ما كان معروفا عن كثرة عدد أهلها ووفرة ثروتهم واتساع نطاق نفوذهم

ولا يتسع لضعيف نفوذ

٢ - تعدد حصونهم وكثرتها فقد كان لهم سبعة حصون هي : ناعم والقموص والشق والنظاة والسلام والوطيح والكتيبة . ولم يكن لبنى قينقاع سوى حصن واحد ومثلهم قريظة والنضير

٣ - كثرة عدد الجيش الاسلامى الذى زحف لقتالهم فقد أجمع الرواة على أنه بلغ ١٨٠٠ مقاتل مع أن القوى التى زحفت على حصون اليهود الأخرى ما كانت تبلغ ربع هذا العدد

٤ - تجمع ٥٠٠ مقاتل منهم فى حصن واحد هو حصن القموص دع القوى التى كانت فى الحصون الأخرى

٥ - ثباتهم فى قتال المسامين الذين امتازوا بالشجاعة والبطولة وامتداد القتال مدة ٢٠ يوما

وي لوح لنا أن تقدير سكان خيبر بثلاثة آلاف هو أقل ما يمكن بعد البيانات التى أوردناها باعتبار أن عدد رجالهم الذين نازلوا المسامين ١٥٠٠ وهو أقل ما يخطر بالبال ولا يدخل فى ذلك النساء والذرارى

وقدرنا عدد سكان وادى القرى بخمسمائة وهو فى نظرنا أقل من الواقع لأنه كان يتألف من قرى عامرة . ولا نظن أن عدد سكان القرية الواحدة يقل عن المائة .

وتقدينا بمثل هذا الاعتبار فى وضع رقم سكان فدك وتبءاء . وبالاجمال فقد وضعنا الحد الأدنى وان كنا نرجح بعد الذى أوردناه ان عددهم كان بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفا

كَيْفَ وَصَلَ الْيَهُودُ إِلَى الْحِجَازِ

و بين الباحثين خلاف فى كيفية وصول اليهود الى شمال الحجاز والمرجح انهم قدموا من فلسطين ، بطريق البلقاء ومعان أو وادى موسى هربا من ظلم الروم و بطشهم فقد مزقوهم شرمزق سنة ٦٤ ميلادية . واجلوهم عن فلسطين فقصد هذه الديار بعض قبائلهم وعكفت على الزراعة والتجارة فأثرت ونمت واكتسبت نفوذا عظيما ، لم يلبث أن اصطلم به الاسلام ووقف ازاءه وجها لوجه

بين المسلمين واليهود

حرص النبي في الأشهر الأولى لوصوله الى المدينة ، على التقرب من اليهود ، وسعى لانشاء علاقات ود معهم ، ووصل حبله بحبلهم ، لأنه لم يكن من مصلحته بوجه من الوجوه أن يخوض في نزاع معهم ، وهم على ماوصفناه من القوة والمنعة ، وقريش لاتزال وراء المسامين تطاردهم ، وتعمل للقضاء عليهم ، ومعنى ذلك انهم كانوا في ابتداء نزولهم المدينة ، بين قوتين قويتين :

- ١ - قوة الجنوب وقد آذنتهم بعداء شديد واضطرتهم لمغادرة أوطانهم ، والجلاء عن ديارهم ، ولا تزال تتربق الفرص للفتك بهم ومحو أثرهم
- ٢ - قوة الشمال ، ولا يزال موقفها منهم مبهما ، ولا يزال ما يضره رجالها لهم

في عالم الغيب

وكان أول مافعله النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة كتابته الصحيفة التي كتب ، وقد حدد فيها العلاقات بين المسلمين واليهود تحديدا صريحا فاعترف بهم «أمة مستقلة» وقال ان لهم مالمسلمين وعليهم ماعليهم ، كما نص على اشتراكهم في الدفاع عن المدينة اذا هاجمها مهاجم ، وعلى عدم عقد صلح منفرد ، واذا اضطروا الى عقده فيكون ذلك بالاتفاق ، والقصد من ذلك ايجاد صلة وشيجة بين الفريقين فيتعاونون على صيانة مدينتهم والدفاع عنها ، والحيلولة دون تسرب الشقاق اليها

ومن تحصيل الحاصل القول ان مصلحة المسامين في ذلك الدور كانت تقضى عليهم بانشاء علاقات ود وثيقة مع جيرانهم الجدد ، فلا يفتحون ميدان نضال في موطنهم الجديد ، وهم لم يلبجأوا اليه الا تخلصا من أهل مكة وأملا بأن يجدوا في دار هجرتهم أمنا وسلاما ، فيؤدوا فرائضهم الدينية بحرية وأمان ويعيشوا مع جيرانهم في صفو وسلام

ولم تحقق الحوادث أمنيتهن ، ولم تنلهم الأيام بغيتهن ، فانهم مالبثوا ان وجدوا أنفسهم أمام حملة شديدة يحملها عليهم اليهود سداها الطعن في دينهم ، ولحمتهما تسفيه عقائدهم

ولم يقف اليهود عند هذا الحد بل كان بعض رجالهم يأتي الى النبي ﷺ ويسأله أسئلة يبغي منها اظهاره بمظهر العاجز الضعيف كما كانوا يحاولون القاء الشقاق بين المهاجرين والأنصار من جهة وبين الاوس والخزرج من جهة أخرى ، وقد كادوا يصيبون نجاحا من هذه الناحية لولا توسط النبي ﷺ بالذات ، فقد خرج يوما الى الفريقين وكانوا على وشك الاقتتال - فيمن كان معه من الصحابة - وقال لهم :

« يا معشر المسامين الله . الله . اتقوا الله . أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله الى الاسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم » فكف الفريقان على الفور ، وعرفوا انها من كيد اليهود فبكوا وعانق الرجال الرجال ثم انصرفوا معه . وقد نزلت في هذه الحادثة آية ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ^(١) لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾

وهناك آيات كثيرة في القرآن نزلت في اليهود خلال هذا الدور : دور المناقشات والمجادلات اللفظية ، وقد انتهى بالحرب وطردهم اليهود من منطقة المدينة أولا ثم من منطقة خيبر وتغلب المسامين عليهم وانتزاع أراضيهم وديارهم مما سنفضله تفصيلا في موضعه

تأثير العوامل الاقتصادية في هذا النزاع

ومع كل ما كتبه المؤرخون الاسلاميون في صدد هذا النزاع ومع كل ما أوردوه من الأسباب والعلل فاننا لا نشك في أن للعوامل الاقتصادية المقام الأول في مناوأة اليهود للاسلام وسعيهم للقضاء عليه ، فقد زاحم المهاجرون المكيون - وبينهم عدد غير قليل من التجار الأذكياء الشيطيين كمبدرالرحمن بن عوف وأبي بكر الصديق -

اليهود في سوق المدينة ، ونافسوهم فيه ، وكادوا ينتزعون منهم السيادة الاقتصادية ، فلم يطق هؤلاء صبرا فعكفوا على الكيد للاسلام ومقاومته سرا ، أملا في التخلص من المنافسة التجارية ، فيخلو لهم الجو ويعودون الى بسط سلطانهم الاقتصادى على البلاد كما كان أولا .

لقد كان الميدان التجارى والاقتصادى في المدينة خاليا من منافس قبل أن يفد اليها المهاجرون من قريش ، ولا يقل القرشيون خبرة في الشؤون الاقتصادية والتجارية والاحاطة بأسرارها عن اليهود، فقد توارثوها عن اباؤهم الأولين وتعمل قريش في كسب قوتها على التجارة، يعرف ذلك الذين درسوا تاريخها ، بعكس الاوس والخزرج وعربان شمالي الحجاز فقد كانوا أجراء لليهود يعملون لهم وبيعونهم حاصلاتهم ويشترون منهم حاجاتهم ولوازمهم ، مما أدى الى غنى هؤلاء وفقيرهم وتحكمهم فيهم ولم تقف همة بعض المهاجرين المكيين عند حد تعاطى التجارة بل انشأوا لهم سوقا تجارية خاصة بهم الى جانب سوق بنى قينقاع (سوق المدينة الأكبر) فأقلق ذلك اليهود وأزعجهم ، وبلغ من شدة اعتماد التجار القرشيين على أنفسهم قول عبد الرحمن بن عوف لاختيه سعد بن الربيع الأنصارى حينما سألته عن المساعدة التي يقترح عليه أن يسديها اليه « دلتى على السوق » وقد جنى عبد الرحمن أرباحا كثيرة من اشتغاله بالتجارة

منافسة المهاجرين المكيين التجارية ليهود المدينة - وقد كان النضال في المرحلة الأولى ، بين المسلمين واليهود قاصرا على يهود المدينة وحدهم أى بنى قينقاع - وارتفاع رأس العرب من سكان يثرب بعد وفود النبي ﷺ والمهاجرة من قريش اليهم ، ومحاولتهم انتزاع السيادة المحلية منهم ، وكانوا أصحاب الشأن وذوى الكلمة النافذة في تصريف شؤون البلد ، كل ذلك ولد سوء تفاهم مالمبث أن تحول الى نزاع خصام فحرب بجلاء

١٠

قريش

لم ينس المهاجرون مكة ، ولم ينسوا عهدا وأيامها ، ولم ينسوا منازلهم وديار
عزهم ، ولم ينسوا المعاملة السيئة التي عاملتهم بها قريش ، وكيف ينسونها ووجودهم
بديار العربية يذكركم بقريش على الدوام، فيتحدثون بها ويكثرون من الكلام عنها
ويؤخذ مما لدينا من أقوال المؤرخين الاسلاميين أن قريشا كتفت في هذه
المرحلة ، بمصادرة ممتلكات المهاجرين وأموالهم مكتفية بالعقاب المالى وحده ، وقاعة
بخر وجههم من بلادها ومغادرتهم أراضيها ، ولعل هذا كان في نظرها كافيا لان يكفل
لها الاستقرار ، ويحول دون اتساع نطاق الانقسامات المحلية ، والتحزبات الداخلية ،
فقد زلزل ظهور الاسلام وحدثها الاجتماعية ، وانشأ حزازات بين أسرها ولاسيما بين
الهاشميين والأمويين ، وقد كان هؤلاء ينظرون الى الدعوة الاسلامية من الوجهة
العائلية المحلية فقط ، ولئن استأنوا في مقاومتها وبذلوا أقصى الجهد للتغلب عليها، فما ذلك
الما تبادر الى ذهنهم وهو أن في فوزها فوزا للهاشميين وقضاء على سلطتهم ونفوذهم
ولن يرضوا بالتنازل عنهما

واقترح بعض أقطاب الصحابة على النبي ﷺ بعد ما استقروا في المدينة ، كما
اقترح عليه بعضهم حينما كانوا في مكة ، أن يأذنوا قريشا بالحرب، ويقاتلواها ويجزوها
شرا بشر ، فرد عليهم هنا كما رد عليهم هنالك ، داعيا الى التريث والانتظار وقال لهم انه
لم يؤذن له بالقتال وانه يجب عليهم أن يتدبروا بالصبر ويعالجوا الامور بالحكمة ريثما
يأتى الوقت

وتجددت الدعوة الى قتال قريش في صفوف المكين المهاجرين بعد

ما ارتاحوا واطمأنوا ، وكانوا يتمنون أن لو أبيع لهم قتلها فيشفون صدورهم مما تجد عليها ، وصبرهم النبي ﷺ أيضا ودعاهم الى السكينة والانتظار

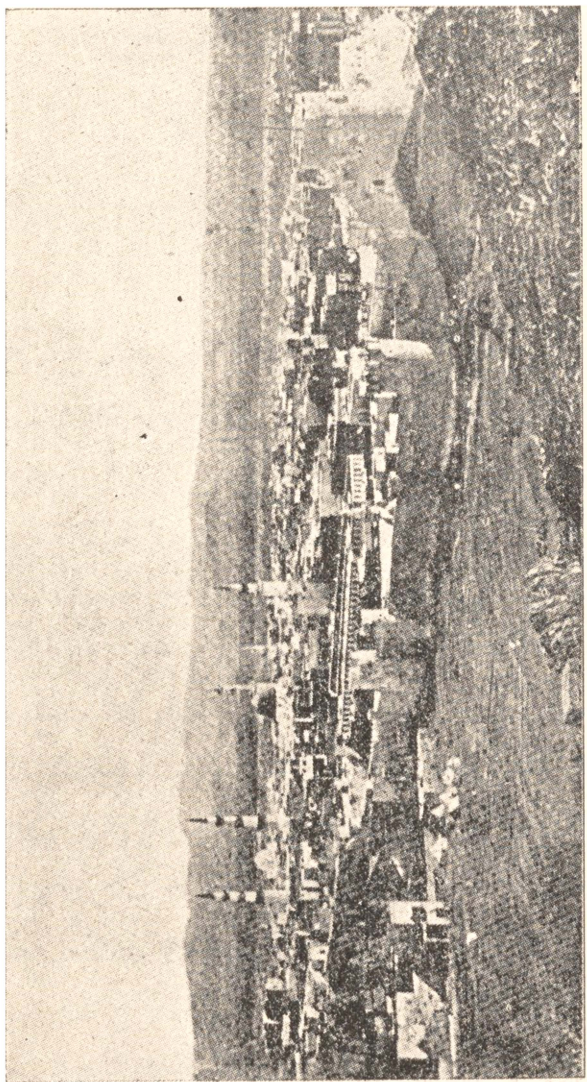
والواقع أن النسبة بين قوى المسلمين المادية و بين قوى قريش في تلك المرحلة كانت مفقودة ، فما كان عدد المهاجرين والانصار من سكان المدينة يزيد على الثلاثة آلاف يخرجون ألف مقاتل على أكبر تقدير ، أما قوة قريش فما كانت تقل عن خمسة آلاف مقاتل باعتبار أن سكان مكة يومئذ عشرة آلاف نفس ، ولئن خرجت قريش يوم بدر بألف لملاقاة المسلمين فمأذلك الا لانها كانت تستغفر شأنهم ، أما يوم أحد أى بعد ذلك بسنة فقد جاءتهم حتى المدينة بثلاثة آلاف مقاتل من رجالها ، وليس هذا كل ما كانت تستطيع اخراجه ، والعشرة آلاف الذين جاءت بهم يوم الخندق ليسوا كلهم من رجالها فقد انضم اليهم عدد من الاحلاف لا يزيد في تقديرنا على ثلاثة آلاف ، ويجب أن لانسى أن هنالك قبائل كانت مرتبطة معها برابطة التحالف . وهي كنانة وقبائل تهامة ، تأمر بأمرها وتنقاد اليها

ولقد رأينا الرسول ﷺ في هذه المرحلة يحالف اليهود ويتفق معهم على الدفاع عن المدينة في حالة الاعتداء عليها . ومعنى ذلك أن أنظاره اتجهت يومئذ الى اعداد معدات الدفاع دون الهجوم ، ولعله كان يخشى هجوم قريش عليه وسيرها لقتاله ، ولولا ذلك لما كان في حاجة الى محالفة اليهود ووضع باوضعه من شروط

ولو سيرت قريش القوى في تلك الايام لمطاردة المسلمين في المدينة واخراجهم منها لأزعجتهم وحالت دون نموهم على الاقل ، ومنعت غزوهم لها في عقر دارها بعد ذلك ، بيد أن اختلاف كلمة زعمائها بشأنهم جعلها تكتفي منهم بالخروج ، بل تعد خروجهم فوزا ونجاحا لها ، وترى فيه نجاة من كارثة عظيمة كانت تهددها : كارثة الثورة الداخلية

ولاننشك في أنه كان لعودها عن مطاردة المسلمين واغفالها أمرهم وتركهم

وشأنهم يحالفون ويتفنون ، ويعقدون المعاهدات مع اليهود ، ويعززون مركزهم في داخل المدينة - أثر كبير في التحول الذي طرأ على حالتهم فعكفوا - بعد ما آمنوا جانبها واطمأنوا من ناحيتها كما آمنوا جانب جيرانهم اليهود واطمأنوا من ناحيتهم أيضا - على تهيئة خطط جديدة تحقق أمانهم ، وتعلو كلمتهم ، وتضمن لهم التغلب على قريش والانتقام منها ، ولقد كان الجهاد احدي مظاهر السياسة الجديدة والركن الأساسى الذى قامت عليه ، وفازت بفضاه



المدينة النورة وفي داخلها المسجد النبوى

الانضال بين المسلمين وقريش

سرايا المسلمين وبعوهم العسكرية

١ - سرية حمزة

في الشهر السابع من وصول النبي الى المدينة، أى في شهر رمضان، غادر حمزة بن عبد المطلب (عم النبي) المدينة على رأس ٣٠ مهاجرا، للقاء عير (قافلة) لقريش، واغتنامها اذا أمكن، وذلك قبل أن يؤذن للمسلمين بالقتال

وعادة السطو على القوافل من العادات الشائعة في جزيرة العرب قبل الاسلام وبعده، ويعدّها البداية من الرزق الحلال السائع، وقد كان القريشيون يعتمدون في الدفاع عن قوافلهم في غدوها الى الشام ورواحها، على حرس خاص يعدونه لها يرحل معها وينزل معها ويتولى رجاله حراستها بالمناوبة الليل بطوله فاذا أصبح الصباح وأزمت الرحيل تقدمها بعض رجاله وقد تقلدوا السلاح ليكونوا بمثابة طليعة لها أو حرس أمامي، وتأخر فريق آخر منه ورائها فلا تهاجم من الورا. وكانت قوة الحرس خاضعة لرئيس القافلة وقائدها العام ومن عادتهم أن يجعلوا لكل قافلة رئيسا، صونا للوحدة. وكان عدد الحرس المسلح يكثر ويقل في القافلة تبعا لعدد جمالها وما تحمله من بضائع

وبديهى أن المسلمين كانوا يبغون من تسيير سريتهم تلك التحرش بقريش والانتقام منها وسلبها مالها، فيستعينون به في ديار غربتهم وقد لقوا الأمرين في أول عهدهم

وكان رجال القافلة القريشيون محتاطين على عاداتهم كل الاحتياط، والمفهوم من كثرة عدد رجال القافلة ، انها كانت كبيرة جدا ، و ربما كانت القافلة السنوية الكبرى فقد رووا ان عدد رجالها كان ٣٠٠ وانها كانت بقيادة أبي جهل (عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي وكنيته أبو الحكم وهو زعيم بني مخزوم) أحد زعماء قريش وأعدى أعداء المسلمين

ولا بد لنا من القول ان المسلمين لم يخرجوا من المدينة الا بعدما جاءتهم الأخبار المفصلة عن القافلة وعن عدد رجالها وعمما تحمله ، وقد كان بينهم عدد غير قليل اشتغل بالقوافل وشرق وغرب وأنجد واتهم، أى انهم كانوا مستعدين للكفاح والنضال استعداد المكيين له

والتقى الجمعان على ساحل البحر الأحمر قرب العيص في ديار جهينة وهي في منطقة المدينة من ناحية ينبع ، واصطفا وكاد القتال ينشب بينهما لولا توسط مجدى بن عمرو والجهني من شيوخ جهينة ففدحال دون اشتباك الفريقين فعاد كل منهما الى بلده ولم يجرد حسام ولا ريب أن ماجرى في العيص (مكان معروف مشهور يبعد عن المدينة نحو ٤٠ كيلومترا) كان انذارا لقريش بظهور المسلمين في الميدان وكونهم ينوون منازلها وقتالها

٢ - سرية عبدة بن الحارث

وما كادت سرية حمزة تعود حتى أصدر النبي ﷺ أمرا باعداد سرية أخرى تبادرت المدينة في شهر شوال أى بعد شهر من خروج السرية الأولى ، وقادها عبدة ابن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، فسلكت الطريق الذى سلكته الأولى أى انها سارت الى الغرب فوصلت رابع (ميناء معروف مشهور بين جدة وينبع ويقع على طريق القوافل بين مكة والمدينة و يبعد عن الاولى نحو ٢٠٠ كيلومترا) وكانت مهمتها شبيهة بمهمة تلك أى الغارة على قافلة قريش واستيقاها اذا أمكن

وكانت القافلة المكية في هذه المرة بقيادة ابى سفيان بن حرب الأموي، وكان عدد

رجالها مائتين فالتقى الفريقان على ماء يقال له احياء في بطن رايغ . وأكتفيا بالتراشق بالنبال عن بعد وكان سعد بن أبي وقاص بين رجال هذه الحملة وكان سهمه أول سهم رمى في الاسلام

٣ - سرية سعد بن أبي وقاص

وفي شهر ذى القعدة أى في الشهر التالى لعودة السرية الثانية ، جهز سرية ثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص . وكان عدد رجالها عشرين فقط وأمرهم بأن يقصدوا الحرار (واد يصب في الجحفة) فيعترضوا قافلة لقريش ينتظر أن تمر من هنالك ، وأمرهم بالايجاوزوا الحرار فساروا اليها ووصلوا بعد مرور القافلة بيوم فعادوا الى المدينة سالمين

فهذه السرايا الثلاث وقد وجهها في ثلاثة أشهر ولما يمض على اقامته في المدينة سوى بضعة اشهر ، لمضايقة قريش في متاجرها ، وازعاجها في تنقلاتها ، تركت أثرا في نفوس المكيين الذين بدأوا يهتمون بأمر « الجماعة » الجديدة التي ظهرت في الشمال على طريق الشام ، حيث يتاجرون ويربحون ، ولئن لم يقع بينهم وبينها قتال الا أن ماجرى كان من قبيل المقدمات او المظاهرات « العسكرية » وتتقدم عادة اعلان الحرب بين الدول في هذه الأيام

٤ - غزوة الابدواء (١)

وفي شهر صفر أى بعد عودة السرية الثالثة بشهرين خرج النبي نفسه على رأس ستين مهاجرا قاصدا « ودان » وهى قرية في شمالى المدينة ، تقع قرب الابدواء ، والابدواء احدى محطات سكة حديد الحجاز وبينها وبين المدينة ٢٨ كيلو مترا ويسمون هذه

(١) اصطلاح المؤرخون الاسلاميون على اطلاق لقب سرية على كل قوة عسكرية يسيرها النبي ﷺ بقيادة أحد رجاله أما القوة التي يقودها بنفسه فهى « غزوة »

الغزوة غزوة الابداء وهي أول مرة يقود النبي فيها جيشا كما هي أول مرة يغادر فيها المدينة لغرض عسكري

والغاية من هذه الغزوة هي نفس الغاية من ارسال السرايا الثلاث ، أى ازعاج قريش في طريقها من الشام الى مكة . و اذا كان هناك فرق فهو في اختيار المكان للقاء القافلة فقد كانوا في المرات الثلاث يقصدون منطقة الساحل أما الآن فيخرجون باتجاه الشمال لابتجاه الغرب

ولئن فاتت القافلة الحملة و اخفقت في ادراكها والحصول عليها فقد أصابت فوزا سياسيا وعسكريا لا يستهان به ، يدل على شدة يقظة الرسول ﷺ و بعد نظره وعلى انه كان يتبع قاعدة التدرج الطبيعي في اعماله

أول محالفة مع قبيلة في الشمال

أثبت المؤرخون ان النبي ﷺ اتصل وهو في ودان بمخشي ابن عمرو الضمري ، سيد بني ضمرة ، وهي قبيلة كانت تنزل هناك ولم يبق لها أثر في الوقت الحاضر ، وعقد معه عقدا تعهد فيه المسلمون بالدفاع عن بني ضمرة اذا هوجوا و بالا يقاتلوهم وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب محمد رسول الله لى بني ضمرة بانهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء ، بشرط أن لا يحاربوا في دين الله ، ما بل بحر صوفة وان النبي اذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك ذمة الله ورسوله »

المحالفة الثالثة

ومعاهدة الابداء او ودان هي ثالث محالفة عسكرية يعقدها النبي ﷺ في خلال ١٤ شهرا وقد تدرج فيها تدرجا يستوقف النظر

ففي المعاهدة الاولى وقد عقدها مع الاوس والخزرج في منى (العقبة الثانية) اشترط عليهم الدفاع عنه وحمائته (كما يحمون نساءهم وابناءهم) وكان المفهوم تلويحا أن هذه الحماية تشمل اصحابه من المهاجرين بالاضافة اليه يؤيد ذلك انه لم يكذب عقدها حتى أوعز اليهم بالسفر الى المدينة فقصدها ارسالا ثم لحق بهم ونزل بينهم والمعاهدة الثانية - معاهدة المدينة أو الصحيفة وقد عقدها مع يهودها النازلين هنالك وقامت على مبدأ التعاون في الدفاع عن المدينة نفسها اذا هاجمها مهاجم وعدم عقد صلح منفرد

أما معاهدة ودان فهي مخالفة عسكرية بالمعنى المفهوم من التحالف العسكرى في اصطلاح عصرنا وقد نصت على تعهد كل فريق بالدفاع عن الفريق الآخر في حالة الدفاع والهجوم فقالت ان على بنى ضمرة أن يجيبوا النبي اذا دعاهم لنصر وان لهم النصر من المسلمين على من رامهم بسوء ، ولم ينص على هذا المبدأ في المعاهدتين السالفتين . وبذلك يكون بنو ضمرة أول قبيلة حجازية مالت الى المسلمين وحالفتهم من دون أن تدخل في الدين الجديد ، وعلى كل فانها فوز سياسى وعسكرى للمسلمين لا يستهان به بالنسبة لحالتهم في تلك الايام

٥ - غزوة بواط

وتجهز في شهر ربيع الاول (أول شهر من السنة الثانية للهجرة) في مئتين من المهاجرين وخرج الى الساحل يطلب قافلة لقريش ، علم من مصادره الخاصة أنها على وشك المرور من هنالك

وواصل السير بأصحابه حتى وصل الى بواط (١)

(١) جبل الجهينة من ناحية رضوى قرب ينبع وتبعد ينبع عن المدينة ٢٣٠

كيلو مترا الى الغرب

ولا بد لنا من التنبيه الى امرين يستوقفان النظر في حركات الجيش الاسلامى

الجديد :

الاول - زيادة عدده وزيادة مستمرة فقد كان عدد السرية الاولى التى قادها حمزة ٣٠ محارباً ثم ارتفع الى الستين فى السرية الثانية ثم هبط الى العشرين ثم ارتفع الى الستين فى غزوة ابواء وهاهو يرتفع الى المتين الآن وهو تقدم يدل على أن القوم كانوا يعملون بدون انقطاع على تنمية جيشهم

الثانى - هو عدم انضمام احد من الانصار الى الحملات الخمس التى جهزها المسلمون بعد اقامتهم فى المدينة واقتصارها على المهاجرين المكين، ويقول المؤرخون الاسلاميون فى تعليق ذلك ان اتفاق منى (العقبة الثانية) لم ينص على اشتراك الانصار فى كل عمل عسكري يعمل وانما هو عهد قطعه على انفسهم بالدفاع عن النبى وحماته والقتال فى سبيله ولما كانت الحملات التى سارت فى تلك الايام لا يقصد منها الدفاع عن النفس لم ير الانصار ما يحملهم على الاشتراك فيها فقعدها عنها وتركوا المكين وشأنهم مع ابناء عمومتهم واخوانهم على انهم عادوا بعد صدور الاذن بالجهاد الى الاشتراك فى الاعمال العسكرية فشهدوا المشاهد كلها وابلوا احسن بلاء

وفات القافلة المسلمين وعادوا الى المدينة ولم يعملوا فى سفرهم عملاً مادياً يستحق الذكر، وان كنا نعتقد ان خروجهم سواء اصابوا فائدة مادية ام لم يصيبوا، ما كان يخلو من تأثير ادبى يؤثر فى نفوس اعدائهم وفى نفوس سكان الحجاز كلهم وقد كانوا يرقبون باهتمام عظيم نتائج هذا النضال الدائر بين فريقين من قريش

٦ - غزوة سفوانه أو بدر الاولى

وأغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة (طرش) وكان يرعى بالجماء وهو جبل بناحية العقيق الى الجرف (شمالى المدينة) وعادة الغارة على الطرش او السرح من العادات المتبعة فى جزيرة العرب وهى ضرب من ضروب الغزو المباح عندهم، وتشيع عادة اذا لم تكن بينهم حكومة قوية تضرب على ايديهم

ووصل خبر الغارة الى المدينة ففرج النبي ﷺ على الفور في طلب المغيرين على رأس قوة من المهاجرين وواصل السير حتى بلغ وادي سفوان من ناحية بدر ، ولما لم يجدهم عاد الى المدينة من دون أن يحدث له حادث وكان ذلك في شهر ربيع الاول ايضا أى بعد رجوعه من بواط

٧ - غزوة العسيرة

وجاءت الأخبار الى المدينة في شهر جمادى الأولى وقيل جمادى الآخرة بأن قافلة قريش السنوية الكبرى تتأهب للمسير الى الشام قريبا ففرج النبي ﷺ على رأس ١٥٠ وقيل ٢٠٠ من المهاجرين للاقائها ومعهم ٣٠ بعيرا وواصل سيره حتى العسيرة على الطريق بين مكة والمدينة فبلغها بعد مرور القافلة
وفعل مافعله في غزوة ابواء فوادع بني مدلج من سكان تلك الناحية على ما عاهد عليه حلفاءهم من بني ضمرة في الغزوة السابقة ثم عاد الى المدينة بعد ما أقام شهرا كاملا هنا يدرس حالة قريش ويستقصى أخبارها . ولا يخفى أن العسيرة أقرب مكان الى مكة بلغته سرايا المسلمين العسكرية منذ بدأوا بتسييرها

٨ - سرية عبد الله بن محسب الاسدي

وفي شهر رجب جهز قوة من ١٢ مهاجرا وسيرها بقيادة عبد الله بن جحش الاسدي وسلم قائدها كتابا محتوما وأوصاه بأن لا يفرضه الا بعد انقضاء يومين على مغادرته المدينة على أن يكون للذين معه حق الخيار فاذا شاءوا مضوا معه لتنفيذه . واذا شاءوا عادوا الى المدينة مما يدل على أن المهمة التي اتدبوا لها كانت شاقة وصعبة وخطيرة الشأن ولولا ذلك لما كانوا في حاجة الى « كتاب محتوم » ولما منح رجلها حق الرجوع اذا شاءوا

وفض عبد الله الكتاب فألفاه يتضمن أمراه ولأصحابه بأن يمضوا حتى ينزلوا نخلة فيرصدوا قريشا ويعرفوا اخبارها . ونخلة هذه على الطريق بين مكة والطائف . وقد تقدم وصف مكانها . فلم يترددوا في الذهاب رغم صعوبة العمل ورغم اضطرابهم لأن يتركوا ديار قريش ويمروا في ارضها ، ولا يأمنون كيدها اذا صادقتهم او وقعوا في ايديها

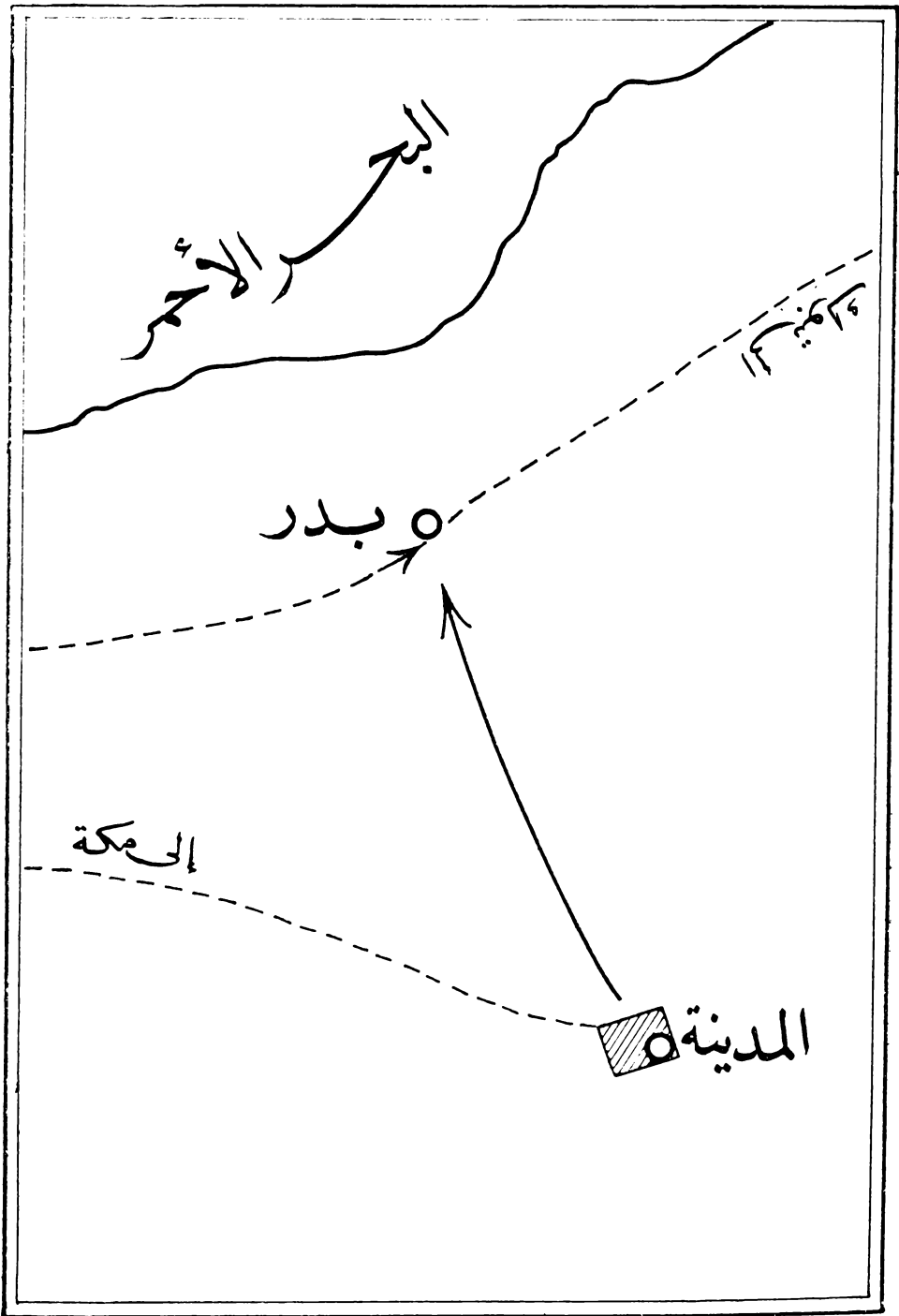
ومرت بهم بعد وصولهم الى نخلة قافلة لقريش تحمل خمرًا وادما وزيبيا ، جاءت به من الطائف وفيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة واخوه نوفل والحكم بن كيسان ، فتشاوروا فيما يفعلونه وهل يدعونها تمر وتفلت من ايديهم ام يهاجمونها ويغنمون ما فيها ، فاستقر رأيهم على الشق الثاني ، فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، فكان اول قتيل قتله المسامون من قريش ، وحمل المسامون على القافلة فأسروا الحكم بن كيسان وعثمان بن المغيرة وفرادى نوفل وغنموها فكان اول غنم يغنمونهم ايضا من قريش وعادوا بها وبالاسيرين الى المدينة وكانت المعركة في آخر يوم من أيام رجب اى في الشهر الذى تمنع العرب فيه القتال

وكبر الأمر على قريش واستعظمت له لأنه اول حادث من نوعه ولأنه حدث في شهر رجب اى في الوقت الذى اتفق العرب على تحريم القتال فيه ، ووجهت انتقادات شديدة الى المساميين . وكان النبي ﷺ بنفسه في مقدمة من أنكر على رجال السرية تصرفهم حينما قدموا عليه وقال لهم : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، على أن الأزيمة انفرجت بنزول قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ فآقر النبي ﷺ تصرفات عبد الله ومن معه وفدى الاسيرين وأخذ خمس الغنيمة

٩ - غزوة بدر الكبرى

كانت معركة بدر الكبرى ، خاتمة عهد ابدأ بمظاهرات أو مناوشات عسكرية

غزوة بدر



امتدت نحو سنة كاملة وفتحة عهد نضال عسكري حقيقي بين قريش والمسلمين وكان الحجاز ميداناه ، وانهى بفتح هذا القطر وخضوعه خضوعا كاملا للدولة الاسلامية الجديدة

و بيان ما وقع أن اخبارا وصلت الى المدينة ، بقرب رجوع قافلة قريش من الشام ، وهى القافلة التى خرج المسلمون للقائها فى العشيرة فوصلوا بعد سفرها ، فندب النبي ﷺ اصحابه للخروج وقال لهم « هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها » فخرجوا يوم الاثنين ٨ رمضان وعددهم ٣١٣ رجلا منهم ٧٠ مهاجرا والباقيون من الانصار ، وهى أول مرة يشترك فيها هؤلاء مع المهاجرين فى الحملات فقد وقفوا فى أول الأمر على الحياد كما تقدم

ولم يكتم النبي ارتياحه ، الى كثرة عدد جيشه حينما عرضه ، والى اشتراك الانصار فيه ، ولا يخفى أنه أول مرة يوفق المسلمون فيها الى جمع مثل هذا العدد وهو ليس بقليل بنسبة حالتهم يومئذ

وتخلف فى المدينة ثلاثة من المهاجرين فقط بأمره وهم عثمان بن عفان وقد ظل عند زوجته المريضة ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد وقد اتدبا ليتجسسا خبر القافلة ويرقبا سيرها

وكان الجيش الاسلامي يملك ٧٠ بعيرا فقط وفرسين وتولى قيادة ساقية المسلمين قيس بن أبى حفصة الانصارى . وعقد النبي ﷺ ثلاث رايات : راية للمهاجرين وكانت مع على بن ابى طالب ورايتين للانصار

وعرف أبو سفيان وكان يرأس قافلة قريش حين دنامن الحجاز - وكان يتجسس الاخبار ويسأل الركبان - بما يعده له المسلمون ، فارسل رسولا الى مكة وامره أن يأتيها ويستنفر أهلها للدفاع عن قافلتهم فلا تسقط فى أيدي المسلمين ، فادى هذا رسالته فقامت مكة وقعدت لهذا النبأ العظيم وتجهز صناديدها للحرب وخرجوا وعدتهم نحو الف مقاتل منهم ٦٠٠ دراع ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع و٧٠٠ بعير وسلكوا طريق بدر للقاء المسلمين وقد وثقوا من قوتهم واطمأنوا الى كثرتهم

وجاءت الاخبار للمسلمين بخروج اهل مكة لقتالهم فاستشار النبي أصحابه فيما يفعل وهل يصمد لقتالهم ؟ أم يرصد القافلة ؟ أم يعود الى المدينة ؟ فخطب خطباء المهاجرين في الحملة وقالوا له « انا معك . وانك لو سرت الى برك الغماد لجالدنا معك دونه حتى تبلغه » وخطب سعد بن معاذ باسم الانصار وقال له « قد آمننا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق فامض يا رسول الله لما أردت فذبحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد فسر بنا على بركة الله » فسرد ذلك منهم وارتاح اليه وقرر المضي في تنفيذ الخطة التي رسمها

وشعر أبو سفيان بالخطر حينما اقترب من بدر فغير وجهة سيره وبدلا من أن يسلك طريق القوافل المعتاد، سلك طريق البحر فبلغ مكة آمنا ولم يمسه سوء . فarsل من فوره رسولا الى قريش وكانت تنزل في ذى الجحفة قرب بدر يبلغها خبر وصوله ويقول « ارجعوا الى بلدكم فقد خرجتم لانقاذ قافلتم ومتاكم وقد نجها الله »

وأصر أبو جهل (وقد ذكر اسمه الحقيقي من قبل) على مواصلة التقدم وورود بدر والنزول فيها ماداموا قد خرجوا وخالفه الاخنس بن شريق الثقفي وكان حليفا لبني زهرة فقال لقومه انما خرجتم للدفاع عن اموالكم واحبابكم الذين في القافلة وما داموا قد نجوا فلا حاجة لكم في قتال المسلمين، فانفصلوا عن قريش وعادوا الى مكة وواصل الباقون تقدمهم حتى نزلوا بالعدوة القصوى من وادي بدر خلف العقنقل . وسبقهم المسلمون فنزلوا في مراكز منيعة واستولوا على آبار الماء وأحسنوا تعبئة قواهم وتنظيمها . ومما يستحق الذكر في هذا المقام ما رواه ابن هشام وخلاصته ان الحباب بن المنذر بن الجموح جاء الى الرسول ﷺ بعد وصول المسلمين الى بدر وبعد ما عبأهم بذاته طبقا لخطة رسمها وقال له : أرايت يا رسول الله هذا المنزل ، امنزلا انزلك الله ليس لنا ان نتقدم ولا تتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال بل هو الرأي والحرب والمكيدة . قال فان هذا ليس بمنزل فانفض بالناس حتى تأتي ادنى ماء من القوم فاني اعرف غزارة مائه فنزل به ثم غور ماوراءه من القلب (١) ثم نبني عليه

حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

ولم يتردد الرسول ﷺ في الأخذ بهذا الرأي الصائب فنهض وسار وتبعه المسلمون حتى أتى أقرب ماء من المكان الذي نزل المشركون فيه فنزله وبنى حوضاً للماء كما أشار الحباب وملاءه، ثم قذفوا بالآنية في البئر وغوروه وأقاموا حامية منهم للدفاع عن الحوض وصد المشركين ووصل المكيون في الغداة ، وكان المسلمون قد تأهبوا للقائهم وأعدوا عدتهم للكفاح والنضال

وظهرت في صفوف قريش قبل أن ينشب القتال فكرة تقول بالكف عن الحرب وكان زعيم القاتلين بهذا الرأي عتبة بن ربيعة هو من كبار الامويين فقد خطب في أصحابه ودعاهم الى الرجوع وترك المسلمين وشأنهم وقال لهم « خالوا بين محمد وبين سائر العرب فان أصابوه فذاك الذي أردتم وان كان غير ذلك لا يضركم » وعارض أبو جهل وأنصاره في الاخذ بهذا الرأي وقاوموه أشد مقاومة ورموا دعائه بالخور والجلين وقال « والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد » فانقاد الناس اليه ، واتبعوا رأيه

ورتب المسلمون صفوفهم وتأهبوا للنضال ، وخرج الاسود الخزومي يقصد الحوض ليرده فضربه حمزة بن عبد المطاب وكان واقفاً عنده لحمايته فجرحه في رجله فعاد الى اقتحامه فقتله فكان اول قتيل في بدر

وبرز عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة فأسرع فتية من الانصار للقائهم فقالوا لهم مالنا بكم حاجة انما نريد قومنا نخرج اليهم حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث فبارز عبيدة عتبة وحمزة شيبة وعلى الوليد فقتل على صاحبه ومثله حمزة وانضما الى عبيدة وقد جرح في المعركة فأجهزوا على عتبة

وغادر النبي ﷺ مقره ، وكان يقيم في عريش مرتفع بناه له سعد بن معاذ زعيم الانصار ، ومعه أبو بكر لحمايته والدفاع عنه حينما انتهت المبارزة، وجال بين صفوف المسلمين وقال لهم ان دنا القوم منكم فانضحوهم واستبقوا نبالكم ولا تسلوا السيوف حتى يعشوكم . وأمرهم بأن لا يحملوا حتى يأمرهم

ونشبت المعركة على الاثر، وحمل القرشيون على المسلمين فصمدوا لهم وقاتلوهم
أصدق قتال وكان رسول الله ﷺ يطوف بين رجاله ويحثهم على الثبات ولم
يطل الامر حتى دارت الدائرة على قريش فتضعفت ثم انهزمت وولت الادبار وفاز
المسلمون فوزا عظيما وفقد اعداؤهم في هذه المعركة عددا غير قليل من اعلامهم
ووجوههم فعدا عن الثلاثة الاولين شيبة وابنه وأخيه قتل ابو جهل اعدى اعداء
المسلمين وقتل أيضا امية بن خلف الجمحي قالوا وبلغ عدد قتلاهم يومئذ ٧٠
وأسروا منهم وايضا ٧٠ أسيرا وغنموا أسلابهم وأموالهم وهي كثيرة وقتل من
المسلمين ثمانية

وكان بين الاسرى العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وأبو العاص بن الربيع
صهره وعقيل بن ابي طالب شقيق علي وعدد من مشاهير قريش بينهم النضر بن
الحارث العبدي وعقبة بن ابي معيط بن ذكوان بن امية بن عبد شمس وكانا من أشد
الناس عداوة للنبي ﷺ وقد حاول الاخير قتله خنقا في مكة وانقذه ابو بكر من يده
فقتلا بامر دونه بقية الاسرى وهم في طريقهم الى المدينة

واستشار النبي ﷺ ابا بكر وعمر وعليما فيما يفعله بالاسرى فأشار الاول باستبائهم
وأخذ الفداء منهم وقال له « اهلك وقومك قد اعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم ،
ارى ان تستبقيهم وتأخذ منهم الفداء فيكون ما اخذناه منهم قوة لنا على الكفار
وعسى الله ان يهديهم بك فيكونوا لنا عدا »

ورأى عمر بن الخطاب قتلهم وطلب ان يمكن من قريب له منهم فيضرب عنقه
ويضرب على عنق اخيه ويضرب حمزة عنق العباس حتى يعلم انه ليس في قلوبنا
مودة للمشركين . ولم ينقل المؤرخون رأيا لعلى . ورأى عبد الله بن رواحة الأنصاري
احراقهم بالنار في واد كثير الخطب . ورجح المصطفى ﷺ رأى ابي بكر واخذ به وامر
بالاسرى فوزعوا في بيوت المسلمين . وكان ابو وداعة الحارث أول من فدى منهم ،
فداه ابنه باربعة آلاف درهم وتتابع بعد ذلك وصول المال وكان الفداء يتفاوت
بين ألف والفين وثلاثة وأربعة آلاف درهم طبقا لحالة الاسير المادية والاجتماعية .

و يقدر مادفعته قريش فداء لأسراها بعشرين ألف درهم وكسور ، وكان من جملة الاساليب التي اتبعها المسلمون في معاملة الاسرى انهم كانوا يطلقون سراح كل من يعلم عشرة من اطفال المدينة القراءة والكتابة . وقد أطلق سراح كثيرين منهم بهذه الوساطة وتعلم كثيرون من الاطفال على ايديهم فانتشرت بذلك القراءة والكتابة بينهم

ودفع العباس بن عبد المطلب وابنا اخيه عقيل ونوفل وحليفه عتبة بن عمرو الفداء فأطلق سراحهم ومثل ذلك دفعت فدية ابى العاص صهر النبي ﷺ وهكذا كانت معركة بدر من أعظم المعارك وأيمنها على المسلمين ، ولئن فاتتهم القافلة فان الغنائم وأموال الفداء عوضتهم عنها

واستقبل الجيش الاسلامي حين عودته الى المدينة بالهتاف والاستبشار وفرح المسلمون بانتصارهم وفوزهم ، وازدادوا ايمانا على ايمانهم

فتح الحجاز



الحجاز

معلومات جغرافية عامة

يطلق الحجاز على الاقليم المعروف باسمه في بلاد العرب ويحده البحر الاحمر غربا، ونجد شرقا اخذا بالتقسيم الجغرافي الجديد الذى يجعل نجدا اقليما مستقلا، أما فى القديم فكانوا يعتبرونه جزءا منه، وبلاد الشام شمالا، وعسير جنوبا ويقطعه من الشمال الى الجنوب جبل السراة ويبلغ طوله من الجنوب الى الشمال نحو ١٥٠٠ كيلومتر وعرضه من الغرب الى الشرق ٣٠٠ كيلومتر. ومن مدنه المشهورة مكة وهى عاصمته من القديم والمدينة المنورة وجدة والطائف وينبع والوجه والعلا وضبا وسكانه من العرب وينقسمون فى الوقت الحاضر الى قسمين : حضريون وهم سكان المدن ويتألفون - ولا سيما سكان المدن الثلاثة الاولى- من امشاج شتى وعناصر مختلفة. وبدو وهم سكان البادية، وينقسمون الى قبائل وانفاذ ولايزالون على ما كانوا عليه قبل الاسلام

وكان الحجاز بما فيه نجد قطرا مستقلا فى الجاهلية لاسلطان لأجنبي عليه وفيه نشأ الاسلام ومنه خرج المسلمون الاولون الذين اكتسحوا العالم ودوخوا الممالك ولم يخضع فى جميع أدواره التاريخية لسلطة غير اسلامية. ولما دالت دولة الترك العثمانيين فى اثناء الحرب العظمى قامت فيه دولة هاشمية أنشأها الشريف حسين باشا بن على عاشت عشر سنوات (١٩١٦ - ١٩٢٤) وحلت محلها الدولة السعودية القائمة الآن ويقدر سكان الحجاز فى الوقت الحاضر بمليون نسمة منهم ٤٠٠ الف يسكنون المدن والباقي ينزلون البادية

١ صدي انتصار بدر

كان لانتصار المسامين في بدر صدى بعيد الغور لاني المدينة ولا في مكة وحدهما بل في جميع أنحاء الحجاز ، فقد طار خبره وتحدث الناس بامرہ ويمكن وصف النتائج العاجلة التي اتتجها بما يأتي :

١ - وطد سلطان المسامين في المدينة ومكن لهم فيها وزاد في هيبتهم ومكاتهم
٢ - كان مصدر يمن وبركة لهم فقد خفف عنهم ما تقاضوه من فداء الاسرى وما غنموه من غنائم بعض ما كانوا يجدونه من ضائقة شديدة ، كما شدد عزائمهم وضاغف قواهم المادية ما اخذوه من سلاح وابل وما كانوا يملكون سلاحا كافيا من قبل

٣ - ساعدهم على نشر التعليم في عاصمتهم الجديدة ، فتعلم كثيرون من اطفالهم القراءة والكتابة على يد الاسرى من قريش ، وكان عدد الذين يقرأون ويكتبون في المدينة قليلا

٤ - زادهم وثوقا برسالة رسولهم واعتقادا بصحة نبوته ، ولا سيما بعد ما رسخ في أذهانهم أنه لم ينصر الا بتأييد السماء ونزول الملائكة لمساعدته واشترآكها في القتال لتأييده . ومن تؤيده السماء وترضى عنه فهو مؤيد منصور

٥ - زاد في حقد قريش على المسامين ونقمتها عليهم فانصرفت لاعداد حملة قوية تزحف عليهم للطالبة بثأرها فاكتب تجارها واغنياؤها بمبالغ كبيرة لشراء أسلحة وتجنيد جيش كبير ، ونذر أبو سفيان على نفسه أن لا يقرب النساء حتى يثأر من المسامين

٦ - انشأ أحقادا واضعانا في صدور طائفة من اليربيين ، عرفوا في التاريخ

الاسلامى بالمنافقين فقد كبر على زعيمهم عبد الله بن ابي مابلغه المسمون من انتصار و بعد صيت ، فاخذ يكيدهم ويعمل على مقاومتهم من وراء ستار ، ويقال انه كان يطمع أن ينادى به أميراً على الاوس والخزرج ، فلما قدم النبي ﷺ الى المدينة وانتقلت اليه زعامتها ، خاب أمله

هذا بعض ما يرد على ذهن الباحث وهو يحاول سرد النتائج المادية والادبية العاجلة التي انتجها انتصار المسلمين العظيم في بدر ، فهو وان لم يك حاسماً ولم يقض على قوى قريش ولم يحملها على الخضوع والاستسلام فانه كان فاتحة طيبة للمسلمين الذين ما كانت قواهم المادية لتذكر في جانب قوات قريش الكبرى ، وما كانت ثروتهم لتذكر في جانب ثروتها كما ان عدد المحاربين منهم ما كان ليذكر في جانب عدد المحاربين منها ومن حلفائها

ومما يجعل لهذا النصر أهمية خاصة في نظر كل من يدرس التاريخ الاسلامى ويمشى حوادثه وقوعه في زمن كان المسمون فيه أقلية ضئيلة لا تذكر في جانب الاكثرية القوية المعتزة بعددها وعددها و ثروتها وتجارها وحسبها ونسبها ، وقد عد هذا الانتصار برهاناً ساطعاً على تأثير القوى الروحية التي بشر محمد ﷺ بها ودعا الى الايمان بها فاولاها ولولا مساعدتها لما انتصر المسمون على اعدائهم ولما تغلبوا عليهم

بقى علينا ان نسرد العوامل المادية التي ضمنت للمسلمين فوزهم وانتصارهم في بدر رغم التباين المشهود في القوى والعدد والعدد فنقول:

١ - ان في مقدمة هذه العوامل تعبئة المسلمين تعبئة حسنة في بدر ويعود الفضل في ذلك الى الحباب بن المنذر بن الجموح الانصارى وكان عارفاً بجغرافية المكان ومواقعه ، ولم يتردد النبي ﷺ في الاخذ برأيه حينما أشار عليه بترك الاماكن التي نزولها ، وللتعبئة مقام عظيم في فن الحرب وتأثير كبير

٢ - مكنت التعبئة الجديدة التي أشار بها الحباب المسلمين من السيطرة على آبار

الماء فكانوا يقاتلون والماء موفور لهم ، ممنوع على اعدائهم ، ومتى ذكر القارىء أن معركة بدر قد دارت في ١٧ رمضان وهو يعادل شهر يوليو من تلك السنة ، ويشد الحر كثيرا بالحجاز في هذا الوقت ولا سيما في صحاريه وترتفع الحرارة الى مافوق الخمسين في ميزان سنتغراد ، أدرك المزايا العظيمة التي يمتاز بها جيش يملك حاجته من الماء ويمنع عنه خصمه ، واذا قيل لنا ان المكيبين معتادون على حر الحجاز وقيظه نقول انهم غير معتادين على قلة الماء وفقده ، وخصوصا في وسط الصحراء في يوم عبوس قطير كيومهم في بدر

٣ - ما أجمع عليه الرواة من هبوب زو بعة رملية شديدة في إبان المعركة زادت في حراجة موقف قريش وصعوبته ، فقد كان الغبار يملاً وجوههم وانوفهم وعيونهم فلا يكادون يبصرون ما امامهم أى انهم كانوا في وضع معاكس لهبوب الريح بخلاف وضع المساميين فكان على أفضل مايرام

٤ - فوز البارزين المساميين في أول المعركة على خصومهم وقتلهم اياهم وهم ذوو مكانة رفيعة في قومهم

٥ - وحدة الرأى بين المساميين والتفافهم حول قائدهم وانقيادهم اليه بعكس المكيبين فقد ظهر الخلاف في صفوفهم قبل المعركة ، ومن يقابل بين خطب الصحابة وكيف أجمع زعمائهم على القول للنبي ﷺ بأنه لو سار الى برك الغهاد لساروا معه ولو قاتل الجن والانس لقاتلوا معه ، برجوع الاخس بن شريق بنى زهرة من الجحفة (منطقة بدر) ويقدر بعضهم الذين رجعوا معه بمئة ويجعلهم آخرون ٣٠٠ أى نحو ثلث جيش قريش ، وهو عدد لا يستهان به ، يرى الفرق كبيرا فقد أبى هؤلاء قتال المساميين بعد ما علموا بوصول القافلة سالمة الى مكة يضاف الى ذلك ما حدث بين عتبة بن ربيعة وكان يمثل عددا كبيرا في الجيش وبين أبي جهل والحاح الاول بالرجوع والانسحاب وعدم قتال المساميين وقوله حينما قام فيهم خطيبا « والله يامعشر قريش ماتصنعون شيئا حينما تلقون محمدا وأصحابه ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر

اليه ويقول قد قتل ابن عمى أو ابن خالى أو رجلا من عشيرته، فارجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابه غيركم فذاك الذى أردتم ، وان كان غير ذلك ألقاكم ولم تعدوا منه ما تر يدون ، يا قوم اعصوها اليوم برأسى وقولوا بن عتبة وأتم تعاونى انى لست بأجبنكم » ومعارضة أبى جهل له ، وكان يمثل الفريق المتطرف فى الجيش ويقول بوجوب قتال المسلمين واستئصالهم لئلا تعيرهم العرب، وكانت النتيجة اشتراك عتبة فى المعركة وقتله وابنه واخيه وقتل ابى جهل نفسه فى ذلك اليوم

٦ - استهانة قريش بأمر المسلمين واستصغارها لأمرهم واستصحابها الخمر اعتقادا من رجالها بانهم ذاهبون « لنزهة عسكرية » وما يؤثر عن أبى جهل قوله حينما أرسل اليه أبو سفيان يدعوه للرجوع الى مكة لان القافلة وصلت سليمة « والله لا نرجع حتى نرد بدرنا فنقيم عليه ثلاثا فنحرق الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابونا »

قابل هذا كله بوصف الحالة الأدبية والروحية التى كان عليها المسلمون قبل المعركة واكثر النبي ﷺ من الصلاة والدعاء وقوله « اللهم انى أنشدك عهدك ووعدك اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد فى الارض » وطوافه بين أصحابه وقوله لهم « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة » وقوله « سيهزم الجمع ويولون الدبر » ترى الفرق كبيرا جدا بين حالة المسلمين وحالة خصومهم وتسلم بانه لا بد من انتصار هؤلاء وفوزهم مهما كثر عدد أعدائهم لانهم كانوا يقاتلون عن عقيدة وايمان بعكس اولئك الذين لم تكن تجمعهم سوى جامعة الانتقام من المسلمين والرغبة فى القضاء عليهم

٧ - اعتقاد المسلمين انهم يخوضون معركة يتوقف على انتصارهم فيها فوزهم ونجاحهم وكيد أعدائهم واذلالهم

٨ - اعتقاد المسلمين ان الذين يقتلون منهم يذهبون الى الجنة وينزلون أرفع المنازل وأرقاها ، ولم يك ذلك شائعا بين قريش وما كانت تؤمن بالبعث فهذه الاعتبارات الجوهرية و بعضها مادية و بعضها معنوية أثرت فى سير القتال

ورجحت كفة المسامين وكانوا يمتازون على اعدائهم بجودة مواقعهم وحسن تعبئتهم وتضامن رجالهم واتحاد كلمتهم والتحام صفوفهم ووفرة الماء لديهم واعتقادهم بأن قتلاهم في الجنة وقتلى اعدائهم في النار وصدق عزيمتهم وایمانهم ، علاوة على ما كان المهاجرون المكيون - وهم نخبة جيش بدر وعمدته - يجدونه على قریش وشدة شوقهم الى الانتقام منها لسوء صنيعها معهم فقد اضهدتهم ثلاث عشرة سنة ولم تدخر وسعا في تعذيبهم والتنكيل بهم

ولا نشك في أن انتصار بدر كان من العوامل الكبرى في توطيد قدم الاسلام ورسوخ قواعده ، وانتشاره في بادية الحجاز

ويجب أن لانغفل شأن المعدات الحربية التي غنمها المسامون في بدر فقد ساعدتهم على تسليح جيشهم وتوسيع نطاقه توسيعا نسبيا كما أن ما قبضوه باسم فداء الاسرى وقدره عشرون الف درهم ونيف - وهو مبلغ لا يستهان به بالنسبة لمن كان في حالتهم تلك - ساعد على تحسين حالتهم المادية

وبالجملة فقد كان انتصارهم في ذلك اليوم من اعظم الانتصارات في تاريخهم العسكري وهو لا يقل خطورة في نظرنا عن فتح مكة

وكما اعتبرنا يوم دخول النبي ﷺ الى المدينة يوم انشاء الدولة الاسلامية الجديدة فاننا نعتبر يوم بدر فاتحة استيلاء المسامين على الحجاز ومقدمة له ، فلولاها لما رسخت قواعد دولتهم ولما دان الحجاز وخضع لسلطانهم

الاعمال العسكرية في شرق المدينة

ذاق المسلمون لذة النصر في بدر وفرحوا بما آتاهم الله من فضاه ، فنشطوا ووسعوا نطاق اعمالهم العسكرية ، فلم يقيموا في المدينة ، بعد عودتهم من بدر سوى ستة أيام فقط ، نادى بعدها مناديتهم بالتأهب للرحيل فخرجوا في شهر شوال من السنة الثانية قاصدين بنى سليم

و بنو سليم هؤلاء ينزلون في شرقى المدينة الشمالى على طريق نجد وتبعد منازلهم عنها نحو ١٢٠ كيلو مترا ويعدون من القبائل القوية اجمالا وان كنا لانعرف مصدرا نستدل به على عدد نفوسهم، ولا على عدد القوات التى خرج بها النبي ﷺ لقتالهم ولا الاسباب التى بعثت على غز وهم ، فقد رجعنا الى كتب السير والمعازى التى اعتمدنا عليها وهى الواقدى والطبرى وابن هشام وابن كثير فلم نجد فيها مايشفى الغليل وخالصة ماقالته - وهو مكتوب بصيغة واحدة فى الكتب الاربعة مما يدل على وحدة المصدر وعلى ان كل واحد منهم اعتمد على صاحبه، ولم يكلف نفسه مؤنة البحث والاستنتاج مكتفيا باثبات ما اثبته غيره ، هو ان النبي ﷺ لم يقيم بالمدينة سوى سبع ليال ثم غزا بنى سليم فبلغ ماء من مياههم يقال له الكدر فاقام عليه ثلاث ليال ثم عاد الى المدينة يلق كيدا

نعم هذا ما رواه ابن هشام وغيره من كتاب السيرة النبوية القدماء وزاد عليه بعضهم فقال ان بنى سليم هربوا حينما علموا بخروج المسلمين لقتالهم تاركين نعمهم وعددها ٥٠٠ بعير غنموها وعادوا بها الى المدينة واقسموها حينما اقرتوا منها وما يستوقف النظر فى هذه الغزوة ويهمننا نحن بوجه خاص ان نسجله كونها

المرّة الاولى التي يغزو المسلمون فيها شرق المدينة فقد اقتصرّت اعمالهم العسكرية في المرحلة الاولى على جنوبيها (بدر) وشمالها (الابداء) وغربها رابع وقديد . اما في هذه المرّة فقد ولوا وجههم شطر المشرق عاملين على اخضاع قبائله فقصدوا بنى سليم وعادوا ولم يشتبكوا في معركة معها لانها أحجمت عن منازلهم كما يؤخذ من أقوال المؤرخين ، وخافت بأسهم وقوتهم ، ولولا ذلك لما تأخرت عن قتالهم . واذا صح ماجاء في الروايات الاخرى وهو انهم عادوا من هذه الغزوة بخمسمائة بعير فيكون الفوز مضاعفا

أول اصطدام بين المسلمين واليهود

ملاء بنى قينقاع

تبسطنا في الكلام ونحن ندرس حالة اليهود في الحجاز حين ظهور الاسلام ،
 (انظر ص ٣١) عن العوامل التي ادت الى اصطدام المسلمين باليهود .
 وقلنا ان في مقدمتها التنافس الاقتصادي والتنازع على السيادة والنفوذ فقد
 كان اليهود يسيطرون على شمالي الحجاز سيطرة فعلية حين ظهور الاسلام وكانوا
 أصحاب النفوذ السياسي في بواديه وحواضره ، كما كانوا يسيطرون عليه تجاريا وماليا
 فمرافقه في ايديهم ، وتجارته خاصة بهم ، وامواله تجبي اليهم ، وكل شئ رهن أمرهم
 وتحت تصرفهم

واتقلت الزعامة السياسية الى المسلمين حينما نزلوا المدينة وانشأوا جماعتهم
 وتمثلت في شخص النبي ﷺ ، زعيم المسلمين وكبيرهم فصار سيد المدينة غير
 مدافع وصار المرجع الوحيد فيها ، وحسبك انه استخلف خليفة عنه في ادارتها عند
 خروجه لاول غزوة في السنة الاولى للهجرة ، ومعنى ذلك انه صار سيدها وصاحب
 الرأي الاعلى في أمورها . ومن تحصيل الحاصل القول ان ظهور المسلمين بهذا
 المظهر من القوة ، وبسطهم نفوذهم السياسي على المدينة وعلى المناطق المجاورة ،
 كسف النفوذ اليهودي وغطى عليه يضاف الى هذا مزاحمة المهاجرين الكيين لليهود
 اقتصاديا ، وانشأؤهم سوقا الى جانب سوقهم بما أثر في نفوس هؤلاء فاخذوا يجاهرون

المسلمين بالعداء ويكيدون لهم ويطعنون فيهم وفي دينهم ، فصر المسلمون على مضمض في اول الامر، لأنهم كانوا ضعافا، ولأنهم لم يروا من مصلحتهم أن يشتبكوا في نضال مع اليهود، ولا يزالون في نضال مع قريش ولا تزال تطاردهم ، وتقفوا أثرهم

وتبدل الموقف في المدينة بعد عودة المسلمين مثقلين بالغنائم والاسرى من بدر وبعد رجوعهم موفقين من بنى سليم ، فاستقر رأيهم على تصفية الحساب مع يهود المدينة ، أى يهود بنى قينقاع وحدثهم وقد قلنا من قبل انهم كانوا يقيمون في داخلها وقد رنا عدد نفوسهم بالف وخمسمائة على وجه تقريبي وانهم كانوا يضايقون المسلمين ويسئون اليهم

والمؤرخون على خلاف في وصف الأسباب الظاهرية التي سببت الصدام، والذي عليه الاجماع هو ان النبي ﷺ زار سوقهم بعد رجوعه من بنى سليم (سوق بنى قينقاع) فاجتمعوا حوله فدعاهم الى الاسلام والدخول في دينه ، لان ذلك أفضل وسياسة لحل مشكلاتهم لو تم، وقال لهم « يامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا فانكم قد عرفتم انى نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله اليكم» فابوا اجابة دعوته واستكبروا واستكبارا وقالوا له والعجب والغرور يملاء أوداجهم :

« يا محمد انك ترى اننا كقومك . لا يغرنك انك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة ، انا والله لئن حاربنا لتعلمن انا نحن الناس »

ولم يسفر هذا الاجتماع عن نتيجة، فقد اكتفى النبي ﷺ فيه بدعوتهم انى دينه وتلك هى المرة الاولى فيما نظن يوجه اليهم مثل هذه الدعوة ، ثم حذرهم من الوقوع فيما وقعت فيه قريش حينما أنكرت دعوته وحاربتة وهددهم ضمنا بالقتال اذا اتبعوا ما اتبعته قريش

والواقع أن دخول اليهود في الاسلام كان الوسيلة الوحيدة لحل الخلاف بينه وبينهم

في تلك الايام لانه لم يعد المسلمون يامنون جانبهم بعد الذي وقع من المظاهرات
والمناقشات اللفظية

وقال اليهود في الرد على انذاره اننا كقومك اى اننا لسنا باعدائك وخصومك،
وقوم الرجل هم آله وعصيته ، ولذلك فلا موجب لقتالنا ونزالنا ، ثم قالوا واذا كنت
لاتنظر الينا بهذه النظرة ، ولا تريد أن تعاملنا بما تعامل به قومك وأبيت الاحاربتنا
فاعلم اننا نحن الناس ، ومعنى ذلك أنهم أرادوا أن يقابلوا تهديده بتهديد مثله وكما
حذرهم من الوقوع فيما وقعت فيه قريش ، حذروه من التورط في حربهم لانهم أقوياء
ولانهم هم الناس

وثمة حادث آخر تلى هذا الحادث رواه ابن هشام، وخلصته ان عربية جاءت
الى سوق بنى قينقاع تجلب لها فباعته ثم جلست الى صائغ يهودى فجعلوا يريدونها على
كشف وجهها فأبت فعقد الصائغ طرف ثوبها الى ظهرها فلما قامت انكشفت سواها
فضحكوا فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله فاتتصر اليهود لصاحبهم
وقتلوا المسلم فغضب المسلمون وحملوا على اليهود فجاء هؤلاء الى حصنهم ، فضرب
المسلمون الحصار حوله وقطعوا كل صلة لهم بالخارج

وحاول بعض الباحثين جرح هذا الخبر بحجة أنه لم يرد في المصادر الاخرى
وعندنا أن عدم ايراد الطبرى له لا يجوز أن يتخذ وسيلة للطعن فيه فحدوثه غير مستبعد
من الوجهة المادية كما انه لا ينطوى على شىء غير معقول من الوجهة الاخبارية سيما وهو
يقص حادثة تتكرر تقريبا في أسواق الشام والعراق وطالما تحرش بعض شبان
التجار هنا وهناك بالفتيات البدويات اللواتى يرتدن الاسواق وسخروا منهن سالكين
نفس الطريقة التى اتبعت في سوق بنى قينقاع أو ما يماثلها

وعندنا ان المسألة لم تكن مسألة امرأة عربية اعتدى عليها وانما كانت مسألة
جوهرية للمسلمين فهم بعد وقوع ما وقع بينهم وبين قريش من جهة، وكانوا يترقبون
حملتها عليهم من وقت الى آخر طلبا لثأرها ، وبعد ماجرى بينهم وبين اليهود من

المنافسات والمساجلات والمهاجمات ، و بعد ان رفض هؤلاء معارضة عليهم من الدخول في دينهم والاشراك في جماعتهم، كانوا بين أمرين : اما ان يسكتوا عنهم ويتحملوا اذاهم واما ان يقاتلوهم ويتخلصوا منهم . وحدث حادث السوق ، فحملوا عليهم ، فنجحوا نجاحا عظيما اضيف الى سلسلة انتصاراتهم المتتابعة فعزز مقامهم

وخلاصة ما وقع هو ان بنى قينقاع لجأوا الى حصنهم حينما حمل عليهم المسلمون وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثانية، وكان عددهم ٧٠٠ مقاتل كما علمت (٣٠٠ دارع و ٤٠٠ حاسر) فضرب المسلمون نطاقا حولهم وقطعوا كل اتصال بينهم وبين الخارج

ويؤخذ مما لدينا من المصادر ان القينقاعيين كانوا يعتمدون في نضالهم مع المسلمين وفي رفض مطالبهم ، على تأييد حلفائهم الخزرج فقد انضموا اليهم يوم بعث (وهو اليوم الذي اقتتل فيه الاوس والخزرج فانضم بنو قينقاع الى هؤلاء ونصروهم ، كما انضم بنو قريظة الى الاوس ونصروهم) ومعنى ذلك انه لم تكن هنالك رابطة سياسية بين يهود المدينة انفسهم ، بل كانوا منقسمين الى قسمين : قسم يوالى الاوس وقسم يوالى الخزرج . ولعلمهم ارادوا من هذا التدبير اكتساب ود الفريقين على السواء فلا يخرجون عليهم . وعلى كل حال فان قعود بنى النضير وقريظة عن نصرتهم حينما حصرهم المسلمون وعدم تدخلهم يدل دلالة واضحة على فقدان الرابطة من بينهم ولو نهضوا لنصرتهم قبل ان ينكبوا ويحلوا عن بلادهم لوقوهم شر الطرد على الاقل . وقد لا يبعد ان يكون تغافلهم عنهم نشأ عن المنافسات التي كانت بينهم بسبب يوم بعث ولا يصح أن يتخذ ذلك باى حال مسوغا يسوغ عمل بنى قريظة وبنى النضير ، وخصوصا بعد ما اتحد الاوس والخزرج انفسهم - وهم الذين كانوا يتقاتلون في الاصل - تحت راية النبي ﷺ ونهضوا معه لمحاصرة بنى قينقاع . اما يهود خيبر فما كان في استطاعتهم ان يفعلوا شيئا لدفع منازل باخوانهم من ضر لان المدة بين الهجوم عليهم ومحاصرتهم واجلائهم لم تزد على ١٥ يوما وهى لاتكفي لوصول الاخبار الى خيبر

- وتبعد عن المدينة نحو ١٢٠ كيلومترا أو مسيرة اربعة أيام - ولتجهزهم وسيرهم لنجدتهم سيما ولم يكونوا حلفاءهم . يضاف الى هذا ان اليهود انفسهم ما كانوا حتى ذلك الوقت يوجسون خيفة من الاسلام ولا يخافون من انتشاره وربما كانوا يعتقدون ان قريشا وحدها كافية للقضاء عليه فلماذا يتعبون انفسهم بقتاله ؟ ولا نشك في انهم لو عرفوا ان امره سيؤول الى ما آل اليه من الاتساع والانتشار لما قعدوا عن مناوآته والتألب عليه ، وقد فعل بعضهم ذلك متأخرا اى بعد فوات الوقت فكان سببا في التعجيل عليهم

وعلى كل فحدث بنى قينقاع دل على ضعف رابطة اليهود الاجتماعية في الحجاز وعلى انهم لم يكونوا على اتفاق وولاء ولئن سيطروا على شمال الحجاز فما ذلك الا لكثرة عددهم من جهة ووفرة ثروتهم من جهة اخرى ، وادخار المال وجمعه من الغرائز المركوزة في روح اليهودى بعكس الغريزة السياسية (أى الروح السياسية) فهى مفقودة منه أو ضعيفة فيه على الاقل

وقعد عبد الله بن ابي زعيم الخزرج عن مساعدة حلفائه اليهود عسكريا ، وما كان يستطيع غير ذلك في اعتقادنا لان قومه ما كانوا يطيعونه في الخروج على المسلمين لتأييد اليهود ، بعد ما ذاقوا لذة النصر والغنم في بدر وبنى سليم ، ويوشكون أن يذوقوها غدا في بنى قينقاع ، ولو نفذت اقتراحات عبد الله بن ابي في تأييدهم ، لادت الى تجدد الحرب بينهم وبين ابناء عمهم الاوس ونزلائهم المهاجرين المكيين ولا مصلحة لهم في تجدها ، اى انه لم يكن في استطاعته ان يساعدهم عسكريا ولو استطاع لما تأخر للتخلص من مزاحمة المسلمين ونفوذهم ، فاكتفى بان توسط لهم عند الرسول ﷺ حينما استسلموا بلا قيد ولا شرط لانهم ادركوا عجزهم عن القتال وعرفوا انه ليس هناك من يفكر في نجاتهم والدفاع عنهم ، وذلك بعد خمسة عشر يوما فقط من ضرب الحصار عليهم

نعم لقد استسلم بنو قينقاع - وكانوا يهددون المسلمين ويقولون انهم هم

الناس وهم كيت وكيت ، بلا حرب أوقتال ، ومن دون أن يريقوا قطرة واحدة من دمائهم ، أو يطلقوا سهما واحدا في الدفاع عن حوضهم ووطنهم وكرامتهم ، مع ان عددهم لم يكن قليلا ، ومع انه كان في استطاعتهم المقاومة مدة غير قليلة في ما نعتقد ، لأنهم يأوون الى حصن حصين وما كان للمسلمين مثله ، كما أن سلاحهم كان اوفر ومثل ذلك عدد المقاتلين منهم فما كانوا يقاومون عن عدد محاربي المسلمين اى انهم كانوا يملكون من الوسائل المادية مالا يملكه المسلمون ، الا انهم ابوا القتال وفضلوا الجلاء على الاسلام ولو اسلموا لبقوا واقاموا ويلوح لنا ان تفضيلهم الجلاء نشأ عن اعتقادهم بانه لم يعد في امكانهم البقاء في المدينة بعد ما انزع المسلمون منهم السيادة السياسية والاقتصادية واصبحوا اصحاب الحول والطول وصار عليهم ان يقيموا تحت سلطنتهم

ولما أعلن اليهود استسلامهم بدون قيد ولا شرط وفوضوا امرهم الى النبي ، واوشك أن يصدر حكمه فيهم ، تقدم اليه ، عبد الله بن ابي متوسطا وقال : « يا محمد احسن في موالي » اى انصارى وحلفائى فلم يرد عليه فكرر القول فاعرض عنه فادخل يده في جيبه فقال له دعنى وكرر عليه القول بان يدعه فاجابه « والله لا ادعك حتى تحسن الى في موالى ٤٠٠ حاسرو ٣٠٠ دراع منعونى من الاسود والاحمر تحصدهم في غداة واحدة والله انى لا آمن واخشى الدوائر »

واثر كلامه في نفس الرسول فقال له هم لك ثم امر بان يكتبي باجلائهم واشرف على عملية الجلاء عبادة بن الصامت زعيم الخزرج الآخر وقد استمرت ثلاثة ايام فغادروا المدينة متجهين الى الشمال ومعهم نساؤهم واطفالهم وذرايرهم فزلوا في الشرارات (اراضى شرقي الاردن الجنوبية) ولم يقتل منهم احد ولم يفقد منهم أحد فكانوا اول يهود اجلاهم المسلمون عن جزيرة العرب وكان اجلاؤهم على هذا المنوال نذيرا للقبائل اليهودية الاخرى لم يغب عن ادراك بعيدى النظر من زعمائها وكبارها فعكفوا على مناوأة الاسلام والكيد له فلم يغن ذلك عنهم شيئا

وغم المسلمون غنائم كثيرة من بني قينقاع واقتسموا بيوتهم ومنازلهم كما حازوا
 كمية من سلاحهم فازدادوا بها قوة . والحاصل ان اجلاء بني قينقاع وتفرد المسلمون
 بالسيادة في المدينة وغمهم ما غنموه من اموال واسلاب ، فوز لا يستهان به من
 الوجهتين المادية والادبية ؛ فقد عزز مقامهم وشجعهم على المضي في الكفاح والنضال
 فتغلبوا على خصومهم ومنافسيهم الواحد بعد الآخر

قريش تطالب بثأرها

ابو سفيان يستطلع هالة المدينة ويعمل لاستمالة اليهود ومحالفهم

لم يسجل تاريخ قريش منذ تغلبها على قضاة و بسطها نفوذها على مكة و واديها وقد تم ذلك على يد قصي جدها ومؤسس مجدها ، انها نكبت بمثل النكبة التي حلت بها في يوم بدر ، فقتل سبعين من رجالها واسر ٧٠ مثلهم من الحوادث الخطيرة في جزيرة العرب، ويكون عدد القتلى قليلا في الغالب بينهم لأنهم يضنون بالنفس يبذلونها في أمور عادية ، ويكتفون في الغالب بغارات يغيرونها فاذا فازوا بالحصول على مايريدونه أو بعضه فهو المقصود والا عادوا أدراجهم . ويتبدل الموقف اذا كانوا مصممين على الاستقلال والاستماتة ففي هذه الحالة وفيها وحدها ، يأتيون بذرائعهم ونسأهم لتضرم في صدورهم نار الحماسة ولتشجعهم على الثبات ، وقد فعل القرشيون ذلك في يومين على ما نذكر : يوم احد في الجاهلية ويوم اليرموك في الاسلام وهم على كل حال لا يفعلونه الا في الموقف الحرج ، ومن يدرس تاريخ حرب الفجار وقد امتدت سنوات بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان من هوازن يتبين انه لم يقتل من الفريقين مثل هذا العدد مع انهم خاضوا معارك كثيرة في أوقات مختلفة

وعظم المصاب على قريش وقامت النائحات في بيوتها ومنازلها ، ويقول المؤرخون الثقة ان النكبة شملت بيوت مكة وأسرها الكبيرة فلم يسلم منها أحد ، ونظم الشعراء المرثي وقام الندابون يندبون القتلى ويحثون على المطالبة بثأرهم والانتقام من قاتليهم وتلك عادات العرب وتقاليدها

وفي شهر ذى الحجة وهو الشهر الرابع لمعركة بدر (وكانت في شهر رمضان)
 شاع في المدينة ان ابا سفيان بن حرب غادر مكة يقود ٢٠٠ راكب من قريش فسلك
 النجدية ، وهو طريق قديم لايسلكه سوى عرب تلك الجهات في الوقت الحاضر ،
 وظل يتقدم حتى نزل في جبل يقال له نيب على مسافة ١٥ كيلو مترا من المدينة ثم
 خرج في الليل حتى اتى بنى النضير - وينزلون غربى المدينة - فطرق باب حى بن
 اخطب وهو من كبارهم فأبى أن يفتح له فقصد اطمة سلام بن مشكم سيد القوم
 فدخل عليه وقضى عنده ليلته

وبدهى أن ابا سفيان لم يطرق ديار بنى النضير ، ولم يجتمع بزعمائهم ، ويجب
 أن يلاحظ بأن قدومه كان في شهر ذى الحجة أى بعد شهرين من غزوة بنى قينقاع
 وطردهم من المدينة ولا نشك أنه أثر أثرا عميقا في جيرانهم وأبناء عمومتهم ومن
 يدري ؟ فقد يكون بينهم من ندم لعودهم عن نصرتهم

ولم تخف هذه الاعتبارات على ابى سفيان وهو الذكى الامعى ، فقصدهم ليجتمع
 بزعمائهم ، ويسعى فى الانشاء تحالف بينهم وبينه والقبيلان موتوران من المسلمين
 فيتعاونان على قتالهم ويوحدان الخطط للقضاء عليهم ، وتلك كانت احدى الغايات التى
 رمى اليها أبو سفيان من رحلته الى المدينة وزيارته لبنى النضير ، ولو كان يريد مهاجمة
 المدينة فعلا لجا بقوات أكبر كما فعل يوم احد بعد ذلك

وهناك غاية أخرى وهى تجسس حال المسلمين وعجم عودهم ودرس علاقاتهم
 بجيرانهم ، وقد ادرك أبو سفيان كل ذلك من اجتماعه بسلام بن مشكم سيد بنى النضير
 فأطلعه على حالة المدينة وما كان يجهل مايجرى فى داخلها ، ويأوح لنا انه لم يوفق
 فى حمل يهود بنى النضير على مخالفة قريش ، لانهم كانوا يرون ان مصلحتهم
 الخاصة تقضى بأن لايزجوا بأنفسهم فى حرب طاحنة لاناقة لهم فيها ولا جمل سيما وقد
 كانت العلاقات بينهم وبين المسلمين حسنة اجمالا حتى ذلك الوقت وكانوا مرتبطين
 باتفاقات تقضى عليهم بأن يشتركوا معهم فى الدفاع عن المدينة اذا هاجمها مهاجم أى
 ان معاهدتهم كانت دفاعية فقط

وأراد أبوسفیان - بعد ما اجتمع بابن مشكم ودرس الحالة عن كذب وعرف ما يود معرفته - ألا يعود من دون ان يعمل عملا ماديا يشعر المسلمين بوصوله الى قرب عاصمتهم فأرسل حين الرحيل جماعة من رجاله فهاجموا العريض في ضاحية المدينة فحرقوا نخلا وقتلوا معبد بن عمرو الانصارى وحليفه له كانا فيها ثم عادوا على الأثر فانضموا الى رفقائهم فارتحلوا من دون أن يقفوا المنازلة المسلمين

وغادر النبي ﷺ المدينة على الأثر يقود ٢٠٠ من المهاجرين والانصار في طلب المكيين فلم يدركهم فواصل التقدم حتى بلغ قرقرة الكدر على طريق مكة فوقف فيها مدة ثم قفل من دون أن يشتبك معهم وتعرف هذه الحادثة في السيرة النبوية بغزوة السويق لان القريشيين طرحوا في رجوعهم الى مكة كمية من زادهم ومن السويق فغنمه المسلمون وأضافوا الغزوة اليه

ولم يطل المطال بعد ذلك على قریش حتى جمعت قواها ورجالها وزحفت بها على المدينة ف وقعت معركة أحد وستقرأ تفاصيلها في الصفحات التالية

غزوة غطفان

كانت قبيلة غطفان من قبائل الحجاز المعروفة في تلك الايام، والظاهر انها بادت فلم نعر لها على أثر ، وكانت تنزل شرق المدينة على طريق نجد في منطقة قريبة من منازل فزارة وسليم وعبس وذيبيان وتبعد منازلها عن المدينة نحو ١٥٠ كيلومترا ويرجح أن تكون في منطقة الحناكية المعروفة في شرقى المدينة الآن

ولقد تبسطنا عند الكلام على غزوة بنى سليم (انظر ص ٦٣) عن غاية المسلمين من توسيع منطقة أعمالهم العسكرية في شرقى المدينة وقلنا انهم كانوا يرمون الى اخضاع قبائله الكثيرة وقد بدأوا ببنى سليم نخافوهم ولجأوا الى رؤوس الجبال فعدوا من دون أن يشتبكوا معهم في قتال ، وجنوا فوائد أدبية ومادية من غزوتهم تلك ووضعوا حجر الاساس فى توسعهم بالمنطقة الشرقية

ووصلت الاخبار الى المدينة فى شهر المحرم من السنة الثانية بأن جمعا من بنى ثعلبة ومحارب من غطفان تجمعوا بقيادة دعثور بن الحارث الحاربي يريدون غزو المدينة ، فخرج النبي ﷺ على رأس ٤٥٠ مقاتلا يقصدهم فلجأوا الى رؤوس الجبال عند دنوه من ارضهم

ويجب أن يلاحظ أن مجموع جيش المسلمين زاد فى هذه الحملة ١٣٧ رجلا بالنسبة لعدده يوم بدر فقد كان حينئذ ٣١٣ وهو الآن ٤٥٠ أى ان الزيادة بلغت نحو الثلث تقريبا ، وقضى شهرين فى نجد للبحث والاستطلاع وتعرف حالة تلك البلاد وقبائلها ورجالها تمهيدا للاعمال المقبلة التى كان ينوى القيام بها فى أرجائها عند سنوح الفرص وليس هذا كل مافعله المسلمون فى نجد خلال تلك المرحلة فقد عادوا اليها للمرة

الثالثة فى شهر جمادى الآخرة من السنة الثالثة . و بيان ما وقع أن أخبارا وصلت اليهم بان أبا سفيان بن حرب وصفوان بن امية وحويطب بن ابى العزى من تجار قريش خرجوا بقافلة كبيرة يطلبون العراق ، بدلا من الشام خوفا من المسلمين وقد أصبحوا يسيطرون على شمالى الحجاز

وسير النبي ﷺ على الفور قوة بقيادة زيد بن حارثة على رأس ١٠٠ راكب فالتقت بقافلة قريش عند ماء يقال له (الكدر) فى نجد فهاجمتها فهرب الذين كانوا فيها من الرجال والظاهر أن عددهم كان قليلا ، لانهم ما كانوا يتوقعون مهاجمة المسلمين فى أراضى نجد ، وغنمها هؤلاء وعادوا بها الى المدينة ، وهى أول قافلة يغنمونها

ويقول المؤرخون انه كان فيها فضة كثيرة ، وان سهم بيت مال المسلمين وهو الخمس بلغ ٢٥ الف درهم من غنائمها وهو مبلغ لا يستهان به

زاد تتابع الحوادث وسيرها في احقاد قريش ، ودفعها الى التعجيل بمحاربة المسلمين ، وللقضاء على نفوذهم واستعادة ما كان لها من مقام كادت تفقده ؛ فمن نكبة بدر الكبرى ، الى تهديد خط تجارتها مع الشام وقد انقطع او كاد في السنة الثانية لظهور المسلمين في الشمال ، الى سيطرتهم على تلك المنطقة الواسعة ؛ ولولا ذلك لما اضطر ابو سفيان الى السفر للعراق ، ولم ينجه ذلك منهم فقد هاجموا وانتزعوا قافلته وامواله فانقلب يدعو ويلا وثبورا

فهذه الاعتبارات الجوهرية تضاف اليها الرغبة في استعادة السيادة والسلطان واعداد الامور في شمالي الحجاز الى ما كانت عليه ، جعلت قريشا تسرع في اعداد حملتها الكبرى على المدينة ولم يبخل زعمائها واغنياؤها بالمال ، فقد جادوا به كما اثبت المؤرخون ، وساموه الى ابى سفيان وأطلقوا يده اطلاقا تاما في اتخاذ ما يراه من تدابير وقضى ابو سفيان اشهر ا يعد ويستعد ، ولما تكاملت قواه وكان ذلك في شهر رمضان (اى بعد سنة من معركة بدر الاولى) وثلاثة اشهر من معركة « الكدر » في نجد ، واعتقد ان رجاله قادرون على اقتحام المدينة والتغلب على المسلمين وخضد شوكتهم سار بهم اليها لقتالها ، والاتتقام من سكانها ، وتألف جيش قريش في هذه المرة من ٤ عناصر :

١ - الاحابيش وهم جيش مكة الاهلى

٢ - المتطوعون من ابناء مكة وصناديدها

٣ - بنو كنانة ا حلاف قريش

٤ - قبائل تهامة » »

ويقولون ان عدد رجالها باع ثلاثة آلاف مقاتل منهم ٧٠٠ دارع يملكون
عددا كبيرا من الابل والحيل والسلاح والذخيرة

وحسبت بعض نساء مكة- وفي مقدمتهن هند بنت عتبة بن ربيعة زوجة ابى
سفيان وابنة عتبة المقتول يوم بدر مع ابنه الوليد- الجيش وغنى عن البيان ان
خروج النساء معهم يدل على ان قريشا كانت جادة وعلى انها ادركت ان تساهلها مع
المسلمين فى أول الامر ، عاد عليها بالوبال فجاءت تتلافاه وتتلو عليهم درسا فى
الشجاعة والنجدة يعيد اليها مكاتتها بين القبائل ويفتح طريق الشام فى وجه تجارتها
الواسعة

ولم يكن مايجرى بمكة من استعداد بخاف على الرسول ﷺ فقد كان عمه
العباس يطلعه على التفصيلات ، وكان ذلك شأنه فى معظم الأدوار ومما لاريب فيه ان
ضلع الذين ظلوا فى مكة من الهاشميين كان مع الرسول فكانوا يعطفون عليه وان لم
يدخلوا فى دينه ، يؤيد هذا قوله لاصحابه يوم بدر قبل المعركة « من لقي منكم أحدا من
بنى هاشم فلا يقتله ، ومن لقي العباس بن عبد المطلب فلا يقتله فانما خرج مستكرها »
فرد عليه ابو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وكان من المسلمين الاولين وقد هاجر الى
المدينة واشترك فى بدر قائلا : « أتقتل آباءنا وابناءنا واخواننا وعشيرتنا وتترك العباس ؟
والله لئن لقيته لالجمنه بالسيف ، وقد اسر العباس فى تلك المعركة وقتل فيها ربيعة
والد ابى حذيفة والوليد شقيقه وشيبة عمه

وكتب العباس الى ابن أخيه بما جرى ووصف له الحالة فلما تلقى النبي ارسالة
جمع المسلمين على الفور وأخبرهم بسير قريش لقتالهم وسألهم عما يرونه وكان
من رأيه ان يقيموا مدافعين داخل سور المدينة وقال لهم (دعوهم حيث
نزلوا فان اقاموا اقاموا بشر وان دخلوا علينا قاتلناهم) وايد عبد الله بن أبى
ابن سلول هذا الرأى وقال يارسول الله اقم بالمدينة ولا تخرج اليهم فوالله
ماخرجنا منها الى عدو لنا قط الا اصاب منا ولا دخلها علينا الا اصبنا منه فدعهم يارسول

الله فان اقاموا اقاموا بشر محبس ، وان دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم وان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا وكان المنطق السليم يقضى على جمهور المسامين بالاخذ بهذا الرأى الناضج بيد ان فريقا كبيرا منهم وفي مقدمتهم الشبان وكانوا لا يزالوا نشوى بخمرة انتصار بدر كبر عليه الوقوف وراء الاسوار وألحوا على الرسول بأن يخرج بهم الى القتال فلا يقول الناس ان المسلمين ضعفوا أو جبنوا

ومع انه كان من رأيه عدم الخروج كما قدمنا وهو ما تقضى به مصلحة المسلمين وكانوا لا يزالون اقلية بالنسبة لقريش ويوحى به الفن العسكرى الا انه قرر الخروج اخذا برأى الاكثرية لثلا يتهم بالاستئثار فدخل الى منزله ولبس لامته وتهياً للحرب ثم خرج اليهم يدعوهم الى الخروج فحاول بعضهم التعود وقال له انهم استكروهوا الخروج وانهم يرون البقاء فى المدينة ولقاءهم فيها عملاً برأيه الاول فانكر عليهم ترددهم وقال « ما ينبغي لنبى اذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل » واصر على الخروج لانه رأى أن المصلحة تقضى به وخرج بالقوم وعددهم الف محارب قاصدا جبل أحد وذلك يوم الجمعة ١٤ شوال

جبل امر

وجبل أحد فى شمالى المدينة وبينه وبينها خمس كيلو مترات ، وهو فوق واد يعرف باسمه ، وقد اختاره النبى ﷺ مقراً لجيشه ، مع أنه واقع فى شمالها وقريش قادمة من الجنوب ، لانه أدرك ان تحصن المسلمين فيه يفيدهم فائدة كبيرة من الوجهة العسكرية ، ولا بد لنا من القول ان احتشاد المسلمين فى أحد معناه انهم تخلوا عن المدينة، وما كان تخليهم عنها ذات أهمية من الوجهة العسكرية مادامت قواهم سليمة لم يتطرق اليها الوهن والضعف

السفاه في جيش المسلمين

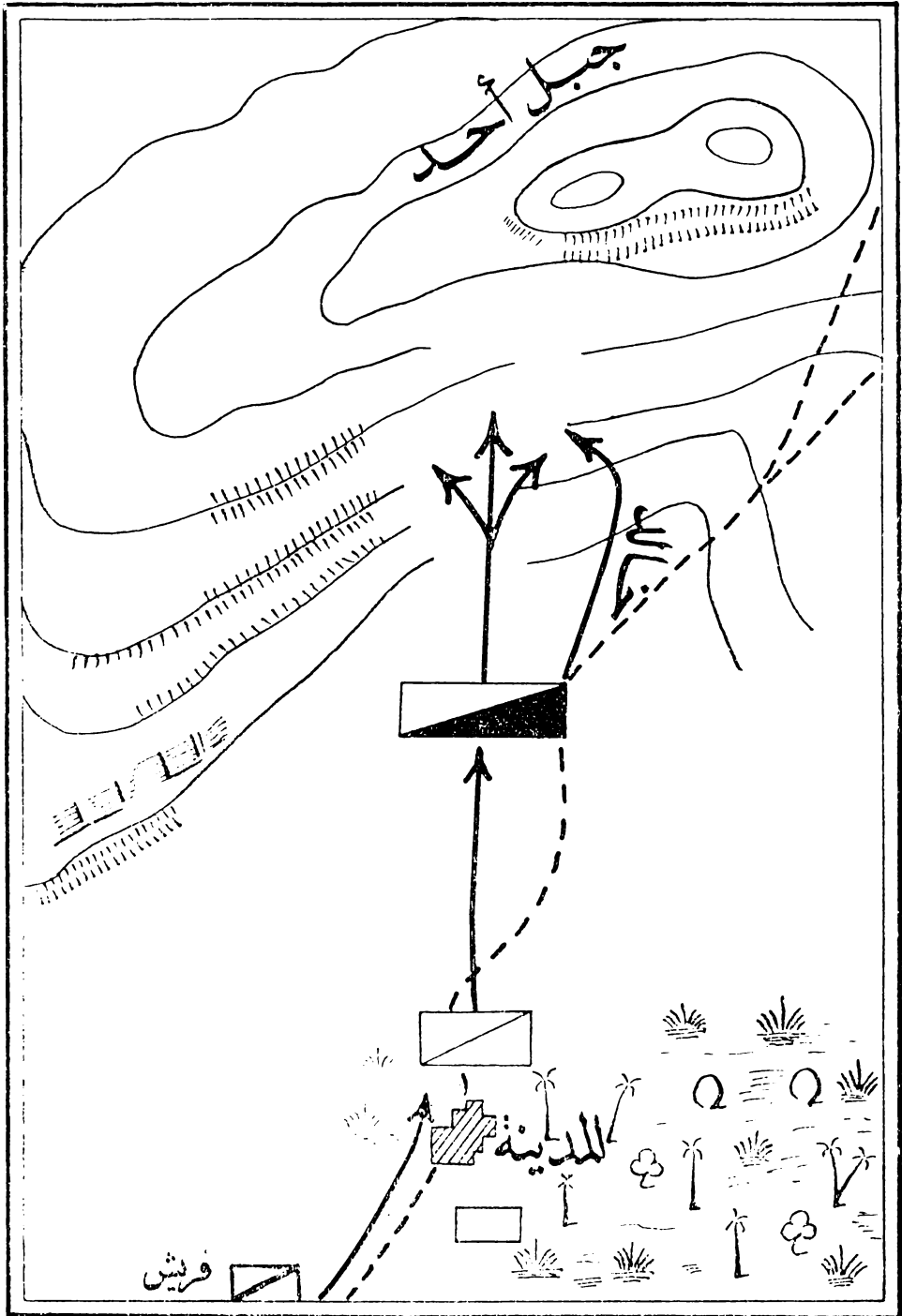
واغتم عبد الله بن أبي - وقد كان يحسد النبي ﷺ كما قدمنا ويود التخلص منه فينفرد بالسيادة على المدينة - فرصة عدم أخذ المسلمين بما أشار به من التحصن وراء الاسوار وخروجهم للقتال ، فغاطب قومه وهم في الشوط على طريق أحد أي بعد خروجهم من المدينة ، وقال لهم « ارجعوا أيها الناس ما ندري علام نقلت انفسنا هنا ، فقد أطاعهم وعصاني » ثم رجع ورجع معه ٣٠٠ من قومه . فلم يؤثر ذلك في نفوس الباقين وواصل النبي ﷺ السير بالذين ظالوا معه وعددهم ٧٠٠ حتى بلغوا احدا فنزلوا فيه

اليهود والدفاع عن المدينة

وعملا بما تقضى به المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود دعا بنى قريظة والنضير الى الاشتراك معهم في الدفاع عن المدينة ، فاعتذروا بأن المعركة تقع في يوم سبت وهم لا يحملون سلاحه ، وقالوا ان المعاهدة نفسها تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيدا عن المدينة ، أي انهم لا يقاتلون الا في داخل الاسوار فقط

وشذ مخيريق من احلاف بنى النضير عن جماعته وقال لهم لا سبت لكم وأخذ سيفه وعدته وتطوع في جيش المسلمين وقال ان أصبت فمالي ل محمد يصنع فيه ماشاء وقاتل حتى قتل ، فقال النبي ﷺ كلمته المشهورة « مخيريق خير اليهود » على ان هنالك من المؤرخين من يزعم أن النبي ﷺ لم يستنصر باليهود ولم يدعهم الى الاشتراك معه في قتال فقد روى ابن هشام ان الانصار سألوه قائلين « ألا نستعين بحلفائنا اليهود؟ فقال لاجابة لنا بهم » ويلاحظ لنا أن الرأي الأول أقرب الى الصحة

غزوة أحد



تعبئة الجيش

عبأ المسلمون جيشهم في عدوة وادى احد جاعلين ظهرهم الى الجبل وذلك قبل وصول قريش واقام النبي ﷺ الرماة وعددهم ٥٠ في الجناح الأيسر على اكمة وأمرهم بأن لا يغادروا مكانهم مهما كان سير القتال ، كما أمر المشاة بأن لا يبدؤوا قريشا بقتال قبل ان تبدأهم

وأقبلت قريش بعد ذلك برجالها وظعنها فزلت بالسنجة تجاه المسلمين ورتبت قواها وقدمت الرماة في الصف الاول ، وجعلت الفرسان وكان عددهم ٢٠٠ على الجناحين وكان خالد بن الوليد يقود الجناح الايمن وعكرمة بن ابى جهل يقود الجناح الايسر ، وقاد صفوان بن امية المشاة وكانت القيادة العليا لابى سفيان ، فكان هنالك اموى وهاشمى يتنازلان ويتقاتلان

وكان عدد النساء في جيش قريش ١٧ امرأة اقمن في الساقة لرد المنهزمين واضرام نار الحماسة في الصدور بأناشيدهن وأقوالهن وقد ادين في تلك المعركة أجل الخدم

المعركة

ودارت المعركة بشدة وصدق المسلمون الحملة على قريش فوق الذعر والاضطراب في صفوفها ، وظلوا يتقدمون حتى وصلوا الى الظعن اى الى الساقة ورجال قريش يفرون من امامهم

وظن رماة المسلمين ان المعركة انتهت ، حين رأوا قريشا تتراجع منهزمة ، واعتقدوا ان كل شىء تم وان النصر تقرر للمسلمين ، فغادروا اماكنهم في الجبل وانحدروا ينادون الغنيمة الغنيمة ، وعبثا حاول قائدهم عبد الله بن جبير صدهم مذكرا اياهم بقول الرسول ، فلم يقفوا ولم يرتدوا وقالوا : « والله لنائين الناس ولنصيين

من الغنيمة فان المشركين قد انهزموا فما مقامنا هنا » ورأى خالد بن الوليد - وكان على جناح قریش الايمن - ان الفرصة سانحة للقيام بعمل حاسم فهجم بخياله ملتفا وراء المسلمين وقاطعا عليهم خطر جمعهم ، فتبدل الموقف فجأة ، ووقع الذعر والاضطراب في صفوفهم ، وزاد في اضطرابهم وشتاتهم نداء منادى قریش بان محمدا قتل مع ان المقتول هو مصعب بن عمير فثبت القرشيون واطمأنوا وزلزل المسلمون ووجدوا

والواقع ان هجوم خالد الفجائي على المسلمين ، أوقع الذعر والاضطراب في صفوفهم ، وفي نفوسهم ، فغادر بعضهم ميدان القتال لاحقا بالمدينة ، وتفرق غيرهم في أماكن أخرى وثبت قسم وهم الأقلون في الميدان وأحاطوا بالرسول ﷺ وقاتلوا دونه وأصابه سهم رماه عتبة بن أبي وقاص فشج وجهه وجرح شفته السفلى وكسر رباغيته (سنه) النبي فسال الدم على وجهه ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه ، وسقط في حفرة فأخذ على بن ابي طالب بيده ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ومص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجهه ، وانزع ابو عبيدة بن الجراح احدى الحلقتين من وجهه فسقطت ثنيته ثم انزع الاخرى فسقطت ثنيته الاخرى

واستبشر المسلمون الذين ظلوا في الميدان واطمأنوا حينما عرفوا حياته ، فهرعوا اليه والتفوا حوله وعددهم ١٤ : سبعة من المهاجرين ومثلهم من الانصار وقام وقاموا معه الى الشعب وكان منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب وطلحة ابن عبيد الله والزيير بن العوام فتحصنوا فيه ، فلحق بهم أبي بن خلف من قریش محاولا قتله ، فتناول النبي حربة الحارث بن الصمة ورماه بها فسقط عن ظهر فرسه مجروحا ومات وهو في طريقه الى مكة

ومثلت قریش بعد انتهاء المعركة ببعض قتلى المسلمين ، فقد طافت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي جئن معها الميدان تجدد آذان القتلى وأنوفهم ، ولما وصلت الى حمزة ابن عبد المطلب بقرت بطنه واخرجت كعبه فلا كتبها فلم تسفها فلفظتها ، واتخذن من آذان القتلى وأنوفهم فلائد عدن بها الى مكة

واشرف ابو سفيان على الجبل في المساء ونادى بأعلى صوته : انعمت فعال ان الحرب سجال يوم احد بيوم بدر . فرد عليه عمر بن الخطاب وقال: لاسواء بيننا قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار فقال له ابو سفيان هلم الى يا عمر فأمره الرسول ﷺ بأن يأتيه فأناه فقال له انشدك الله يا عمر هل قتل محمد فقال اللهم لا ثم انصرف بعد ان واعد المسلمين على اللقاء ببدر في العام المقبل

وقضى الرسول ﷺ ليلية الاحد في أحد وفي الصباح نادى بمن معه بالرحيل لمطاردة العدو فسار بمن معه حتى بلغ حمراء الاسد وتبعد عن المدينة نحو ١٢ كيلومترا جنوبا فأقام فيها أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء ثم عاد الى المدينة واستشهد من المسلمين يوم احد ٧٠ من المهاجرين والانصار وخسرت قريش ٢٣ قتيلا

عوامل قتل المسلمين

معركة احد هي المعركة الثانية التي وقف فيها المسلمون وجها الى وجه امام قريش وكانت نتيجتها انهزمامهم وخسارتهم سبعين قتيلا كانوا في أشد الحاجة اليهم ولا يحتاج الباحث الى كبير عناء ليعلل ماجرى ، ففي الحوادث التي بسطناها ما يغنى عن كل اسباب وتعليق فقد ظهر منها ان المسلمين كانوا مترددين من أول الامر ، فقد الحوا في الخروج حينما ابلغوا ان قريشا سارت اليهم مع ان الرسول دعاهم الى البقاء وراء الاسوار . ثم عادوا بعد ذلك و بعد ماتم الاتفاق على الخروج ، واقترحوا البقاء فأبى الرسول ذلك عليهم لانه ادرك انه لو جازاهم لفقد النظام من جيشه . وزاد الطين بة تخاذل عبد الله بن ابي ورجوعه ومن اطاعه من قومه واحجامهم عن الاشتراك في القتال بحجة انهم لم يصغوا لرأيه . وحاول عبد الله بن عمرو بن حزام الانصاري اقناعه بالرجوع وقال له وان معه « يا قوم اذكركم الله ان لا

تخذلوا قومكم ونيبكم عند ما حضر عدوهم» فأبوا ولما استعصوا عليه قال لهم « ابعدم الله اعداء الله فسينغى الله عنكم »

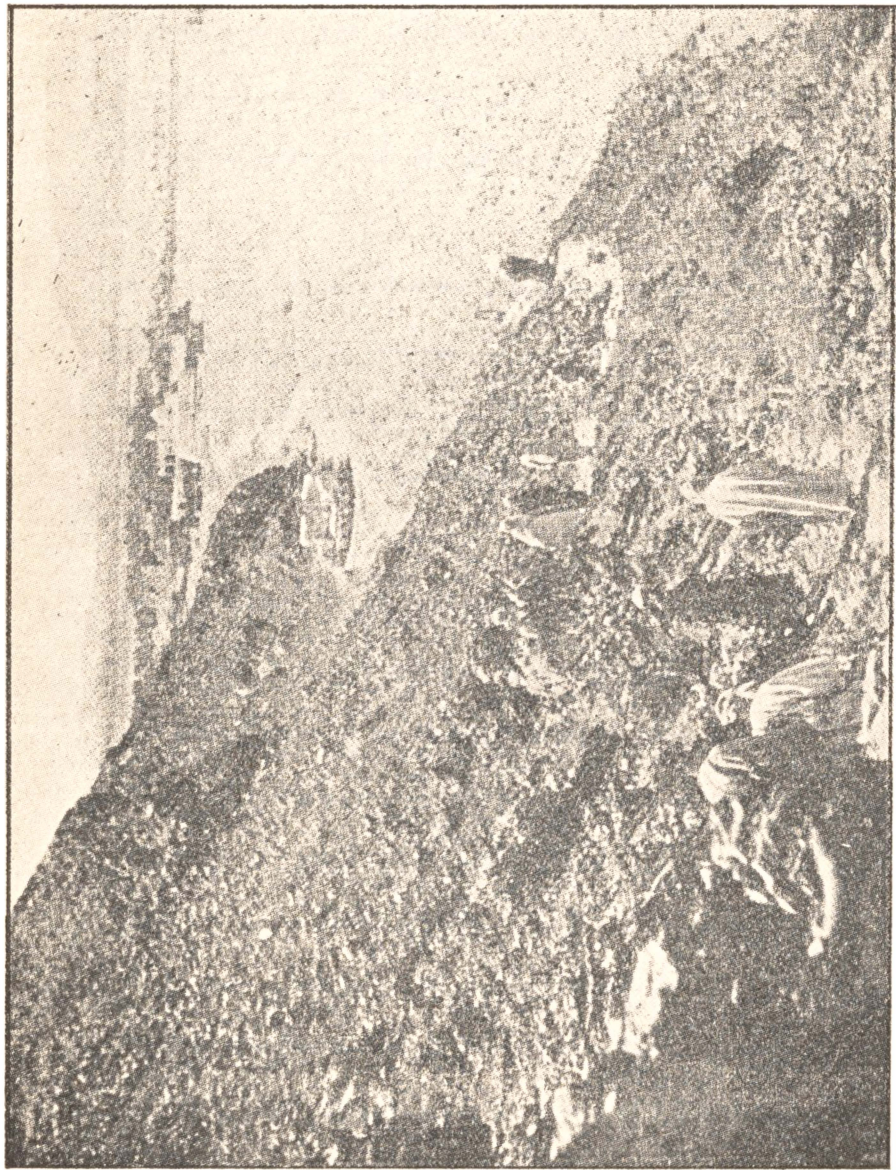
ومع كل ما وقع فقد كانت الغلبة عند الصدمة الاولى للمسلمين ، بيد ان ما اتاه الرماة بتخليهم عن اماكنهم وكانوا يحمون الجناح الايسر مكن خالد بن الوليد من قطع خط رجعتهم واختراق صفوفهم ، ففرقت جموعهم . وتشتت قواهم

تلك هي العوامل المادية التي يلوح للباحث انها عملت في فوز قريش وانهمزام المسلمين ، فخرجهم من المدينة للحرب ، وما كان لهم ان يخرجوا بل كان عليهم ان يقاتلوا وراء اسوارها ، ثم ترددهم في الخروج ثم تخاذل عبد الله بن ابي ثم تخلى الرماة عن اماكنهم ، ان هذه الاعتبارات ضمنت لقريش الانتصار والفوز بعد ماهزمت في اول المعركة وكادت تمزق ايدى سبا . وبين الباحثين من يعتقد ان معظم الفضل في ما نالته قريش من فوز يعود الى خالد بن الوليد قائد جناحها الايمن فقد عرف ان يهتبل الفرصة حينما تخلى الرماة عن اماكنهم فهاجم بقواه المسلمين واخترق صفوفهم فكان النصر على يديه

وقنع قادة قريش بما ادركوه من فوز واقروا ما فعلته نساؤهم من التمثيل بالشهداء وازمعو الرحيل معتقدين ان محمدا واصحابه قتلوا وان امرهم قد انتهى ، ولم يفكروا في دخول المدينة او احتلالها ، وما كانت هناك قوة تصدهم وتقاومهم لو ارادوه

واسقط في يد ابي سفيان في المساء حينما قابله عمر بن الخطاب وابلغه ان محمدا لا يزال على قيد الحياة ، ولم يبعثه ذلك على التوقف واستئناف القتال

ولم يفقد النبي ﷺ شيئا من رباطة جأشه رغم ما حدث ، ولم يشغله جرحه واستهدافه للخطر عن امر المسلمين والمدينة ، فانه لم يكذب يضمده جرحه ويطمئن على اصحابه حتى اوعز الى من حوله ، بان يستطلعوا خبر قريش ويعرفوا الناحية التي سلكتها في رجوعها وقال لهم اذا ركبوا الخيل تكون المدينة وجهتهم اما اذا امتطوا



جبل احد يطل على المدينة

الابل فتكون مكة وجهتهم فالابل اقدر على السفر الشاق البعيد من الخيل . ولما خبروه انهم امتطوا الابل قال لقد عادوا الى مكة

وأدرك ابو سفيان بعد ما قطع مسافات انه اخطأ باسراعه في الرجوع وعرف انه كان يجب عليه أن يجيز على المسلمين و يقضى على قواهم فعاودته فكرة الرجوع وكاد أن ينفذها لولا ما بلغه من حقوق النبي بهم على رأس قوة كبيرة وسعيه لادراكهم ومنازلتهم

و بيان ما وقع أن الرسول رحل بالذين ظلوا معه ، غداة المعركة اى صباح الاحد بعد ما قضاوا الليلة في أحد فساروا وسار على رأسهم لمطاردة قريش من دون ان يدخل المدينة وقد انضم اليهم قبل رحيلهم عدد من الصحابة الذين لجأوا اليها بعد الهزيمة وواصلوا السير حتى بلغوا حمراء الاسد وتبعد ١٢ كيلاوا مترا عن المدينة على طريق مكة أى من ناحية الجنوب

ولقد ادرك بحركته هذه أغراضا شتى فأعاد القوة الادبية الى صدور أصحابه بعد الانهزام الذى اصابهم كما اقام الدليل لاعدائه على انه لا يزال قادرا على الكفاح والنضال وان انكسار أحد لم يفقد عزيمته فارهبهم ومنعهم عن الرجوع الى قتاله وهو ما وقع فعلا . فقد روى ابن هشام أن أبا سفيان ومن معه توقفوا فى الروحاء وقد أجمعوا أمرهم على الرجوع الى المدينة للقضاء على المسلمين فمربهم معبد بن أبى معبد الخزاعى فسأله أبو سفيان عما وراءه فقال له ان محمدا قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقا وقد اجتمع حوله من كان تخلف عنه فى يومكم وندموا على ماضيهم والخنق عليكم شديدا فارتبك أبو سفيان وسأل معبدا عما يراه فنصحه بان يرتحل على الفور فقال لقد اجمعنا على أن نعود اليهم لنستأصلهم فقال له انى أنهاك عن ذلك شفقة عليكم

وانضم صفوان بن أمية وهو من كبارهم الى هذا الرأى وأشار بعدم الرجوع

فامثلوا له ولو اعدوا الكرة على المدينة لكانت النكبة أعظم
وهناك أيضا غرض آخر رمى اليه من زحفه هذا وهو انه اراد اقامة الدليل
لاعدائه ومنافسيه في المدينة وحولها على انه لا يزال قويا قادرا على متابعة الكفاح
والنضال فانه ما كان يجهد انهم سيغتنمون الفرصة ليجددوا حملتهم على الاسلام
وماسكتوا الا مكرهين مضطرين

اجلاء بني النضير

اضطربت الحالة في المدينة بعد أحد وارتفع رأس المعارضة ، وازداد نشاط المشاعبين ، وجهر ابن أبي وشيعته بالتمسك بكونوا يجسرون على الجهر به من قبل ، فسكت المسلمون على مضمض ، وصبروا لاعتقادهم ان حالتهم تلك لا تدوم ، وان الله ابتلاهم ليمتحنهم ويختبرهم ، وانه لا بد من نصرهم وفوزهم في النهاية

بعث عاصم بن ثابت

وزاد في آلامهم ما وقع لبعث الرجيع ، ويسمونه أيضا سرية عاصم بن ثابت ، وبيان ذلك ان بعض بني لحيان من بني هذيل - وتنزل بين مكة والطائف ، والى الأولى أقرب ، ولا تزال حتى الآن في ديرتها - جاءوا عضلا والقارة وهما قبيلتان من بني الهون ابن خزيمه بن مدركة فجعلوا لهم ابلا على ان يطلبوا رسول الله ﷺ فيخرج اليهم نفرا من أصحابه ، فجاء سبعة من هؤلاء الى المدينة فأظهروا الاسلام واقترحوا عليه أن يرسل معهم نفرا من أصحابه يفقهوهم في الدين ويقرئوهم القرآن ويعلموهم شرائع الاسلام فبعث معهم ستة من الصحابة : عاصم بن ثابت الانصاري ومرثد بن أبي مرثد الغنوي وحبيب بن عدى الاوسى البدرى وزيد بن الدثنة وعبد الله بن طارق وخالد بن البكير فغادروا المدينة في شهر صفر من السنة الرابعة قاصدين الى هذيل لتعليمهم ، وفي رواية أخرى انه كانت لهم مهمة أخرى غير تعليم هؤلاء وهي استطلاع اخبار قريش ومعرفة ماتعمله

وأخذ القوم السرية فجأة حينما بلغت ماء الرجيع « ديار هذيل » وأحاطوا

برجالها فهرعوا الى سلاحهم للدفاع عن أنفسهم ، فقالوا لهم لا نريد قتالكم ، فلم يطمئنوا اليهم وقالوا والله لانقبل من مشرك عهدا ، وقاتل عاصم ومرثد وخالد حتى قتلوا واستسلم الثلاثة الآخرون فقيدهم وقصدوا بهم مكة لبيعهم من اهلها وقبل أن يبلغوها تخلص عبد الله بن طارق منهم واتضى سيفه لقتالهم فرموه بالحجارة فقتلوه فلم يبق معهما سوى حبيب وزيد فباعوهما من أهل مكة فقتلوهما وحزن المسلمون كثيرا على المصير السيء الذى صار اليه هؤلاء

بِعْثُ بَرْ مَعُونَةَ

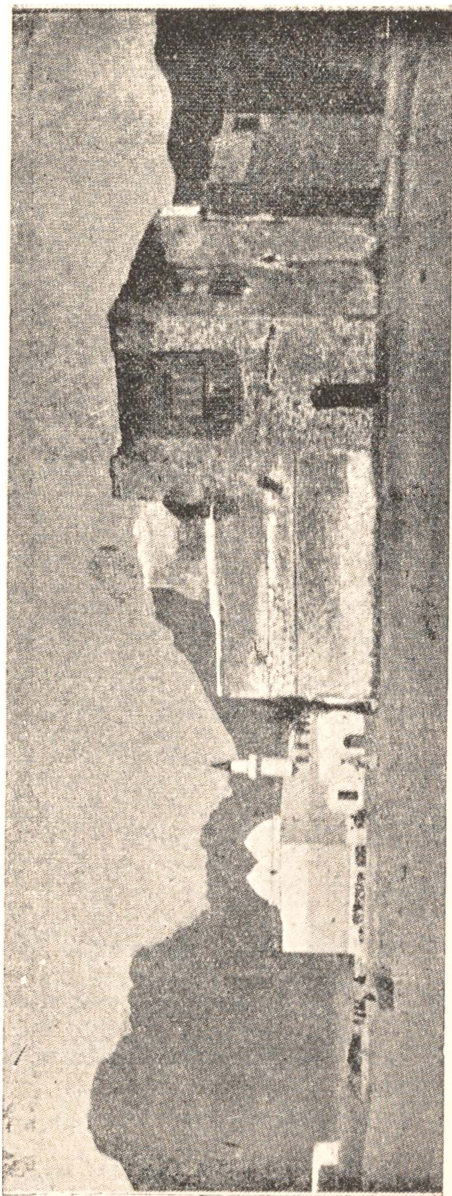
ولم يكذب دمعهم على هؤلاء حتى نكبوا نكبة أشد وأدهى ، فقد وفد على المدينة فى شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة (أى فى نفس الشهر الذى غادر فيه المدينة عاصم بن ثابت) أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامرى ويعرف بملاعب الاسنة ، فعرض عليه النبى ﷺ الاسلام فلم يقبل ولم يرفض وقال له يا محمد انى أرى أمرك هذا حسنا وشريفا وقومى خلقى فلو انك بعثت معى نفرا من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك

- اخشى عليهم اهل نجد

- انا لهم جار

ووثق النبى ﷺ بملاعب الاسنة فاتدب سبعين من قراء القرآن ، وكانوا يحفظونه ويرتلونه فى المسجد، برئاسة المنذر بن عمرو وفساروا الى نجد للتبشير بالدين الاسلامى ونشره

وسار البعث وهو أول بعث يرسله المسلمون للتبشير الى نجد (شرقى المدينة) ولما بلغ بئر معونة (وهى بين أرض بنى عامر وحررة بنى سليم) أرسل رئيسه كتابا الى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابى العامرى (ابن أخى ملاعب الاسنة) حملة حرام بن ملحان اليه ، يدعوه الى الاسلام فقتل الرسول من دون



مسجد احد انشئ احياء لذكري شهداء تلك المعركة

أن ينظر في الكتاب ، ونادى قومه من بنى عامر ليثبوا على البعث فأبوا أن يجاروه
وقالوا لن نخفر لأبي براء عهدا

ولجأ الى بعض القبائل المجاورة من سليم وذكوان ورعل ، بعد ان عجز عن
اقناع قومه بمجاراته ، واستنفرهم لقتال المساميين فنفروا واستبطناً المنذر بن عمرو عودة
رسوله فقصده ومن معه بنى عامر للبحث عنه فلقبهم عامر بمن معه فاشتبك الفريقان
في معركة دامية ، ولم تغن عن المساميين شجاعتهم فقد تكاثر عليهم القوم فقتلواهم ولم
ينج منهم سوى عمرو بن أمية الضمري ، فقد أطلق سراحه عامر بن الطفيل فداء عن
والده بعد ما حزن ناصيته

وقد كان لقتل هؤلاء بعد قتل عاصم ومن معه ومجموعهم ٧٥ شهيدا أسوأ أثر
في نفوس المساميين ويروى ان النبي ﷺ قال حينما نعوأ اليه « هذا سببه عمل أبي براء
حيث أخذهم في جواره ، قد كنت لهذا كارها متخوفا » ومات هذا أسفا وحزنا حينما
بلغه ما فعله قومه بمن أجارهم

انزار بنى النضير بالجلاء في ١٠ ايام

مصائب ثلاث تابعت على المساميين في خلال أربعة أشهر :

١ - الفشل في احد

٢ - مقتل عاصم بن ثابت ومن معه

٣ - مقتل المنذر بن عمرو ومن معه

فأزعجتهم وآلمتهم ولم يخفف وقعها في نفوسهم سوى انتصارهم في بنى النضير
و بين الرواة اختلاف في ذكر الاسباب التي بعثت المساميين على مهاجمة بنى
النضير واجلائهم والذي عليه الاكثرون أن النبي ﷺ قصد بنى النضير ، في شهر ربيع
الاول أى في الشهر التالى لحادثتي الرجيع وبئر معونة ، ومعه نفر من الصحابة والمهاجرين
ليطلب منهم الاشتراك مع جيرانهم المساميين في دفع دية رجلين من بنى عامر ، قتلها
عمرو بن أمية الضمري ، وهو الذى نجا من يد بنى عامر ، فقد التقى بهما في

القرقرة على الطريق وهو عائد الى المدينة فقتلها ثأرا لنفسه ولاصحابه ، ولما ابلغ النبي ذلك قرر دفع ديتهما ، لانهما كانا عنده وقد اخذ منهما عهدا لم يطلع عليه عمرو ، ولما كانت القاعدة المتبعة عند العرب ، في مال الدية أن تشترك قبيلة القاتل واحلافها اذا كان لها احلاف ، في الدفع كل بنسبته ، وتوزع ايضا على قبيلة المقتول واحلافها اذا كان لها احلاف بنسبة معينة ، ولما كان بنو النضير ، مرتبطين مع المسلمين برابطة التحالف ، فقد قصدهم النبي ﷺ مقترحا عليهم أن يشتركوا مع المسلمين في دفع دية القتيلين لانها كانا مواليين لهم فلا يجوز أن تذهب دماؤهما هدرًا

ووافق اليهود مبدئيا على الدفع والاشترك وقالوا له « نفعل يا ابا القاسم ما أحببت » وعلا عمر بن جحاش - احد رجالهم كما يقول ابن هشام - سطح الجدار الذى جلس الى جانبه النبي ليرميه بصخرة تطحنه طحنا ، والظاهر انه لحظ منهم العذر وادرك ماينوونه فقام مسرعا وتظاهرا انه يريد قضاء حاجة وتوجه الى المدينة لفوره من دون أن يبدي أو يعيد، وارسل في الغداة محمد بن مسامة ينذرهم بالجلاء فى خلال ١٠ ايام ويقول لهم انه يضرب عنق كل من يراه منهم بعد انتهاء المدة المضروبة وانهم وقد هموا بغدره فلا يساكنهم، ومعنى ذلك ان النبي ﷺ لم ينذرهم بالجلاء لانهم لم يشتركوا فى دفع الدية بل أنذرهم لانهم حاولوا اعتنام فرصة زيارته لهم فاتمروا به وقرروا اغتيابه والتخلص منه وقال بعضهم لبعض انها فرصة لا يجود الزمان بمثلها فلنقتنمها لقتله فلا يطالبنا به احد فنكون قد انتقمنا لرجالنا

ويطعن بعض المستشرقين والباحثين من اليهود فى هذه الرواية لتفرد ابن هشام بإيرادها ويقولون انها لو كانت صحيحة لوردت فى كتب السير الاخرى ، وليس فيها فى نظرنا ما يريب أو يعد فى حكم المستحيل

اليهود يرفضون الانذار

ومع ان اليهود مالوا في أول الامر الى التسليم والجلء ، الا أن الدسائس التي دست ، والوعود التي بذلت ، جعلتهم يرفضون قبول الانذار ويرسلون الى النبي بلسان كبيرهم حيي بن اخطب قائلين « انا لانخرج من ديارنا فاصنع ما بذاك لك »
ويقول رواة السيرة ان ابن ابي ارسل اليهم سرا يشجعهم على المقاومة و يغريهم بالرفض ويقول لهم « لانخرجوا من دياركم واقيموا في حصنكم فان ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان »

نعم : هذا ما يقول الرواة ان ابن ابي وعد بنى النصير بتحقيقه وهو معقول كما يبدو لنا لان القوى التي عددها وقال انها مستعدة لتأييدهم ، كانت في نضال مع المسلمين وهي :

١ - قوة غطفان وقد سبق للمسلمين أن غزوه في عقر دارهم

٢ - قوة بنى قريظة جيرانهم واخوانهم وقد كان مرتقبا أن تمدهم وتشارك في

الدفاع عنهم

٣ - انصار بن ابي وقد اثبتت حوادث احد ان له انصارا في المدينة يقولون بقوله

ويتبعون رأيه ، ولولا ذلك لما رجعوا معه من الشوط وعددهم ٣٠٠ كما قدمنا

المسلمون يحاصرون بنى النصير

ولما أبلغ النبي خبر رفض اليهود لانذاره سار بالمسلمين اليهم وهم على خمسة كيلو مترات من المدينة الى الشمال ، فلما رأوه مقبلا قاموا الى حصونهم ومعهم النبل والحجارة ف ضرب المسلمون نطاقا حولهم

ولم يحقق ابن ابي وعده لليهود ؛ ولم يحرك ساكنا لنصرتهم ، وقعد بنو قريظة أيضا عن مساعدتهم وهم اخوانهم وجيرانهم ، ولا ريب ان قعودهم مستغرب وقد

بحثنا في شتى المصادر اليهودية والاوربية علنا نجد تعليلا معقولا لهذا التخاذل الذي بدأ بين اليهود فلم نعر على شيء ، ولئن اغتفرنا لبني النضير وبنى قريظة قعودهم عن نصره بنى قينقاع بقولنا انهم كانوا يرجون ان تحل المسألة صلحا على يد حلفائهم من الاوس او انهم ما كانوا يتوقعون أن يؤول الامر الى اجلائهم واخراجهم من ديارهم فمثل هذا التعليل غير مقبول بالنسبة لبني قريظة لأنهم عرفوا بالاختبار أن تغلب المسامين مؤذن بجلائهم

ووقع في بنى النضير ما وقع في بنى قينقاع فلم يشهر حسام ولم يطلق سهم بل اكتفى المسامون بالحصار يضربونه واكتفى اليهود بالاقامة وراء أسوارهم يرقبون سير الحوادث ، ويرجون أن ينهض الذين وعدوهم بالمساعدة للدفاع عنهم ونصرتهم . ولما طال المطال عمد المسامون الى قطع نخيلهم نكايه بهم وحملهم على التسليم ، والنخيل عزيز عندهم ، فنادوا بهم من وراء الاسوار ، لاتفعلوا فقد قبلنا شروطكم ونحن مستعدون للخروج اى انهم قبلوا الانذار وكان يتضمن طلب الجلاء وحده كما تقدم

وكان قبولهم له في اليوم الخامس عشر للحصار وهى المدة التى حوصر بها بنو قينقاع

ورد عليهم المسلمون بالرفض وقالوا انما اقترحنا ما اقترحناه قبل الحصار ودارت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالوصول الى اتفاق على القواعد الآتية :

١ - جلاء بنى النضير عن منازلهم وارضيتهم

٢ - تصان دماؤهم وارواحهم

٣ - يحق لهم ان يأخذوا متاعهم

٤ - يسامون سلاحهم للمسامين

تلك هى الشروط التى اتفق عليها وقد نفذت بتامها ، فغادر وا منازلهم حاملين ما استقلت به الابل فقصد بعضهم الشام ونزل الآخرون خيبر ، وبلغ عدد الجمال التى

حملوا عليها امتعتهم ٦٠٠ حمل

وهذه قائمة الغنائم التي غنمها المسلمون منهم :

٥٠ درعا

٥٠ خوذة

٣٤٠ سيفا

وغنموا أيضا كميات من الشعير والتمر مع خيل واموال ادخر النبي بعضها وقسم بعضها بين المهاجرين ، دون الانصار ، ليرفع مؤوتهم عن هؤلاء فقد روى المؤرخون انه قال لهم : خلوا الاموال لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء

ولا ريب ان فوز المسلمين في اجلاء بنى النضير على المنوال الذي اجلوهم به ، واستيلاءهم على منازلهم وممتلكاتهم واسلحتهم ، ومعداتهم ، عوضهم بعض العوض عما فقدوه في الحوادث الثلاث الماضية، ورفع مستوى القوة الادبية في صفوفهم، واطفقت قوة المعارضة في المدينة ، اذا لم نقل انه قضى عليها ، فقلت المشاغبات ، وخفتت الاصوات ، وعاد الى المسلمين نفوذهم القديم

العودة الى نجد

كر المسلمون كرتين على نجد منذ بدأوا أعمالهم العسكرية في المدينة لاختراع القبائل النازلة حولها

الاولى - في شهر شوال للسنة الثانية من الهجرة (بعد بدر) فقصدوا بنى سليم ، وهي أقرب قبائل الشرق اليها فعادوا ولم يلقوا كيدا
الثانية - في اواخر ذى الحجة من تلك السنة (قبل احد) فقد خرج الرسول يقود ٤٥٠ من أصحابه و يطلب بنى ثعلبة ومحارب من غطفان ، لانهم تجمعوا لقتاله ، و بعد ماقضى شهرين في ديارهم عاد من دون ان يشتبك في حرب معهم لانهم تفرقوا عند ما علموا بقرب وصوله

و يعود المسلمون الآن الى نجد للمرة الثالثة ، ونعيدهنا ماقلناه قبلا وهم انهم كانوا يرومون من معاودتها بين آونة واخرى - وان لم يشتبكوا في حرب - بسط نفوذهم على تلك المقاطعة الواسعة ، وكانت تلتزم الحياد في النضال الدائر بين مكة والمدينة ، لتنضم الى الفريق الغالب في النهاية ، فاذا فاز المسلمون قصدهم رجالها وزعمائها ودخلوا في الدين الجديد ، واندمجوا في الجماعة الجديدة ، واذا فازت قريش فالامر منته لانهم ما كانوا على خلاف معها ، وكانوا يقصدون مكة في المواسم يبيعون ويشترون فصلاتهم بها كانت على مايرام

و غادر المسلمون المدينة في شهر جمادى الأولى من السنة الرابعة اى بعد جلاء بنى النضير ، بشهرين تقريبا ، قاصدين غطفان على اثر ما بلغهم وهو ان بنى محارب و بنى ثعلبة - وهم الذين خرجوا يطلبونهم في الغزوة الثانية (غزوة ذي امر) - عادوا الى

التجمع لمهاجمة المدينة ، وواصلوا تقدمهم وعددهم ٤٠٠ حتى وصلوا الى وادى الشقرة (قرب اراضى غطفان) فنزلوا فيه ثم بثوا الطلائع للكشف ومعرفة حال العدو فعادت في المساء تقول انها لم تعر على خبر لهم

وواصل المسلمون تقدمهم فدخلوا منازل غطفان فلم يجدوا سوى النساء فأخذوها ، وكبر على هؤلاء ان تؤسر نساؤهم فجمعوا جموعهم واقبلوا على القتال. وتضاف الفريقان وكادت الحرب تنشب بينهما

ولم يذكر الرواة شيئا عن مصير نساء الفوم المأسورات ولم يوردوا شيئا يصح ان يعلل به عدم وقوع قتال ، مع انهم تصافوا ومع أن المسلمون صلبوا صلاة الخوف في يومهم ذلك ، ويلاحظ لنا ان المسألة سويت صلحا فاعاد المسلمون الى القوم النساء وعادوا الى عاصمتهم من دون قتال ، فغير معقول ان يصبر الغطفانيون على سبي نساءهم و يتركوهن يذهبن من ايديهم من دون ان يشهروا سيفا للدفاع عنهم

ولم يعد المسلمون الى العمل في نجد بعد هذه الغزوة الا في السنة السادسة للهجرة أى بعد انقضاء ستين على هذا الحادث . ولم تخضع نجد لهم وتدخل في دينهم الا بعد فتح مكة

الخدق وقريظة

كر المسلمون كرتين في المنطقة الجنوبية خلال المدة المنقضية بين غزوة غطفان
ومعركة الخندق

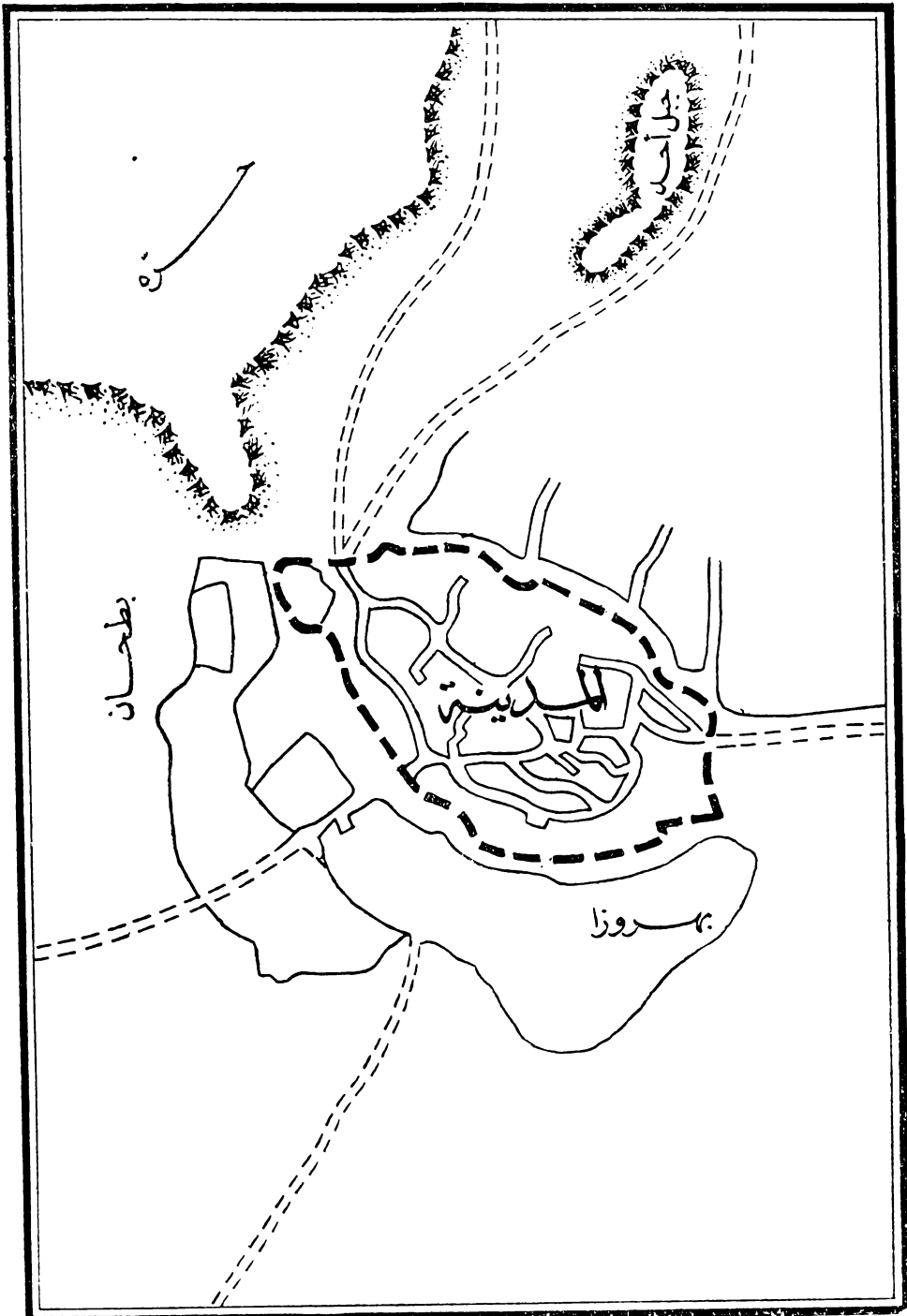
فقد خرجوا في شهر شعبان للسنة الرابعة وعددهم الف وخمسة مائة مقاتل معهم
٥٠ فرسا الى بدر ، للقاء أبي سفيان وكان واعد المسلمين اللقاء فيها حين انتهاء معركة
أحد (انظر ص ٨٣)

وأقام المسلمون في بدر ثمانية أيام ينتظرون وفود قريش فلم تفد ، ويقول
المؤرخون انها تجهزت في الفين وخمسمائة مقاتل وغادرت مكة حتى بلغت مكانا قريبا
من مر الظهران (وهي على ٣٠ كيلو مترا من مكة الى شمالها الشرقي على طريق
المدينة) فخطبها أبو سفيان قائلا :

«يامعشر قريش : انه لا يصلحكم الا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون
فيه اللبن وان عامكم هذا عام جذب وانى راجع فارجعوا » فرجعت الى مكة ولم تذهب
الى بدر للقاء من ينتظرها ، وهزأ اهل مكة بالعائدين وسموهم جيش السويق وقالوا
لهم انما خرجتم تشربون السويق

ووصلت أخبار الى المدينة في شهر شعبان من السنة الخامسة بان الحارث بن أبي
ضرار الخزاعي من خزاعة جمع الجموح لمحاربة المسلمين فخرج النبي ﷺ للقاءهم على
رأس قوة كبيرة من المشاة منها ٣٠ فارسا ، وواصل التقدم حتى بلغ المريسيق وهو ماء
لبنى خزاعة من ناحية قديد ساحل البحر الاحمر ، فلقى بني المصطلق وهم من خزاعة

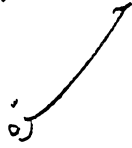
للخندق



بطمان

المدينة

روزا



فدارت معركة بين القرينين انتصر فيها المسلمون وقتلوا عشرة من الخزاعين وأسروا باقي رجالهم ويقال انهم كانوا لا يقلون عن ٧٠٠ وسبوا النساء وأخذوا الذرية وساقوا النعم والشاه

وتزوج النبي ﷺ بجويرية بنت الحارث بن ابي ضرار سيد بني المصطلق وكانت في السبي فأطلق المسلمون ما كان في أيديهم من الاسرى وقالوا « اصهار رسول الله ﷺ » وأسلم أبوها وأكثر قومها وأصبحوا من أنصار الاسلام بعد ما كانوا من خصومه

ففوز المسلمين في غزوة بني المصطلق وظهورهم بما ظهروا به من القوة حينما قصدوا بدرًا للمقاء قريش ، ويسمون هذه الغزوة بدر الثالثة ، فقد جاءوها بالف وخساية مقاتل معهم ٥٠ فرسا في حين انهم يوم بدر الثانية لم يزيدوا على ثلاثمائة وبضعة عشر مقاتلا - وانتصارهم على بني النضير ، وخرجهم الى نجد ، ان هذا النشاط العظيم زاد في حقد خصومهم ، وحرك أحقادهم ، فاتصلوا وتكاتبوا والقوا بين العناصر التي عرفت بعدائها للمسلمين ، وأنشأوا بينها اتحادا وثيقا حمل على المدينة بعشرة آلاف مقاتل ، لاحتلالها والقضاء على الحركة الجديدة في ربوعها

عناصر الاتحاد الجدير

كان لزعماء اليهود من بني النضير الذين أخرجوا من ديارهم ولجأوا الى خيبر يد كبيرة في انشاء هذا الاتحاد أو الحلف بين قبائل الحجاز وجماعته ، فقد قصد نفر منهم - وفي مقدمتهم سلام بن أبي الحقيق وحي بن اخطب وكنانة بن الربيع - مكة فاتصلوا بزعمائها وكبارها وقالوا لهم انا سنكون معكم يدا واحدة في قتال المسلمين . ويروى انهم قالوا لهم ايضا ان دينكم خير دينه وأتم أولى بالحق منه ، وما كانوا يجهلون بان دين الاسلام التوحيد ودين قريش الوثنية

وقصد زعماء اليهود ايضا ديار غطفان ، خصوم المسلمين بعد ما اتوا مهمتهم في مكة ، فدعوههم الى مخالفة قريش وقالوا لهم انها أجمعت أمرها على استئصال

المسلمين ، وان اليهود على وفاق معها ، وانه يجدر بهم الانضمام الى التحالف الجديد ولم يزلوا بهم حتى انضموا اليهم
وعكف ابو سفيان على انشاء جيش قوى يهاجم به المدينة ويريح قريشا من منافسيها ، فاستعان بالاحلاف والانصار من القبائل المجاورة لمكة ، وهكذا تسنى له حشد عشرة آلاف مقاتل قصد بها المدينة في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة ، ونظن ان هذا أكبر جيش عرفه الحجاز حتى ذلك العهد

قوات ميثى الروم

وتتألف عناصر الجيش الجديد أو جيش الاحلاف أو الاحزاب كما سماهم القرآن كما يأتي :

- ١ - قريش مع احايشها
 - ٢ - كنانة وقبائل تهامة الموالية لقريش
 - ٣ - غطفان
 - ٤ - بنو مرة من خزاعة في شمالي الحجاز
 - ٥ - أشجع وهم من القبائل النازلة بين مكة والمدينة
 - ٦ - بنو قريظة وقد انضموا اليهم بعد وصولهم الى المدينة
- تلك هي القبائل التي اجتمعت لقتال المسلمين من الجنوب والشرق والشمال وسارت اليهم بعشرة آلاف مقاتل ، ولا يدخل في هذا الرقم المقاتلون من بنى قريظة فقد انضموا اليهم بعد وصولهم ، ومعنى ذلك ان مجموع عددهم ما كان يقل عن ١١ الف مقاتل

ندابير المسلمين وقواتهم

وتلقى ولاة الامور في المدينة تفاصيل ما جرى في مكة وأحاطوا خبرا بما بذله

رعماء اليهود من اليهود لتحزيب الاحزاب ، واطلعوا على عدد القوى التي تتأهب للزحف عليهم

واستشار النبي ﷺ أصحابه فيما يفعل ، وسألهم هل يخرج للقاء القادمين في خارج المدينة ، أم يلقاهم في داخلها فاتفقوا على الاخذ بالشق الثاني وبدأوا بافراغ المدينة وجعلها في حالة دفاع وارسالوا النساء والاطفال الى الاطم البعيدة في الضواحي ليكونوا في مأمن من العدو اذا استباح الحمي

واقترح سامان الفارسي على النبي ﷺ ان يحفر خندقا حول المدينة يمنع الاعداء من اقتحامها وقال له ان من عادتنا في فارس ان نحفر هذه الخنادق حول المدن للدفاع عنها في زمن الغارات فأعجب بهذا الرأي واخذه به بلا تردد ، ولئن لم يكن الخندق معروفا في جزيرة العرب حتى يومئذ ، ولئن لم يكن رآه من قبل ، الا انه ادرك بثاقب نظره واصالة رأيه ان حفره قد يفيد في حالة كحالتهم فأرسل فنادى في المسلمين يدعوهم الى التطوع لحفر الخندق

وكان هو في مقدمة العاملين وقد اجمع الرواة على انه كان ينقل التراب على ظهره بالزنبيل وكان يردد أثناء النقل البيت الآتي :

اللهم ان العيش عيش الآخرة فاعفر للانصار والمهاجرة
فيجيبه العاملون معه من المسلمين :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا ابدا

وأشدد أيضا في اثناء عمله الأبيات الآتية وهي لابن رواحة شاعر الانصار :

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فانزلن سكينتنا علينا وثبت الاقدام ان لاقينا
ان الالى لقد بغوا علينا اذا أرادوا فتنة ابينا

وكان يرفع صوته بالشطر الاخير قائلا : ابينا . ابينا

واتم المسلمون حفر الخندق في خلال بضعة عشر يوما قضوها في عمل متواصل

كما آتموا حشد قواهم وبلغت ثلاثة آلاف مقاتل في هذه المرة ، واستعدوا للقاء عدوهم .

و وصل بعد ذلك جيش قريش وتقدم من دون مقاومة - لأن المسلمين كانوا وراء خندقهم - وتسمى هذه الحرب باسمه - حتى الخندق

فنزّل في مجتمع الاسيال من دومة بين الجرف والغابة . أما المسلمون فاحتشدوا دون الخندق وجعلوا ظهرهم الى جبل سلع ويبعد عن المدينة نحو كيلو مترين الى الشمال ، مقابل جبل احد ، وقد صمموا على النضال حتى النفس الاخير

وكان الرماة منهم على آتم استعداد للقتال في هذه المرة كما كان فرسانهم يطوفون حول الخندق من الداخل ليل نهار لمنع العدو من اقتحامه

ودهش رجال قريش وحلفاؤهم حينما رأوا الخندق - وما كانوا يعرفونه من قبل ولا خطر لهم ببال ان المسلمين يفاجئونهم بهذه المفاجأة الغريبة - فوجوا وتشاوروا فيما يفعلونه فاستقر قرارهم على النزول فزلوا وضربوا خيامهم

مقابلة بين القوتين

ولا يخفى ان حالة المسلمين كانت تختلف اختلافا كبيرا عن حالة قريش فقد كانوا يقيمون في منازلهم ، وعلى مقربة من أهلهم ، وعندهم ما يحتاجون اليه من قوت ومعدات وقد وطدوا انفسهم على الصبر والثبات والنضال الى ماشاء الله . اما قريش واحلافها فما كانوا يظنون ان المسألة تكلفهم أكثر من أيام معدودات ، كما حدث يوم احد ، يصلون في خلالها الى المدينة فيضربون ضربتهم الكبرى وينهبون اموال المسلمين وحلالهم ويغنمون كل ما يملكونه ثم يقتسمونه فيرجع كل قبيل الى قبيلته غانما سالما ، و بديهى انهم لم يفكروا في ادخار ما يميز هذا الجيش اللجب وليس من السهل تموينه ولا تقديم حاجياته اليومية من مأكل ومشرب وعلف ولوازم اخرى في بلاد قاحلة تكاد تكون خالية من كل شيء حتى من الماء ، ولذلك لقي قاده عناء كبيرا في تثبيت رجلاهم وفي تدارك القوت لهم ، يضاف الى هذا ان العربي لم يألف

الوقوف امام الاسوار ومحاصرتها ، وليست الحرب في نظره سوى وسيلة من وسائل الكسب والربح ، فاذا خاضها فانما يخوضها لهذه الغاية في الغالب لا ليموت ولذلك فهو لا يجازف بحياته وقد تتج عن هذا ان قل عدد الذين يقتلون في الحروب منهم

على ان حالة المسلمين كانت تختلف عن حالة غيرهم ، فقد نفخ الاسلام فيهم روحا جديدة فاخذوا يتسابقون الى الموت ابتغاء الحصول على رضوان الله واكتساب مرتبة الشهادة للتمتع بما اعد للشهداء من مقام رفيع وثواب عظيم في الدار الآخرة . وهذا الاعتبار هو في مقدمة الاعتبارات التي ضمنت للمسلمين النصر والتفوق على اعدائهم وخصومهم فقد كانوا يحاربون في سبيل غايتين الاولى : تأييد الدين ونصرته وتعزيز كلمة الاسلام ، واجرهم على ذلك اجر المجاهدين والثانية : الحصول على مرتبة الشهادة وتلك اقصى ما يصبو اليه المسلم ، في حين أن اعداءهم ما كانوا يحاربون في سبيل غايه معينة معروفة ، ولهذا ما كانوا يثبتون أمامهم حين اللقاء رغم تفوقهم في العدد والعدد في معظم الاحيان ، يضاف هذا الى تفكك الروابط الاجتماعية بين هؤلاء واختلاف كلتهم وتعدد زعمائهم في حين أن كلمة المسلمين موحدة ومثل ذلك قيادتهم ، وجيش مثل هذا الجيش له وحدة القيادة والغاية والنظام لا بد من تغلبه واتصاره على تلك الشراذم المتفرقة المتفككة

وأدرك قادة الجيش الاسلامي ان مطاولة الاحلاف وعدم الاشتباك معها في معركة حاسمة يضعفها ويزيد في مشاكلها وارباكها فاجتمعوا عن منازلها واكتفوا بالمرابطة وراء خندقهم والمحافظة عليه ومنع قریش من تخطيه او تجاوزه . وانقضى الاسبوع الاول والحالة كما وصفنا ، والجيشان واقفان امام بعضهما بعضا يتبادلان الشتائم في بعض الاحيان تكييها قریش للمسلمين وتعيرهم بالوقوف وراء خندقهم وتدعوهم لتخطيه

وادرك هؤلاء ان امتداد زمن الحصار يضعفهم ويلقى الاضطراب في صفوفهم ويكاد يقل جموعهم ، لأن الذين جاءوا معهم من الاحلاف والانصار لم يأتوا للوقوف وراء الاسوار ، وانما جاءوا للسلب والنهب ، فعولوا على القيام بعمل حاسم فاقتحم بعض

فرسانهم ، وفي مقدمتهم عكرمة بن ابى جهل وعمرو بن عبدود ونوفل بن عم خديجة بنت خويلد مكانا ضيقا من الخندق وهاجموا المسلمين املا بأن يجروهم الى القتال فلقبهم على بن ابى طالب مع بعض اخوانه وصمدوا لهم فقتل الثانى وهزم الاول وسقط الثالث فى الخندق وهو منهزم فمات

استراك بنى قريظة فى القتال

ولم يكد جيش الاحزاب يحط رحاله حول المدينة ، حتى ذهب حبي بن اخطب الى بنى قريظة ، وكانوا قد أغلقوا حصنهم ، وأعلنوا حيادهم ، فطرق الباب فأبوا أن يفتحوه فألح ففتح له فاجتمع الى سيدهم كعب بن أسد ، فخاطبه عاملا على استمالته الى جانب الاحزاب واشراكه فى الحرب التى أوقدوها لاستئصال المسلمين والاتقام لليهود ، فتردد فى قبول الاقتراح وقال لصاحبه انه عاهد محمدا ﷺ على الوفاء والصدق وليس هنا لك ما يستوجب نقض العهد ، فقال انها فرصة لايجود الزمان بمثلها ، فقد جاءت قريش وغطفان وكنانة ومرة وغيرها ببحر زاخر من الرجال ، وماهى الأيام حتى يتلاشى أمر المسلمين ويقضى عليهم ، فاشترك معنا فى العمل ، وفز بهذا الفخر ، ولم يزل به حتى أقنعه بالانضمام الى الاحلاف فأعلن نقضه للعهد والتحايقه بقريش فثبت ذلك الاحزاب وبث فيها روحا جديدة ، وأطال مدة الحصار على المسلمين

وشاع فى المدينة خبر نقض قريظة للعهد وانضمامها الى الاحلاف فانتدب النبي ﷺ وفدا قوامه سعد بن معاذ (سيد الاوس) وسعد بن عباد (سيد الخزرج) وعبد الله بن رواحة شاعر الانصار وخوات بن جبير بن عمرو بن عوف ، لاستطلاع خبرها ، وموافاته بالصحيح من أمرها ، وقال لهم قبل رحيلهم : « اذا رأيتم ان مابلغنا عن انضمامها الى الاحزاب صحيفا فالحنوا لى لحنا أعرفه (وذكره لهم) ولا تنفخوا ذلك بين الناس لتلايفت فى أعضادهم ، وان كان الأمر بالعكس وكانوا على الوفاء فافشوا ذلك واجهروا به »

وأبلغ كعب بن أسد، الوفد حينما قابله نبأ نقضه العهد وانضمامه الى الخصم، وقد لا يبعد أن يكون عمل على اقناعه بالعدول عن هذه الحطة فأبى فعاد من دون أن ينال منالا، وشاع ذلك بين المسلمين فأثر في نفوسهم وأزعجهم، ولم تك حالتهم الداخلية على مايرام، فقد كان هنالك ابن أبي ومن معه يثبطون الهمم ويثبون الدعوة للقعود عن القتال والتخاذل قائلين انه لا قبل لأهل المدينة بمقاومة عربان الحجاز وقد اتفقت على قتالهم وأجمعت على استئصالهم

التذرع بالاساليب السياسية

ورأى الرسول ﷺ ان أفضل مايعمل في مثل تلك الحالة هو التذرع بالوسائل السياسية لتفريق كلمة الاحزاب وازعاجهم وذلك بعقد صلح منفرد مع غطفان يحملها على التخلي عن قريش واتصل سرا بواسطة عاصم بن عمر بن قتادة بعبيدة بن حصن ابن حذيفة وبالخارث بن عوف وهما قائدا غطفان وعقد معهما مبدئيا صلحا منفردا اشترط فيه أن يرحلا برجالهما عن المدينة مقابل ثلث محصول ثمرها من التمر ولما وصلت المفاوضات السرية الى هذه المرحلة ولم يبق سوى التوقيع على العقد دعا رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عباد (زعيمى الاوس والخزرج) وأطلعهما على خبر المفاوضات الدائرة بينه وبين غطفان وعلى ماتم الاتفاق عليه وسألها رأيهما وهل يوافقان على الاتفاق فيعقده؟ أم يعارضان فيه فيرفضه؟ فقالا له:

.. هل هو من عندك تحبه فتصنعه أم هو من عند الله أمرك به ففعلته

.. هو من عندى وقد رأيت أن أفعله لكم لانتى رأيت ان العرب قد اجتمعت عليكم ورمتكم عن قوس واحدة فأردت أن اكسر شيئا من شوكتهم بعقده

فقال سعد بن معاذ كنا ونحن هؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الاوثان لانعبد الله ولا نعرفه ولا يطعمون منا بشمرة الاقرى أو يبعأ أفحين اكرمنا الله بالاسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيم أموالنا والله مالنا بهذا حاجة، والله لانعطيهم الا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، وهكذا فشل المشروع وقضى عليه

وجاء نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان الى رسول الله ﷺ وقال له :

— انى قد أسامت وان قومي لم يعاموا باسلامى فمرنى بما شئت

— انما أنت فينا رجل واحد نؤذل عنا ان استطعت فلن الحرب خدعة

وقصد نعيم بنى قريظة وكان يعرفهم ويعرفونه وكان نديما لهم وألقى عليهم
شباكه والظاهر انه كان ذكيا ألعيا يعرف من أين تؤكل الكتف - فاجتمع الى
ساداتهم وكبارهم وقال لهم: لقد عرفتم صداقتى لكم وحبي اياكم وعرفتم اننى أغار على
مصلحتكم وانشد الخير لكم قالوا ما أنت بمتهم عندنا

قال والرأى عندى أن لا توغلوا فى قتال المسامين ولا تسرفوا فى معاداتهم قبل أن
تنالوا رهائن من أشراف قريش وغطفان يبقون فى أيديكم لانكم لاتأمنون أن ينسحبوا
غدا ولا أرض ولا مال لهم هنا بعكس حالكم، فأتتم من أهل البلاد وعندكم المال والمتاجر
والمزارع فتبقون وحدكم فيفتك بكم المسامون وتذهبون ضحية انضمامكم الى حلفاء
شأنهم غير شأنكم

فأثرت مقالته فى نفوس القرظيين وقالوا له سنفعل ما أشرت به ونطلب

الرهائن قريبا

وانطلق الغطفانى حينما وثق من نجاح مشروعه، فلقى أباسفيان ومعه
وجود قريش وقال لهم عرضا فى أثناء الحديث انه اتصل به من ثقة ان بنى قريظة ندموا
على انضمامهم الى الاحزاب وقيامهم على محمد وانهم ارسلوا اليه نقرأ من قومهم
يبلغونه ندمهم على ما فعلوه ويقولون له هل يرضيك أن نأخذ لك من قريش وغطفان
رجالا من أشرافهم فنسألك إياهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك حتى تستأصل أثرهم
وترتاح منهم فأجابهم بالقبول فانفق الفريقان على تنفيذ هذه الخطة ، ثم قال فاذا
أرسل اليكم اليهود بطلب رهائن فاياكم أن تعطوهم شيئا فانهم لن يلبثوا حتى يسلموهم
الى المسلمين فيقتلوهم وقد رأيت أن أبلغكم ما عرفته لتكونوا على حذر وكل ما أرجوه
هو أن تكتمود فلا يشيع بين الناس فوعده الكتمان

وانطلقت حيلة الفتى العطفاني على ابي سفيان فأوفد على الفور وفدا برئاسة
عكرمة بن ابي جهل في نفر من قریش و غطفان - وكان نعيم قد أبلغهم ما أبلغ قریشا -
الى قريظة يطلب اليهم أن يستعدوا للقيام بهجوم عام على المسلمين وضرب صباح غد
« السبت » موعدا له وان يكونوا على تمام الأهبة للاشتراك فيه

فاعتذر اليهود مبدئيا عن الاشتراك في الهجوم بحجة ان اليوم يوم « سبت »
وهم لا يباشرون عملا فيه ثم قالوا « اتنا لن نقاتل معكم ولن نشترك في معركة حتى
تعطونا رهنا من رجالكم يكونون في ايدينا فاننا نخشى أن تسحبوا غدا
اذا اشتدت الحرب وتتركونا وشأننا أمام المسلمين يفتكون بنا ويقتلوننا ولا طاقة
لنا بهم »

وعاد الوفد الى أبي سفيان ومن معه فأبلغهم ما قاله اليهود وأطلعهم على شروطهم
فقال بعضهم لبعض والله لقد صدق نعيم فيما نقله ورواه فالقوم سيئو النية ولن نسلم
اليهم أحدا من رجالنا لئلا يكون مصيره الهلاك ، ثم ارسلوا يبلغونهم انهم غير مستعدين
لتسليمهم الرهائن ، وانهم اذا كانوا يريدون القتال فليقاتلوا منفردين فأبى اليهود
مباشرة القتال الا بعد أن ينالوا الرهائن خوفا من المصير السيء الذي ينتظرهم . وهكذا
دب الشقاق في صفوف الاحلاف ووقع الانقسام بين زعمائهم ، ففترت همهم وأدركهم
الوهن وأخذوا يترقبون الفرص للخلاص مما هم فيه ولانسحاب « بانتظام » فلا
تقول العرب انهم انهزموا وانكسروا

تورة الطبيعة

وفيما هم على هذه الحال يضربون أخماسا في أسداس هبت عليهم عاصفة ثلجية
باردة - وكانوا يحاصرون المدينة في شهر فبراير سنة ٦٢٧ فاقطعت الحيام وقلبت
قدور الطعام وهدمت المعسكر فتفرقوا وتشتت شملهم ولما رأى أبو سفيان ما صاروا
فيه خطب قومه قائلا :

« يامعشر قريش : انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما ظمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فانى مرتحل »
وقام الى جملة فركبه وارتحل وارتحل معه القوم فاتتهى برحيلهم أمر الاحزاب وفشلت محاولتهم ، وخاب سعيهم

وخسرت قريش فى حرب الاحزاب ثلاثة من رجالها ، وقتل من المسلمين خمسة وجرح سعد بن معاذ ومات بعد ذلك متأثرا من جراحه فكان عدد قتلاهم ستة واستردت المدينة بعد انسحاب الاحزاب بهجتها ، واتفى الخطر الذى كان يهددها وجيء بالذرية والنساء من الاطم ، وكان يومها من الايام الكبرى عند المسلمين فقد بشرهم النبي ﷺ فيه بان قريشا لن تغزوهم بعد ذلك ، وانهم سيغزونها ، ويفوزون عليها وقد صدق فيما قال

استئصال بنى قريظة

لم يسرح النبي ﷺ جيشه ، بعد انسحاب الاحزاب ، ولم ينجح الى الراحة والسكون ، بعد كل ذلك العناء والتعب الشديدين فى حربهم - وقد اقاموا حول المدينة ٢٢ يوما - بل نادى مناديه بين المسلمين يوم ٢٣ ذى القعدة ، اى بعد ظهر اليوم الذى انسحبوا فى الليلة السابقة له بان من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة

وتتابع المسلمون على الاثر وخرج بعدهم فنزل على بئر من آبارهم . ولزم اليهود حصونهم فحاصروهم واقاموا على ذلك مدة ٢٥ يوما ادرك هؤلاء فى نهايتها أن لا رجاء فغرموا على الاستسلام فارسلوا الى الرسول يقترحون أن يرسل اليهم ابا لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه فى امرهم فارسله فلما وصل سألوه هل ينزلون على حكم محمد فأشار عليهم بالنزول فابلغوه فى الغداة انهم قرروا الاستسلام بدون قيد ولا شرط

فيقرر مصيرهم كما يشاء . وتدخل الاوس في الامر - وكانوا حلفاءهم - واقترحوا على الرسول أن يعاملهم كما عامل بني قينقاع حلفاء الخزرج - اى ان يكتفى باخراجهم من ديارهم وبمصادرة أموالهم وجز شعر رؤوسهم ، فقال لهم الاتوافقون على أن يحكم في مصيرهم رجل منكم قالوا بلى . قال جئيؤنى بسعد بن معاذ ، وكان يعالج من جرحه يوم الخندق فجىء به من المدينة محمولا على حمار وحوله نفر من قومه فقال له الانصار حينما وصل : يا أبا عمرو ان رسول الله قد ولاك امر مواليك اليهود لتحكم فيهم فقال : انى أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الاموال وتسبى الذرارى والنساء

واقر الرسول الحكم وقال لسعد لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة اربعة (سماوات) فقبضوا على رجالهم وساقوهم مكتفين الى المدينة وسجنوهم في دار بنت الحرث وعددهم يتفاوت بين ٦٠٠ — ٧٠٠ وقيل ٩٠٠ وفيهم حي بن اخطب زعيم بنى النضير وكعب بن اسد زعيمهم ثم امر بان تضرب اعناقهم فكانوا يأتون بهم افواجا الى سوق المدينة فيقتلونهم ويلقونهم في حفر أعدوها لهذه الغاية وقام على بن ابى طالب والزيبر بن العوام بهذه المهمة ، ولم يقتلوا من النساء سوى واحدة طرحت الرحا على خلاد ابن سويد فقتلته

وغنم المسلمون أموال بنى قريظة واقتسموها فيما بينهم ، وسبوا نساءهم وارسلوها الى نجد بقيادة سعد بن زيد الانصارى فباعها وابتاع بثمنها خيلا وسلاحا : وكانت غنائم المسلمين من قريظة كما يأتى :

سيف	١٥٠٠
درع	٣٠٠
رمح	٢٠٠٠
ترس وحجفة	٥٠٠

وغنموا ايضا كمية كبيرة من الماشية والابل والاثاث والامتعة والثياب ووضعوا
أيديهم على منازلهم واراضيهم ونخيلهم وكرمهم

فسارة المسلمين

وقتل من الساميين في بني قريظة واحد هو خالد بن سويد وقد طرحت عليه
يهودية رحي فمات فقتلت به كما تقدم

١٠

بعد ائتقنوا

الحقنا غزوة قريظة بالخذق لانهما من دوة واحدة ، فالولى اصل والثانية فرع ، ولولا انضمامها الى الاحزاب ومجهرتها المسلمين بالعداء ، ونقضها عهدهم وقد اعترف به كعب بن اسد ، لما هاجموها ولما استأصلوها

ولا بد لنا من القول ان ماجرى فى غزوتى بنى قينقاع والنضير تكرر هنا تقريبا ، فلم يشهر اليهود سيفا ، بل اكتفوا بالاعتصام وراء اسوارهم كما فعل اخوانهم من قبل ، ينتظرون المعونة والمساعدة من الخارج فلما ابطأت عليهم ، استسلموا بلا قيد ولا شرط ، وما كانوا يجهلون بان مصيرهم سيكون الذبح والفناء العاجل ، وقد كان فى امكانهم - ولو كان عددهم اقل من عدد محاصريهم - ان يقاوموا جهد طاقتهم مادام المصير فى الحالتين الموت . ولئن عامل النبي القرظيين بغير ما عامل به اخوانهم فلان جريمتهم كانت اكبر ، فهم لم يكتفوا بالقعود عن الاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة عملا بما تقضى به العهد المكتوبة بينهما ، وكانت المدينة فى خطر شديد ، بل انضموا الى اعداء المسلمين وخصوصهم فى اشد ساعات الخطر وادقها منتهكين حرمة القواعد الاخلاقية العامة . وحينما ذهب وفد المسلمين لاقناعهم بالكف عما عزموا عليه رفضوا وابوا . فان قيل انهم كانوا متورين من المسلمين لانهم فتكوا باخوانهم نجيب بان هؤلاء اکتفوا فى المرتين الاوليين باجلاء ابناء عمومتهم ولم يرقوا دمهم ولم يصادر وا شيئا من اموالهم بل اکتفوا من بنى قينقاع - وهم اول قبيلة قاومتهم - بالجلاء واكتفوا من بنى النضير باخذ السلاح مع الجلاء

فالمسامون أرادوا من انزال هذه العقوبة القاسية بنى قريظة أن يجعلوهم عبرة لغيرهم من الذين يقدمون على نقض العهود وانكارها ولا يحجمون عن الوثوب على الجار في أشد ساعات الخطر وطعنه من وراء طعنة قاتلة ، ولولا ذلك لما عاملوهم بما عاملوهم به، ولا كتفوا منهم بالجلء ، فالغاية التي كان يرمى اليها المسامون في ذلك العهد هي التخلص من العناصر الاجنبية الخطيرة ، واتقاء الدسائس الخارجية لاسفك الدماء ولا ازهاق الارواح ، وما كان ذلك من شأنهم، ولا بما يأمر به دينهم

ولا ريب ان فوز المسامين في هذه الغزوة كان مضاعفا وكان عظيما ، مع انهم كرهوها في أول الأمر وتخوفوا منها ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فقد اثبتت عجز قريش مع كل ما جمعت من قوى وألبته من رجال ، فظهر للعيان عجزها عن التغلب عليهم ، واستئصلهم فعادت - بعد حصار امتد ٢٢ يوما وبعد جهود بذلت في خلال شهر - تجر ذيل الفشل طويلا ، كما اثبت ان المسامين أصبحوا قوة قوية يحسب حسابها ويخشى جانبها ، فارتفع شأنهم وتعززت مكاتبتهم فالوقوف أمام بضعة عشر ألف مقاتل ، والثبات في وجههم مدة غير قصيرة ، ثم ارتداد هذه الالوف المؤلفة وتشتتها فيه مافية من المعاني الدالة على تضامن المسامين واتحادهم وقوتهم

وقد تكال الفوز السلي الذي ناله المسامون في الخندق بفوز ايجابي أعظم أدركوه في بنى قريظة فانهم فضلا عن تخلصهم من منافس شديد - كان يهددهم في عقر دارهم ، ولا يخفى ان القرظيين كانوا أكثر عددا وأوفر سلاحا من أبناء عمومتهم الآخرين - استولوا على كمية كبيرة من السلاح والمتاع والذخائر فزادوا بها قوة ومنعة وقضوا في الوقت نفسه على النفوذ اليهودي في منطقة المدينة وتخلصوا بعد نضال استمر نحو أربع سنوات تقريبا من منافس قوى فلم يبق أمامهم سوى يهود خيبر وكانوا أكثر يهود الحجاز عددا سيما وقد انضم اليهم عدد غير قليل من بنى قينقاع والنضير بعد جلائهم وبعض البطون الصغيرة الاخرى حول المدينة وليست بنى بال

وكان أول مافعله المسامون بعد ما ارتاحوا من كفاحهم وأمنوا جانب قريش

وما كان في استطاعتها أن تعود الى مهاجمتهم - فيما لو حدثتها النفس بالمهاجمة -
 الا بعد انقضاء وقت طويل لتعد في خلاله جيشا أعظم من جيش الخندق ، وأمنوا جانب
 اليهود ، وكانوا يحسبون حسابهم - نقول ان أول مافعلوه هو انهم تجهزوا لغزو
 بني لحيان وهم الذين فتكوا بعاصم بن ثابت وزملائه الخمسة الذين أرسلوا الى نجد
 للتبشير بالدين الاسلامي فقتلوا أربعة منهم واقتادوا اثنين باعوهما في مكة فذبجا اتقاما
 (انظر ص ١٩) - فقد تجهز النبي ﷺ في شهر ربيع الاول من سنة ست أى بعد
 بني قريظة بشهرين فقط وخرج يقود ٢٠٠ من أصحابه منهم ٢٠ فرسا قاصدا بني
 لحيان (وينزلون بين مكة والطائف ولا تزال هذه القبيلة موجودة حتى الآن تقيم في
 نفس الديرة التي كانت تنزلها في الجاهلية)

ومع انه تظاهر بانه يقصد الشام (الشمال) في غزوته تلك - وقد كانت هذه
 عادته في الغالب ، فما كان يذكر اسم المكان الذي يقصده بل ولا يورى به وكثيرا
 ما كان يذكر اسم غيره لئلا يتنبه الذين يقصدهم فيستعدوا للقائه فلا ينال منهم منالا
 وسلك في ابتداء سيره طريق الشام ثم اتجه الى الطريق الاصلى - الا انه لم يعمل عملا
 عسكريا يذكر فقد وصل فرأى بني لحيان مقيمين في رؤوس الجبال فنزل
 في ديارهم وقضى فيها يومين ييث السرايا ويرسلها الى الاطراف ، ثم عاد بطريق
 عسفان لانه أدرك ان لافائدة من طول الاقامة هنالك لصعوبة بلوغ القمم التي اعتصم
 فيها هؤلاء

ونزل المسلمون بعسفان وتبعد عن مكة نحو ٨٠ كيلومترا من جنوبها على طريق
 المدينة ، وأرسلوا أبا بكر مع كوكبة صغيرة من الفرسان للارتداد وللقيام بشبه مظاهرة
 عسكرية ارهابا لقريش . ولما عادت الكوكبة اتجهوا الى عاصمتهم . وما كادوا يستقرون
 فيها ، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري (وكان يقود جموع فزارة
 وغطفان يوم الخندق في جيش الاحزاب) فسطوا على ٢٠٠ ناقة للنبي ﷺ كانت ترعى
 بالغابة واستاقوها بعد ماقتلوا راعيها وسبوا امرأته

ووصل الخبر الى المدينة ، فركب النبي ﷺ في خمسمائة من رجاله ، وترك

سعد بن عباد مع ٣٠٠ للدفاع وسار وراء المغيرين فأدركتهم الحيل وناوشتهم فاستردوا بعض النياق وقتل بعضها ، وواصل المسلمون تقدمهم حتى بلغوا ذا قرد وهو ماء في شرقي المدينة ويبعد عنها نحو ١٥٠ كيلو مترا فأدركوا القوم ولم يشتبكوا معهم بحرب وجهاز النبي ﷺ بعد ذلك بأسابيع قليلة (أى فى شهر ربيع الثانى) سرية من ١٠٠ رجل بقيادة محمد بن مسامة الانصارى ، لارتياح ديار بنى ثعلبة (غطفان) وتجنس أخبارهم

والظاهر ان خبر هذه البعثة الصغيرة وصل الى القوم قبل وصولها فأعدوا العدة للقائها ، ولم يهاجموها حينما قدمت بالليل بل تركوا رجالها حتى ناموا فأحدقوا بهم ثم بدأوا باطلاق النبال فوثب المسلمون الى أسلحتهم وتقابلوا ساعة قتل فيها رجل من بنى ثعلبة فحمل اخوانه بالرماح على هؤلاء فقتلوهم الا محمد بن مسامة فقد جرح ثم نقله رجل من المسلمين الى المدينة

ولما وصلت هذه الاخبار الى المدينة جهز النبي ﷺ أبا عبيدة على رأس ٤٠ رجلا وأمره بأن يقصد المكان الذى قتل به رجال السرية فسار فلم يجد أحدا من بنى ثعلبة ووجد متاعهم ومواشيهم فجاء بها الى المدينة ولم يشتبك معهم فى قتال

الاعمال العسكرية في شمال الحيرة

لم يعد المسلمون الى العمل في الميدان الشمالي سحابة اربع سنوات اى بعد غزوة ودان أو الالبواء ، فقد انصرفوا في خلال هذه المدة الطويلة ، الى مكافحة قریش وتنزل في الجنوب ، وغطفان وسليم ، وتنزلان في الشرق ، واليهود وكانوا حول المدينة كما تقدم

واول مرة تجهز فيها المسلمون لغزو بعيد واقتربوا فيه من حدود الشام ، وكان الشام خاضعا للروم ، كانت غزوة دومة الجندل (الجوف) الآن وهو في شرقي المدينة الجنوبي وتبعد عنها بطريق تيماء نحو ٦٠٠ كيلوا متر و بطريق حایل (نجد) نحو الف كيلومتر وهى مجموعة مزارع تعرف الآن بهذا الاسم وعاصمتها سكاكه الجديدة وتخضع للدولة السعودية)

ويقال في اسباب هذه الغزوة انه بلغ المسلمين ان بدومة الجندل جمعا كثيرا يظلمون من يربهم من تجار الميرة الحجازيين وانهم يريدون مهاجمة المدينة فسار النبي اليهم بالف من المسلمين ، وكان يسرى في الليل ويكمن في النهار ومعه دليل من بنى عذرة اسمه مرعب وذلك في أول السنة الخامسة فبلغ اراضيهم ولم يدر قتال بينه وبينهم ويقول بعض المؤرخين ان المسلمين رجعوا بنعم القوم وشأهم

وعاد المسلمون الى الظهور في هذه المنطقة في شهر شعبان للسنة السادسة فقد جهز النبي سرية عهد بقيادتها الى عبد الرحمن بن عوف وقال له حينما سامه اللواء « خذ يا ابن عوف: اغزوا جميعا في سبيل الله ، فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم »

وكانت المهمة التي نيطت بعبد الرحمن - وكان معه ٧٠٠ مقاتل - ان يمضى الى بنى

كلب ، في منطقة دومة الجندل ، وكانوا اصحاب « دولة » مستقلة تمتد اراضيها من دومة الجندل حتى تبوك وتيماء فيدعوهم الى الاسلام فان استجابوا له واسلموا فليتزوج ابنة ملكهم .

واقام عبد الرحمن في ديارهم ثلاثة أيام يدعوهم الى الاسلام واسلم في اليوم الرابع ملكهم الأضبع بن عمرو الكلابي واسلم معه كثيرون من قومه وتزوج عبد الرحمن تماضر بنته وقدم بها المدينة . وكان ذلك مقدمة لانتشار الاسلام في تلك الربع ولم يعد المسامون الى العمل في هذه المنطقة الا بعد فتح مكة فقد احتلوا خيبر وتيماء وتبوك وصالحوا صاحب دومة الجندل على الجزية ووصلوا في تقدمهم حتى البلقاء وسنفضل ذلك حين الكلام على فتح الشام في المجلد الثاني

صالح الحديبية

قربس تعرف بالدولة الاموية

اول عهد سياسى بين المسلمين وقريش

هدأت الحالة في جنوبي المدينة هدوءا نسبيا بعد انسحاب الاحزاب وفشلهم امام الخندق؛ فلم تعد قريش تحرك ساكنا ولم تعد تفكر في غزو المسلمين واستئصالهم كما كان صناديدها ينادون بذلك من قبل ، ولعل الحادث الوحيد الذي وقع بين الخندق - وكان في شهر شوال من السنة الخامسة - وبين الحديبية وكانت في شهر ذى القعدة من السنة السادسة ، هو حادث العيص في شهر جمادى الاولى من السنة السادسة نفسها اى قبل الحديبية بستة اشهر ، وخلصته أن النبي ﷺ سير قوة بقيادة زيد بن حارثة ومعه ٧٠ مقاتلا لمهاجمة قافلة لقريش عاموا انها عائدة من الشام فالتقى الفريقان في العيص « شرقي المدينة ويبعد عنها نحو ٣٠ كيلو مترا » وغنم المسامون مافي القافلة ، واسروا رجالها ، وكان من جملتهم أبو العاص بن الربيع صهر النبي ، وام هالة بنت خويلد شقيقة السيدة خديجة زوج النبي ، وقادوها الى المدينة واصابوا اكمية كبيرة من الفضة في القافلة لصفوان بن امية من كبار تجار قريش

اما حديث الحديبية فخلاصته ان الرسول غادر عاصمته في شهر ذى القعدة من السنة السادسة على رأس ٧٠٠ وقيل ١٤٠٠ من المسلمين يسوقون ٧٠ ناقة للهدى ، معلنا انه يقصد مكة للعمرة والزياره لا للقتال والفتح

واتصل الخبر بقريش وعرفوا انه خرج برجاله يقصدهم وادركوا انه يرمى الى غرض سياسى مضمرا ، بعد الغرض الدينى الظاهر ، فهوير يد اظهار قوته وسطوته ،

ولفت الانظار الى الفوز العظيم الذى ادركه ، فقد غادر مكة من ست سنوات خائفا يتربص ، لا يصحبه من الناس سوى صديقه وصاحبه ابى بكر وهو يخشى الوقوع فى ايدى اعدائه الذين كانوا يعملون لاغتياله ، اما اليوم فهو يعود رئيسا لطائفة كبيرة من الذين يؤمنون بدينه ، ويصدقون رسالته ، ويتسابقون الى نصرته ، ويستعدون الموت فى سبيله ، وقد انتشر اسمه ، وذاع صيته ، وعلا قدره ومقامه

ولم تخف هذه الاعتبارات على زعماء قريش وكانوا يرقبون حالة المسامين عن كثب ، فاجتمعوا فى دار الندوة وبحثوا فى الخطة التى يسبرون عليها ازاء الزيارة وهل يسمحون له بدخول مدينتهم فى موكب الفخم ، وبين رجاله الابطال ، فيتحدث بحديثه اهل مكة خاصة ، والعرب الذين يشهدون الموسم عامة ، ويقدرون بالالوف ويذكرون ما ادركه من نجاح وتوفيق بفضل اخلاصه فى دعوته ، وتجرده عن كل غرض دنيوى ، ام يابون السماح له ويقاومونه اذا اصر على الدخول ؟ وبعد اخذ ورد اتفقت كلمتهم على الاخذ بالشق الثانى واصدروا بالاجماع قرارا قالوا فيه « لا يدخلها علينا ابدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب »

وعبأت قريش قواها ، وحشرت جندها ، واذاغت انها ستقاومه بالقوة اذا حاول الدخول وارسلت الفرسان فربطوا على طريقه فاما بلغه ذلك وكان فى عسفان وهى على مرحلتين من مكة وبينهما نحو ٨٠ كيلوا مترا تقريبا ، عدل خطة سيره وسلك طريقا غير الذى اقاموا القوى عليه تأهبا للنضال وواصل تقدمه حتى بلغ الحديدية من اسفل مكة وتبعد عنها نحو ٣٠ كيلوا مترا وهى من ناحية الغرب الشمالى وتسمى الشميسى فى الوقت الحاضر

ولاحظ قادة الجيش القرشى المرابطون بذى طوى (اول مدخل مكة من جهة المدينة) وكراع الغميم تأخر وصول المسامين وادركوا انهم سلكوا طريقا آخر فتخلوا عن مراكزهم وساروا على عجل الى مكة فابلغوا قريشا ما وقع ودعوها الى ان تكون على تمام الاهبة والاستعداد

وضرب المسامون خيامهم فى الحديدية « الشميسى » وقد كان فى استطاعتهم

دخول مكة لو ارادوا فالطريق اليها كانت مفتحة ولكنهم فضلوا النزول هنالك للراحة وللنظر في ما يكون بينهم وبين قريش فلا تكون « العمرة » وسية لحرب جديدة وما جاءوا لحوضها ولا لاضرامها

وعرفت قريش بوصول المسلمين الى الحديبية ونزلهم فيها فانتدبت بديل بن ورقاء الخزاعي لمقابلة الرسول وابلاغه قرار قريش بعدم السماح له بدخول مدينتها ولاقناعه بالرجوع ، فاستقبله ومن معه ، وقال له انه ماجاء يريد حربا وانما جاء البيت زائرا ومعظما . فرجع الوفد الى قريش وابلاغها ماسمع فلم يرضاها ذلك فانتدبت مركز بن حفص بن الاخيف اخا بنى عامر لمقابته واقناعه بالرجوع فلما وصل الى معسكر المسلمين استقبله النبي وكلمه بما كلم به بديلا فعاد الى قريش وابلاغها ما سمع

واستقر رأى قريش على ايفاد الحليس بن علقمة قائد الاحابيش (جيش قريش) لمقابلته ولاستطلاع حالة المسلمين فلما رآه الرسول ﷺ مقبلا قال ان هذا من القوم الذين يتألهون وأمر بأن يؤتى بالنياق السبعين التي جاء بها المسلمون للهدى فتعرض أمامه فلما رآها وكانت سمينة بدينة أعجب بها وعاد الى مكة معظما لما رأى من دون أن يقابل الرسول ﷺ ووصف لقريش مشاهده فقالوا له اجلس فأنت أعرابي لاشأن لك بالسياسة ، فغضب وقال لهم يامعشر قريش ما عهدناكم على هذا ولا حالفناكم على أن تصدوا عن البيت من جاء له معظما ، ثم أقسم بانه لينفرن بالاحابيش (الجيش) نفرة رجل واحد (أى يخرجهم عن طاعتهم) اذا لم يسمحوا للمسلمين بزيرة الكعبة

وأوفدت قريش وفدا رابعا هو عروة بن مسعود الثقفي وكان من حكماء العرب واذكيائهم فجاء معسكر المسلمين وجلس بين يدي الرسول ﷺ فقال له « لقد جمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم الى بيضتك تنقضها بهم » ثم هدده تلميحا وقال له ان قريشا حشدت قواها وانها لن تسمح له بدخول مكة ؛ فسأت اللهجة الشديدة التي استعملها اقطاب المسلمين فأسمعه أبو بكر كلاما قارصا وأعاد الرسول ﷺ عليه ما قاله للذين تقدموه فرجع الى مكة يقص ماسمع ويقول « لقد جئت كبرى في ملكه ،

وقیصر فی ملکہ ، والنجاشی فی ملکہ ، وانی والله ما رأیت ملکا فی قوم قط مثل
 محمد فی اصحابه ، لقد رأیت قوما لا یسلمونه ابدا فروا رأیکم »

ورأى الرسول ﷺ بعد ما تعدت الرسل من قبل قريش ، ولم تتقدم المفاوضات
 التي دارت خطوة واحدة ، ان يرسل مندوبا فقد يوفق الى اقناع القوم بحسن نيته
 فيكون التفاهم على يده ، فدعا بعمر بن الخطاب واقترح عليه أن يقصد مكة
 لمفاوضة قريش فتردد وقال له « اننى أخاف قريشا على نفسى فقد عرفت
 عداوتى لها وغلظتى عليها وليس بمكة أحد من بنى عدى يمنعنى » وكان عمر من بنى
 عدى ، ثم اقترح عليه ارسال عثمان بن عفان الاموى فى هذه المهمة لعصيته ومقامه
 فيهم فأجاز الاقتراح وانتدب هذا ، فسار الى مكة فلقه ابان بن سعيد بن العاص الاموى
 (اى ابن عمه) حين وصوله فأجاره حتى يؤدى رسالته ويخرج فذهب فقابل اباسفيان
 والوجود وتكلم معهم وأطلعهم على حقيقة نيات المسلمين فقالوا له ان شئت أن تطوف
 بالبيت فافعل فأبى الا أن يطوف رسول الله ﷺ وابطأ عثمان فى الرجوع الى المسلمين
 وتناقلت الألسن انه قتل واتصل ذلك بالرسول ﷺ فأعلن بانه لن يبرح مكانه حتى
 ينزل قريشا وينجزها ودعا المسلمين الى مبايعته على الحرب فبايعوه تحت شجرة
 كانت هنالك ثم قطعها عمر ولا يزال مكانها معروفا وقد أقاموا فيه مسجدا
 وتسمى تلك البيعة بيعة الرضوان وعاد عثمان بعد ذلك الى معسكر المسلمين وتبين انه
 لم يصب بأذى

وتبدل الموقف بعد زيارة عثمان و بعد الثبات الذى ثبته المسلمون حول مكة و بعد
 التصرف الحكيم الذى تصرفوه فلم يخرجوا قريشا ولم يبدأوها بالقتال ، وجنحت هذه
 الى السلم فانتدبت سهيل بن عمرو لحل المشكلة فدارت بينهما محادثات ختمت بالاتفاق
 على القواعد الآتية :

١ - يرجع المسلمون عن مكة فلا يدخلونها فى عامهم

٢ - للمسلمين أن يزوروا مكة فى العام القابل فيقيموا فيها ثلاثة أيام فقط ومعهم

سيوفهم فى القرب

٣ - تجلو قريش عن مكة زمن نزول المسامين فيها

٤ - توضع الحرب بين الفريقين مدة عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف

بعضهم عن بعض

٥ - من جاء محمدا من قريش من غير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا

ممن مع محمد لم يردوه عليه

٦ - من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده فله ذلك ، ومن أحب أن يدخل

في عقد قريش وعهدهم فله ذلك

تلك هي القواعد التي تم الاتفاق عليها وقد أدمجت في الكتاب الآتي وهو أول

عقد سياسى عقده المسامون مع قريش وهذا نصه :

« باسمك اللهم

«هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب

عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على انه من اتى

محمدا من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه

عليه وان بيننا عيبة مكفوفة ، وانه لا اسلال ولا اغلال ، وانه من أحب أن يدخل في

عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه

وانك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك

فدخلتها باصحابك واقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها

بغيرها »

هذا هو نص عقد الحديدية وقد تولى كتابته على بن ابي طالب وختمه الرسول

بخاتمته ووقعه سهل بن عمرو وشهد عليه أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب

وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن ابى وقاص ومحمود

ابن سامة ومكرز بن حفص وعلى بن ابى طالب وحمله سهيل الى قريش فأجازته

وبذلك تهادن المسامون وقريش

ولم يرق هذا الاتفاق في عين بعض المسامين وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب

وانتقدوا بعض شروطه ورأوا فيها غبنا للمسلمين ولا سيما المادة الخامسة القائلة بأن يرد محمد الى قريش من جاءه منها بغير اذن وليه ولا ترد قريش اليه من يجيء منه ، وسألوا الرسول كيف قبله فأجابهم بان مصلحة المسلمين تقضى بقبوله وبدأ فوراً بتنفيذه وذلك انه قام الى ناقته فحزها ثم حلق رأسه (ولا يكون نحر الهدى الا بعد الانتهاء من العمرة) فكأنه أراد أن يشير الى انتهاء العمرة ثم أمر بالرحيل على الفور فرحل المسلمون الى المدينة

ولا ريب ان صلح الحديبية كان فوزا سياسيا للمسلمين فقد أراح بالهم من جهة قريش عدوتهم الكبرى ، وأطلق يدهم بالعمل في المناطق الأخرى كما ساعدهم على نشر دعوتهم الدينية فدخل في دينهم كثيرون وزاد عددهم زيادة كبيرة ، ما كان يرجى لهم ان يبلغوها لو واصلوا الحرب والكفاح . ولا أدل على ذلك من زحفهم بعد سنتين أى في السنة الثامنة للهجرة الى مكة بجيش بلغ عدده عشرة آلاف مع ان عدد الذين جاءوا منهم للعمرة (يوم صلح الحديبية) ما كان يزيد على الف وأربعمائة على أكبر تقدير

وقد كان من النتائج المباشرة للمادة الخامسة من اتفاق الحديبية وهي التي تقضى على المسلمين بأن يردوا الى قريش من يأتيهم منها بدون رغبة أولياء أمورهم ، ان زاد عدد الذين دخلوا في الاسلام من أبنائها وأبي الماسمون ايواءهم في المدينة وفاء بعهدهم ، عن السنتين ، وحيث ان هؤلاء يأنفون البقاء معها فقد ألفوا عصاية قوية منهم جعلت دأبها الغارة على قوافلها ، ومتاجرها ورجالها في أسفارهم فضيقوها وكادوا يعرقلون حركتها فلم تجد مناصا من الاتجاء الى الرسول ﷺ تسأله أن يؤوى هؤلاء ويستقدمهم ويكف اذاهم فأرسل اليهم فجاءوا وانضموا الى اخوانهم المسلمين فكان فوزا جديدا لهم كما أقاموا بعملهم هذا برهانا على وفائهم بعهودهم وتمسكهم بها



مسجد الحديدية (الشميس) التي لاجياء ذكرى بيعة الرضوان

التبشير بالاسلام في خارج الجزيرة

كتب النبي ﷺ الى رؤساء الدول المجاورة

أدرك المسلمون في خلال ست سنوات من النتائج المادية والأدبية مالم يكن يخطر لأحد ببال أن يدركوها يوم وصول مهاجريهم الى دار هجرتهم الجديدة ، فقد حققوا الاغراض الآتية :

١ - قضاوا على النفوذ اليهودى في منطقة المدينة واستولوا على ممتلكات اليهود وأراضيهم وغنموا أسلحتهم وأموالهم

٢ - ضربوا قريشا ضربة كبيرة في بدر واستولوا على عدد من قوافلها ، وحازوا جانبا من أموالها ، وعرفلوا تجارتها مع الشام وكانت تعول في معائشها على هذه التجارة وكادوا يقطعونها

٣ - وقفوا أمام أعظم جيش عرفه الحجاز (جيش الاحزاب) في تاريخه العسكرى مدة ٢٢ يوما فارتد خائبا مدحورا

٤ - نشروا نفوذهم السياسى والعسكرى في المناطق المحيطة بالمدينة وسيروا البعوث العسكرية الى الغرب والشرق والشمال ، ووصلوا الى دومة الجندل (أراضى الرومان) وأخضعوا بنى كلب

٥ - أنشأوا جيشا عسكريا قويا أثبت كفاءته في المعارك التى خاضها وبعد ما كان عدده لا يتجاوز الستين فى السنة الأولى للهجرة والثلاثمائة فى السنة الثانية بلغ ثلاثة آلاف فى السنة الخامسة

٦ - قصدوا مكة في السنة السادسة للهجرة وعددهم يقدر بالمئات ومعهم النياق للهدى والصدقة يقومون بمظاهرة سياسية كبيرة فضلا عن الغرض الديني ، ويهددون قريشا في عقر دارها ، ويستخفون بها ولم يرجعوا الا بعد أن اعترفت بهم وعاقبتهم وعاملتهم على قاعدة المساواة ، لافاضل ولا مفضول ، ولا قوى ولا ضعيف

ورأى النبي ﷺ بعد أن أدرك هذه النتائج المادية العظيمة الشأن ، وبعد ما أمن جانب قريش ، وقضى على نفوذ اليهود - وقد اتحدت هاتان القوتان عليه ، وكان يخشى منهما على الاسلام ، ولم تبق في الحجاز قوة عسكرية ، أو كتلة سياسية يخشى بأسها ويرهب جانبها - ان يعمل على نشر الاسلام في أنحاء جزيرة العرب وفي خارجها كما نشره في الحجاز وان يتصل برؤساء الدول والحكومات فيدعوهم الى الدخول في دينه ، واتباع طريقته ، والاهتداء بهديه ، لاعتقاده ان رسالته عامة لاتختص بقبيل دون قبيل ، ولا بأمة دون أمة

وهذه أسماء الدول والممالك التي كاتبها وخطب ملوكها وامراءها داعيا إياهم الى

الاسلام :

- ١ - قيصر الروم
- ٢ - كسرى الفرس
- ٣ - عظيم القبط
- ٤ - نجاشي الحبشة
- ٥ - ملك غسان
- ٦ - صاحب اليمامة (نجد)
- ٧ - صاحب البحرين

هؤلاء هم الملوك والامراء الذين كتب اليهم ونحن مثبتون نص الكتب المرسلة الى كل منهم ، وأسماء الرسل الذين حملوها والجواب الذي اجاب به كلا منهم ، وواصفون المعاملة التي عاملوا الرسل بها

ولا نملك ناصريحا أو قرينة قاطعة نستعين بها على ذكر اسم اليوم الذي أرسلت فيه هذه الكتب أو كتبت فيه على الأقل ، وكل ما لدينا من أقوال المؤرخين القدماء - ولم يكونوا يعنون بآثار مثل هذه التفاصيل - ان الرسول ﷺ بعد ما كتب الكتب الى ملوك البلاد المجاورة على أثر منصرفه من الحديبية ، وكان ذلك في أواخر السنة السادسة للهجرة ، كان ينادى المساميين من منكم يذهب الى البلاد الفلانية ويذكر اسمها فيتطوع احدهم ، ويكون من الذين سبق لهم ان زاروا تلك البلاد وجاسوا خلالها ، فيحمل الكتاب ويضئ به ، مع العلم بأنه اختار بنفسه عددا من الذين حملوا كتبه وانتدبهم لهذه المهمة لمؤهلات عرفها فيهم ولخبرتهم الزائدة في شؤون البلاد التي خصهم بالسفر اليها

١ - كتابه الى قيصر الروم

كان يجلس على عرش الروم (الرومان) حين ظهور الاسلام الامبراطور هرقلوس (Heraclius) ويسميه العرب هرقل ، وكان في الاصل من كبار قوادهم العسكريين ، وقد قهر الفرس في معارك شديدة دارت بينهم وبينه وردهم الى ما وراء حدودهم واسترد منهم خشبة الصليب المقدسة وقد انتزعوها من مكانها في بيت المقدس حينما استولوا عليه في سنة ٦١٤

وكان هرقلوس ، حين ارسال كتاب الرسول ، يقيم في حمص وقد جاءها من انطاكية ، عاصمة الروم السياسية والعسكرية في الشام يومئذ ، وكان معتزما السير على قدميه الى بيت المقدس شكرا لله على ما اولاه من نصر وتوفيق

وحمل دحية بن خليفة الكلبي ، كتاب قيصر ، وكان من الخبيرين باحوال القوم ، وقد امر بان يقصد بصرى ويقابل الحارث بن أبي شمر النسائي (ملك غسان) ويوسطه في اصال الكتاب الى الامبراطور ، فقابله فانتدب عدى بن حاتم لمرافقته فسار معه الى القدس وقدمه الى قيصر فسامه الكتاب وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم
 من محمد رسول الله الى هرقل عظيم الروم
 « السلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاسلم تسلم . واسلم يؤتكَ الله اجرِكَ
 مرتين وان تتول فان اثم الاكارين عليك » اى اثم شعبك الذى يطيعك
 ووضع هرقل الكتاب بين نخده وخصرته واكرم الرسول واعاده من دون
 أن يرسل جوابا معه

٢ - كتابه الى كسرى

وحمل كتابه الى المداين (عاصمة الفرس يومئذ) عبد الله بن حذافة السهمي
 وكان يتردد على بلاد الفرس ، ويعرف شؤونهم فانطلق حتى بلغها وسامه الى الملك
 واسمه يومئذ خسرو ابرويز وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم
 « من محمد رسول الله الى كسرى عظيم فارس
 « سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد ان لا اله الا الله وانى
 رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيا . اسلم تسلم فان ايت فعليك اثم
 المجوس »

فاما ترجم الكتاب له مرقه وصرف الرسول وكتب الى باذان عامله فى صنعاء
 بان يبعث رجلين اشداء من عنده الى المدينة فيأتيان به . فارسلهما هذا مع كتاب
 الى الرسول يأمره بأن ينصرف معهما الى المداين فلما قدما عليه ابلاغ انهما
 جاء ليذهبا به الى كسرى وطلب اليه ان يستعد للسفر معهما ، فاخبرهما انه قتل
 وان ابنه شيرويه هو الذى قتله واخذ الملك مكانه فعادا الى صاحبهما فى صنعاء فاخبراه
 بالخبر وبعد قليل جاءه كتاب من شيرويه يقول فيه « انظر الرجل الذى كتب فيه
 ابى اليك فلا تهجه حتى يأتيك امرى »

٣ - كتابه الى المقوقس

وحمل حاطب بن ابى بلتعة كتابه الى المقوقس عظيم القبط فى مصر وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط

« سلام على من اتبع الهدى ، اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام . اسلم تسلم

يؤتلك الله اجرک مرتين ، فان توليت فعليك اثم كل القبط ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا

إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ

بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

وسلم حاطب الكتاب الى المقوقس فى الاسكندرية فضمه الى صدره ودعا كاتباً

يكتب له بالعربية فارسى اليه - كما يقول بعض المؤرخين - كتاباً ودياً

واكرم المقوقس رسول النبى وقيل انه اجازته بمائة دينار وخمسة اثناب ، وارسل

معه الهدايا الآتية :

١ - مارية بنت شمعون وكانت امها رومية ويقال انها كانت من اجمل نساء

مصر

٢ - سيرين

٣ - قيسر

٤ - بريرة (جارية سوداء)

٥ - هابو (غلام اسود)

٦ - بغلة شهباء سميت دلدل

٧ - فرس ملجم سمي ميمون

٨ - حمار اشهب سمي يعفور

٩ - مربعة فيها مكحلة ومراة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك

١٠ - كمية من العسل

١١ - الف مثقال من الذهب

١٢ - عشرُونَ ثوبا من قباطى مصر

١٣ - كمية من العود والند والمسك

١٤ - قدح من قوارير

وقد أسامت مارية قبل وصولها الى المدينة كما اسامت سيرين فتزوج النبي الاولى
ووهب الثانية لحسان بن ثابت الشاعر وولدت مارية للنبي ابراهيم وهو الذكر الوحيد
الذى ولد له صلى الله عليه وسلم ولم يعيش طويلا

٤ - كتابه الى النجاشى

وحمل عمرو بن امية الضمرى كتابه الى نجاشى الحبشة واسمه اصحمة فجاء
اكسوم عاصمة الاحباش القديمة وسلمه الكتاب وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى النجاشى الاصحم ملك الحبشة . سلم انت فانى احمد
اليك الله الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد ان عيسى بن مريم
روح الله وكتبه ، القاها الى مريم البتول ، الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه
ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه ، وانى ادعوك الى الله وحده لا شريك له ، والموالة
على طاعته ، وان تابعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وقد بعثت اليك ابن
عمى جعفرنا ونفرا معه من المسلمين فاذا جاءك فاقهرهم ودع التجبر فانى ادعوك
وجنودك الى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى والسلام على من اتبع الهدى » (١)
وقد نشر بعض المؤرخين المسلمين صورة كتاب زعم ان النجاشى اجاب به
على الكتاب المرسل اليه معلنا قبوله الدعوة ودخوله فى الدين الاسلامى ، وليس هنالك

(١) يدل هذا الكتاب على انه كتب قبل هذا التاريخ اى فى زمن هجرة جعفر
واصحابه وكان ذلك قبل انتقال المسلمين الى المدينة وهو ما يدعوا الى الشك فى صحته

دليل تاريخي او مادي يؤيد هذه الرواية ولذلك اغفلنا نشر الكتاب ولو كان ما يروونه من اسلامه صحيحا لظهر اثره في قومه الاحباش وقد كانوا ولا يزالون على دين النصرانية

٥ - كتابه الى ملك غسانه

وحمل شجاع بن وهب الاسدي كتابه الى الحارث بن ابي شمر الغساني وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى الحارث بن ابي شمر

« سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فأني ادعوك الى ان تؤمن بالله وحده

لا شريك له يبقى ملكك »

ولما تسلم الكتاب وقرأه رمى به وقال من ينتزع مني ملكي انا سأثر اليه ولو

كان باليمن جئته . على بالناس ولم يزل جالسا حتى الليل ، وامر بالحيل ان تنعل . ثم

دعا بالرسول وقال اخبر صاحبك بما ترى

ويقال في رواية اخرى انه اراد غزو المدينة وكتب بذلك الى هرقلوس

يستأذنه فأجابه بعدم الموافقة

٦ - كتابه الى صاحب اليمامة (نجد)

وارسل سليط بن عمرو العامري الى هودثة بن علي الحنفي صاحب اليمامة يحمل

كتابه وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من محمد رسول الله الى هودثة بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم ان

ديني سيظهر الى منتهى الخف والحافر فاسلم تسلم وأجعل لك ماتحت يدك »

واجاز هودثة الرسول بجائزة وكساه ثوبا وورده ردا لطيفا

٧ - كتابه الى صاحب البحرين

و بعث العلاء بن الحضرمي بكتاب الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين يدعو
الى الدخول فى الاسلام فاسلم
وهكذا اتصل بملوك زمانه وامرائه الذين يجاورون بلاد العرب وعمم دعوته
ونشرها، واذاع خبرها ، فتحدث بها الناس فى كل مكان وعرفها القريب والبعيد

لماذا لم تفتح الحبشة

ومما يستحق الذكر بوجه خاص ان بلاد جميع الملوك والامراء الذين كاتبهم
واتصل بهم ، خضعت للمسلمين ودخلت فى دينهم سالما أو حربا ، ماعدا الحبشة ، فقد
فتح المسلمون بلاد كسرى وقيصر وحوران ومصر واليامة والبحرين - وهى البلاد
التي كتب اليها ، واستولوا عليها . والحبشة هى القطر الوحيد الذى كتب اليه
داعيا الى الاسلام ولم يسلم ولم ينفر المسلمون اليه، ولم يحملوا عليه، ولم يفكروا فى فتحه
مع انهم حملوا على جميع الممالك الاخرى وأخضعوها تدريجيا ويلوح لنا ان مصدر ذلك
ما كان بين الاسلام والحبشة من علاقات ود وثيقة نشأت عن المعاملة الحسنة التى
عامل بها الاحباش المهاجرين المسلمين الذين لجأوا اليهم قبل الهجرة هربا
من اضطهاد قريش وظلمها ، فقد آوهم وأكرموا مثوهم وأبوا أن يسلموهم الى
اعدائهم ، حينما جاء وفدها يطالب بهم . يضاف الى هذا ما ذكره بعض الرواة وهو
ان النجاشي نفسه (اصحمة) امهر أم حبيبة بنت أبى سفيان حينما عقد لها على رسول
الله ﷺ فى اكسوم، وقد كانت من اللاجنات الى الحبشة، على أثر وفاة زوجها ثم نقلت
الى المدينة بعد ذلك وبنى بها ، وكانت فى عداد نساءه

وفضلا عن ذلك فقد صلى النبي على اصحمة نفسه صلاة الغائب حينما نعى اليه ،
أثبت ذلك البخارى فى صحيحه نقلا عن جابر بن عبد الله فروى ان النبي ﷺ نعى
الى أصحابه اصحمة قائلا : « مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على اخيكم اصحمة »

ويقول جابر أيضا ان النبي صفهم وراءه حينما صلى عليه وانه كان في الصف الثاني
أوالثالث ، وكبر عليه اربعا

وحيث ان صلاة الغائب لاتجوز الا على المسلم فقد ذهب بعض المؤرخين الى
ان اصحمة هذا كان مساما بسبب الصلاة عليه ، وربما أراد النبي من صلاته
عليه ابداء عاطفة طيبة نحو هذا الملك الذي أضاف المسامين وآواهم ووطأ لهم في بلاده
ومنع الأذى عنهم ، واتبعه خلفاؤه من بعده ، فلم يمدوا يدهم الى الحبشة بسوء بل
أبقوا لها استقلالها وصانوا وحدتها ، وكانوا يعاملون ابناءها معاملة حسنة ، ويكرمونها
ويبرونها ، مكافأة لهم على ما أسدوه من يد بيضاء لآخوانهم وليقيموا الدليل على ان
المسلمين يحفظون الجميل ويكافئون عليه . ولولا ذلك لاتظمت مملكة اثيوبيا في عداد
الممالك الاسلامية الاخرى المجاورة لها ولدانت للمسامين ولخضعت لهم كما خضع غيرها .
وما كان امرها ليعجزهم ، وما كانت قوتها لتقف في وجوههم ، بعد ما بسطوا نفوذهم
على مصر والسودان وافريقية وآسيا

فتح خيبر و وادي القرى

ازدادت نقمة اليهود الحجازيين على الاسلام بعد حادث بنى قريظة ، فنشطوا ولا سيما ابناء خيبر - والى خيبر لجأ كثير من بنى قينقاع والنضير - الى مقاومة الاسلام والكيد له والعمل على استئصاله ، بتأليب القوى وجمع الجموع كما فعلوا يوم الاحزاب ، ولم تكن اخبارهم مجهولة عند ولاة الامور فى المدينة ، ولذلك عولوا على ضربهم والتخلص منهم ، واقاموا يتحينون الفرص لتنفيذ خطتهم ، وما كان غزو خيبر بسيطاً ، لوفرة عدد رجالها ، وكثرة سلاحها ، ولمناعة الاراضى التى تنزلها ، ولتعدد حصونها وكانت هنالك سلسلة حصون منيعة احسن اليهود اعدادها وتنظيمها خوف الطوارئء والمفاجآت

ولم يطل المسلمون الاقامة فى المدينة بعد رجوعهم من مكة ، و بعد عقد هدنة الحديبية ، وقد امنوا بعقدها جانب قريش كما قدمنا فتجهزوا لفتح خيبر وهى واقعة فى شمالى المدينة الشرقى وفى طرف الحرة المعروفة باسمها ، وفى شهر المحرم من السنة السادسة غادروا عاصمتهم يقودهم زعيمهم الاكبر وعددهم ١٦٠٠ مقاتل بينهم ٢٠٠ فارس

و بلغ الجيش الاسلامى خيبر ليلا ، فنزل بقرها ، و صدر الى رجاله الامر بان يناموا ويستريحوا حتى الصباح ، جرى كل هذا واهل خيبر غافلون عما يدبر لهم ، ويراد بهم ، ولذلك فوجئوا بوصول المسلمين وكان اول من شاهدهم الفلاحون الذين اعتادوا الخروج فى البكور الى اعمالهم فى المزارع والغيطان فصاحوا بقومهم : محمد والحميس (أى الجيش)

وعبأ المسلمون قواهم تعبئة عسكرية منظمة وقسموها الى قسمين : قسم وهو

الأكبر أعد لمهاجمة حصون اليهود واشعال القتال. وقسم وهو الأقل أقيم على الطريق بين خيبر وغطفان لمقاومة هذه وصدها اذا حدثتها النفس - وكانت على عداة مع المسلمين - بالانضمام الى اليهود

وكان لليهود في خيبر سبعة حصون كبيرة مبنية بالحجارة للاعتصام بها والدفاع من ورائها اذا هاجمهم مهاجم . وهذه اسمائها :

ناعم . القموص . ابي الحقيق . الشق . النظاة . السلام . الوطيح . الكتيبة واحتشد المقاتلة من اليهود حينما وصل المسلمون في داخل حصن النظاة ، وهو في مكان مرتفع وحوله مزارع النخل ، ووضعوا نساءهم واطفالهم في حصن الكتيبة وتقدم المسلمون من حصن النظاة ، فجاء الحباب بن المنذر - وهو الذي أشار يوم بدر بالعدول عن التعبئة الاولى (انظر ص ٥٠) الى النبي ﷺ يقترح عليه التحول من مكانه ويقول : « ان لي بأهل النظاة معرفة ، وليس قوم ابعدهم منهم ولا اعدل رمية ، وهم مرتفعون علينا ولا نأمن من مفاجأة يفاجئوتنا بها ، يأتوتنا من بين النخل » ولم يتردد النبي في الأخذ برأيه فتحول وتحول الناس الى مكان اضلع واوقف

وامر النبي ﷺ بقطع شجر النخيل المحيط بالنظاة لان كثرتة تحول دون اجراء الحركات العسكرية فقطعوا نحو ٤٠٠ نخلة نخرج اليهود لقتالهم فدارت معركة عنيفة بين الفريقين اشترك فيها النبي ﷺ بالذات وقاتل أشد قتال وانتهت المعركة ولم ينل أحد من الفريقين منالا ، واستؤنف القتال في الغداة وتكرر في اليوم الثالث والرابع والخامس وأهل الحصن ثابتون يخرجون للقتال في النهار ويلجأون اليه في الليل

وجاء في جوف الليلة السادسة يهودى من اهل خيبر الى النبي ﷺ وقال له انه خرج من حصن النظاة وان رجال حاميته يتسللون منه في تلك الليلة ويذهبون الى حصن الشق فيجعلون فيه ذراريهم ويتهاون للقتال . ولم يشترك النبي ﷺ في القتال الذي دار في اليوم السادس لوجع اصابه في رأسه

ودعا في اليوم السابع بعلي بن ابي طالب وسلمه الراية وامره ان يقاتلهم فقال
أفقاتلهم حتى يكونوا مثلنا فقال : انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم
الى الاسلام فان لم يطيعوا لك فقاتلهم ء فوالله لئن يهدى الله بك رجلا خير لك من
حمر النعم

وخرج على حتى ركز الراية تحت حصن النطاة ، وكان الحارث اخو مرحب
وهو من كبار شجعان اليهود اول من خرج للقائه فقتله فخرج اليه اخو مرحب فقتله
ايضا ، وخرج ياسر اخوها فخرج اليه الزبير بن العوام وقتله ثم حمل المسلمون على
الناعم ففتحوه ثم القموص وتتابع الفتح بعد ذلك فسقطت حصونهم الواحد بعد الآخر
ولم يبق سوى الوطيح والسلام وقد اقام المسلمون على حصارهما اربعة عشر يوما وارسل
اليهود الى النبي ﷺ بعد ذلك يعرضون عليه الصلح ، لانهم تبينوا عدم فائدة
المقاومة وعرفوا ان المسلمين يستعدون للقيام بهجوم عام عليهم ، فدارت مفاوضات بين
الفريقين انتهت بالاتفاق على القواعد الآتية :

١ - يحقن المسلمون دماء المقاتلة من اليهود ويتركون الذرية

٢ - يجالوا اليهود عن خيبر واراضيها بذراريهم

٣ - لا يأخذ احدهم أكثر من ثوب واحد

٤ - تكون ذمة الله تعالى ورسوله محرمة منهم ان كتموا شيئا

وهكذا تم الصلح واستولى المسلمون على خيبر وجلا عنها اليهود الا بعضهم

وتركوها بين يدي الفاتحين وهذا بيان الغنائم التي غنموها :

١٠٠٠ رمح

١٠٠ درع

٤٠٠ سيف

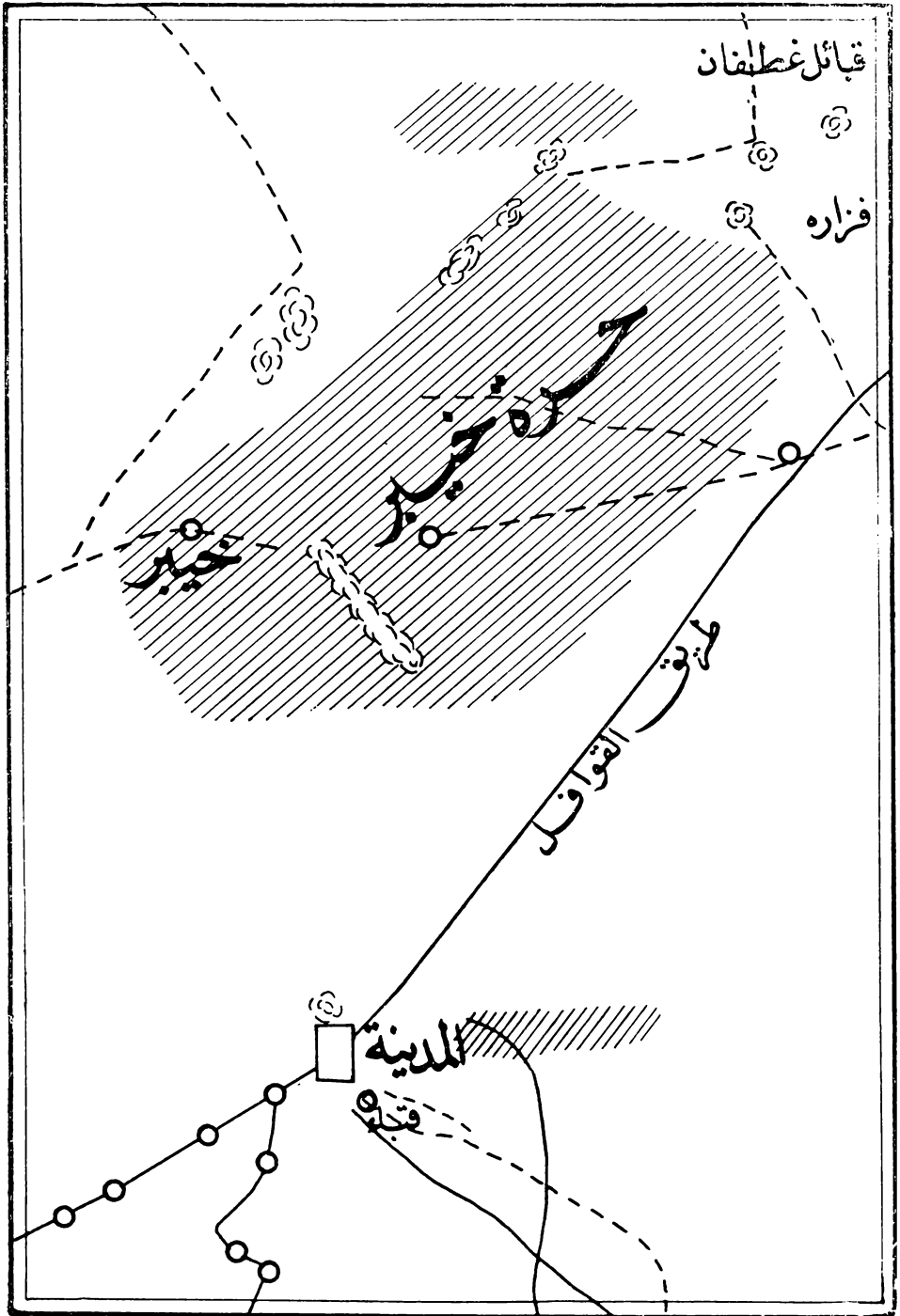
٥٠٠ قوس

وغنموا ايضا كميات كبيرة من الشعير والتمر والودك والمتاع والمالشية وغيرها .

واخذوا ايضا كنز آل ابي الحقيق وقد حمه حي بن اخطب حينما هاجر مع قومه من

بنى النضير

خبيبر



و بلغت جملة قتلى المسلمين في معارك خيبر كلها ١٥ قتيلا مقابل ٩٣ قتيلا
من اليهود

فدك تطلب الرصاصه

ولما وصلت الاخبار الى فدك - وهي مدينة لليهود في ذاك الجوار - بسقوط خيبر
واستسلام اهلها اوفدوا وفدا قابل النبي وعرض خضوعهم على ان يدفعوا له نصف
حاصلاتهم فصالحهم

مرابمهم وادى القرى وتبما

وعرج وهو في طريقه الى المدينة على وادى القرى وهو آخر حصن لليهود في
الشمال قبل تباء ، فحاصره اربعة ايام وفتحته عنوة ، وغنم منه غنائم كثيرة ، واقام
عاملا عليه عمرو بن سعيد بن العاص
وجاءه وهو في وادى القرى سكان تباء اليهود يعرضون طاعتهم وخضوعهم
فصالحهم واقهرهم على ما بأيديهم وعين يزيد بن ابى سفيان عاملا عليها
ثم رجع الى المدينة بعد ما اخضع شمالي الحجاز كله وادخله في دائرة الدولة الجديدة
وقضى على نفوذ اليهود وغنم اموالهم وسلاحهم
واقام الرسول ﷺ بعد رجوعه من خيبر ثمانية اشهر في المدينة (ربيع الاول -
شوال) سير في خلالها خمس سرايا : الاولى بقيادة عمر بن الخطاب الى هوازن (الطائف)
والثانية بقيادة ابى بكر الى بنى كلاب ، والثالثة الى بنى مرة بفدك ، والرابعة
بقيادة غالب بن عبد الله الليثي الى بنى مرة بفدك ايضا . والخامسة بقيادة بشير بن سعد
الى غطفان ، نجح اكثرها وأدى المهمة التي اتدب اليها . وهكذا ما كان يدخر جهدا
في نشر الاسلام وتعميمه

١٥ فتح مكة

انقضى العام الاول لصلح الحديبية او كاد ، وجاء زمن العمرة فامر الرسول المسلمين ان يتهيؤوا لزيارة مكة وان لا يتخلف احد من شهد الحديبية وخرج وخرجوا ومعه غيرهم حتى بلغ عددهم الالفين - كما قالوا وذلك في شهر ذى القعدة للسنة السابعة - يسوقون ٦٠٠ ناقة للهدى ، وقد تسلح منهم ١٠٠ فارس ألقوا الطليعة ، وحملوا سلاحا خوف غدر او خيانة واستعدادا للنضال اذا حدث ما يستوجبه

ولئن لم يعارض المكيون في دخول المسلمين الى مدينتهم كما فعلوا في المرة الاولى ، فقد قاطعوهم مقاطعة اقتصادية واجتماعية فلم يدعوهم ولم يشتر وا منهم ولم يتصلوا بهم وجلا بعض المكيين الى جبل قيعقان كما لزم البعض الآخر منازلهم فلم يخرجوا منها لثلا يتصلوا بالمسلمين او يحتكوا بهم ولعل زعماء قريش خافوا ان يؤثر القادمون من المكيين في اخوانهم وابناء عمومتهم وألهم المتخلفين ويستميلوهم اليهم فارادوا من هذا التدبير ان يقطعوا الطريق عليهم ويناموا مرتاحين فكان لهم ما ارادوا

ولم يشأ النبي ان يدخل مكة بكل من معه من الرجال خوف المفاجأة والغدر فاقام ٢٠٠ منهم مسلحين بالسلاح الكامل في بطن يابجج (مكان قرب مكة) وامرهم بان يكونوا على تمام الاهبة والاستعداد فيسرعوا الى نجدة اخوانهم اذا حدث حادث

واصطف بعض المكيين من الزعماء والرؤساء عند دار الندوة (قرب الكعبة) لرؤية المسلمين عن كئيب حين طوافهم ، ودخل النبي مكة للمرة الاولى بعدما هجرها يحيط به انصاره ورجاله ، وقد اخذ عبد الله بن رواحة شاعر الانصار بخطام ناقته وبعد ما اتم هو واصحابه الطواف والسعي نحر هديه عند المروة وحلق ايذانا

بانتهاه العمرة ثم امر مائتين من رجاله الذين قضوا مناسكهم بأن يذهبوا الى جرول (بطن ياجج) فيجلوا محل اخوانهم فيأتي هؤلاء لاداء مناسكهم ففعلوا

وانقضت الايام الثلاثة التي سمح للمسلمين بان يقضوها في مكة عملا باحكام المادة الثالثة من اتفاق الحديبية ، فجاء ظهر اليوم الرابع سهيل بن عمرو (بطل معاهدة الحديبية و مندوب قريش في عقدها وتوقيعها) وحويطب بن عبد العزى وناشده العهد بان يخرج من ارضهم عملا بالاتفاق ، فأمر رجاله بالرحيل فرحلوا وعادوا الى المدينة سالمين من دون أن يحدث لهم حادث . ولاريب ان دخولهم على قريش في غيلها ، وظهورهم بما ظهر وا به من القوة اثر في نفوس الكثيرين من انبائها وعجل في خضوعها للمسلمين فانه لم يكذب ينقضى عام على العمرة حتى كان كل شيء قد انتهى وحتى دخلت مكة في حوزة المسلمين وخضعت قريش لهم وعلت كلمتهم في الحجاز واصبحوا اصحاب الامر والنهي في ربوعه

و بيان ماحدث انه لما عقد اتفاق الحديبية ، وخيرت القبائل الضاربة حول مكة في الانضمام الى احدى الفئتين (انظر ص ١١٩) انحازت خزاعة الى المسلمين (وكانت تنزل باسفل مكة عند بئر يقال له الوتر) ودخلت في عقدهم وانحاز بنو بكر بن عبد مناة الى قريش ودخلوا في عقدها ، وكان بين هاتين القبيلتين خلاف قديم واثارات مطلوبة

واغتنم نوفل بن معاوية الديلي (من بني ديل من بني بكر) فرصة الهدنة وقعود الناس عن الحرب ، فأعد عدته لمهاجمة خزاعة طلبا لتأرق قديم له عندها ، وباغتها ذات لية على بئر الوتر (اسفل مكة) فدار قتال بين الفريقين قتل فيه خزاعي واحد واستؤنف القتال في الغداة بين الفريقين فامتد قريش احلافها من بني بكر بالسلاح والرجال ، ويقال ان بعض زعمائها اشترك في القتال متحفيا لثلاثتهم بنقض العهد وفقدت خزاعة في هذه المعارك ٣٠ قتيلا وقيل اكثر

ولما وصلت الحالة الى هذه الدرجة من الخطورة ، قصد عمرو بن سالم الخزاعي المدينة ومعه احد بني كعب ، ليستجد حلفاءه المسلمين وليذكر لهم عمل قريش

ومهاجمتها اياهم ونقضها العهد وتبعه ايضا بديل بن ورقاء كبير بنى خزاعة مع وفد من قومه فقابلوا الرسول واطلعوه والمسلمين على ماحدث لهم بالتفصيل

ورأت قريش أن تدارك الامر وان تزيل ما تركته زيارة الخزاعيين للمدينة من أثر في نفوس المسلمين فاتدبت ابا سفيان لزيارتها فيسعى لحل الخلاف ساما، ولإبقاء عهد الحديبية نافذا محترما ويمد مدته اذا امكن فقد ذاقت (قريش) بواسطته طعم الهدوء والراحة بعد ما حرمتها طويلا فعكفت على العناية بتجارها ومصالحها الاقتصادية ولاتنمو التجارة الا في ظل الهدوء والسكينة

ووصل ابوسفيان المدينة وقصد منزل كريمته ام حبيبة زوج النبي وقد تزوجها مدة اقامتها مهاجرة في الحبشة ثم دخل عليها بعد وصولها الى المدينة في جمادى الاولى من السنة السابعة للهجرة، فاستراح قليلا ثم اتى المسجد فزار النبي وكله فيما جاء لاجله وعرض عليه ان يمد اجل الهدنة واعتذر عما حدث من بكر وخزاعة فاعرض عنه وابتى ان يجيبه ويناقشه فزار ابا بكر ورجاه ان يتوسط لاصلاح ذات البين فرفض فقصد عمر بن الخطاب مستشفعا فرفض التدخل وانكر عليه ان يزوره لمثل هذا الامر وهو المعروف بشدة عداوته لقريش وقال له والله لو لم اجد الا الذر لجاهدتكم به نخرج حتى جاء على بن ابى طالب وكله كلاما رقيقا لينا لاثارة عاطفته وقال له انك امس القوم بي رحما واني قد جئت في حاجة فلا ارجع كما جئت خائبا فاشفع لى عند محمد فاجابه معتذرا

والتفت ابو سفيان الى السيدة فاطمة وكانت تشهد المجلس وامامها ابنها الحسن وكان لا يزال طفلا يدب بين يديها ورجاها ان تأمر ابنها (الحسن) ان يجير بين الناس فيكون سيد العرب الى آخر الدهر فاعتذرت اليه وقالت ما يجير احد على رسول الله وسأل ابو سفيان عليا ان ينصحه في الخطة التي يسير عليها بعد ما اقلقت في وجهه الابواب وضقت عليه السبل ، فأشار عليه أن يقوم بنفسه في المسجد فيجبر بين الناس بصفته سيد كنانة وزعيمها . ثم يعود الى مكة . ففعل ما اشار به عليه ثم عاد الى قومه فقص عليهم ما وقع فادركوا انه فشل في مهمته وعرفوا ان المسلمين

لن يسكرتوا عنهم، وقد جاءت الحوادث مؤيدة لما توقعوه فقد اصدر الرسول على اثر سفر ابى سفيان امرا بالتعبئة العامة و اشار بان تكون « سرية » كما امر باقامة حراس على الطرق المؤدية الى مكة فلا يفلت احد ولا يصل الى قریش خبر .

الزحف على مكة

ولما اتم تعبته غادر المدينة يوم ٨ وقيل ١٠ رمضان من السنة الثامنة للهجرة يقود جيشا مسلحا منظما موحد القيادة والغاية يبلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل وقيل عشرة آلاف وقيل اثني عشر الفا وهذا بيان عنهم مأخوذ من السيرة الحلبية :

٧٠٠ مهاجر

٤٠٠٠ انصارى

١٠٠٠ من مزينة

٤٠٠ من اسلم

٣٠٠ من جهينة

وكان فى هذا الجيش ٩٨٠ فرسا موزعة كما يأتى : ٣٠٠ للهاجرين و ٥٠٠ للانصار و ١٠٠ لمزينة و ٣٠ لاسلم و ٥٠ لجهينة . ويقول ابن هشام انه غادر المدينة يقود عشرة آلاف ، ولا يدخل فى هذا الاحصاء الذين انضموا اليه فى اثناء الطريق من اسلم وغفار واشجع وسليم، وقد ارسل يستنفرهم ويقدرون عند بعض المؤرخين بألفين اى ان مجموع الجيش عند هؤلاء اثنا عشر الفا لاعشرة كما ذهب اليه ابن هشام ولا ستة آلاف واربعمائة كما اثبت صاحب السيرة الحلبية وسالك المسامون الطريق السلطاني المعروف فى زحفهم

النزول بمر الظهران

وواصل هذا الجيش اللجب تقدمه وسار يطوى الفيافي والقفار والمسامون صائمون وهم جد حريصين على كتمان امرهم واخفاء خبر مسيرهم حتى وصل الى مر الظهران

(واد كبير تتجمع سيوله من جملة شعاب واودية شمالي وشرقي مكة وينحدر سيوله غربا فيسقى جميع المزارع في وادي فاطمة ويبعد عن مكة ٣٠ كيلومترا) فاستقر فيه وضرب مخيمه استعدادا للعمل العظيم الذي ينتظره

ترايسر قريش

وغم على اقطاب قريش امر المسامين وانقطعت اخبارهم عنهم - ولما كانوا واثقين من انهم لن يقعدوا عنهم وانه لا بد لهم من الانتقام منهم لغزوهم خزاعة فقد اقلقهم جبل مايدبر في المدينة

وغادر ابو سفيان مكة في الليلة التي نزل فيها المسامون مر الظهران ومعه حكيم ابن حزام وبديل بن ورقاء لتجسس الاخبار وسؤال الركبان عن حالة المسامين وقال لصاحبه وقد استوقفت نظره النيران التي اضرمتها المسامون بمر الظهران انه مارأى نيرانا كالنيران المشبوبة الليلة فأجابه بديل لعلها نيران خزاعة - ان خزاعة اقل من ان تكون هذه نيرانها

وادركهم العباس بن عبد المطلب وقد ازمعوا الرجوع الى مكة ، وكان العباس قد خرج مهاجرا الى المدينة للانضمام الى ابن اخيه ، فالتقى به في الطريق وعاد معه ، فنادى ابا سفيان فوقف له وقال له ما وراؤك

- هذا رسول الله في الناس

- ما الحيلة ؟

- انصحك بان تركب عجز هذه البعلة ورائي (وكان يركب بعلة رسول الله)
فآتبه بك واستأمن لك

- موافق

وارد العباس ابا سفيان وجرت بهما البعلة حتى وصلا خيمة النبي فنزلا عنها واسرعا فدخل عليه وكان عمر بن الخطاب يعدو وراءهما محاولا قتل ابي سفيان قبل ان يدخل خيمة الرسول فيجيره فلم يحل ذلك بين عمر وبين اقتحام الخيمة

فأخذ العباس برأس ابي سفيان وقال يارسول الله اننى اجرته وهو فى جوارى
وطال الجدال بين العباس وعمر بن الخطاب هذا يلح فى قتله وذاك ينادى بانه
اجاره واخيرا امر الرسول العباس وكان يسمع ما يدور بينهما بان يبقيه عنده حتى الغداة
ليبت فى امره

وجاء العباس فى الغداة بأبى سفيان فلما دخل عليه بادره بقوله
- ويحك يا ابا سفيان الم يأن لك ان تعلم انه لا اله الا الله ؟
- ما احامك وما اكرمك واوصلك والله لقد ظننت انه لو كان مع الله إله آخر

لاغنى عنى شيئا

- الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله ؟

- اما هذه فوالله ان فى النفس منها شيئا حتى الآن

فتدخل العباس وقال له ويحك اسلم قبل ان تضرب عنقك فاسلم
واقترح العباس على ابي سفيان بعد ما دخل فى الاسلام و بعد ماتقرر زحف
المسلمين على مكة ان يسرع بالرجوع اليها فيتوسط لتسليم من دون حرب ولا قتال
حقنا للدم ولانه لاطاقة لها بالمقاومة فانطلق فدخلها فصرخ بأعلى صوته قائلا :

يامعشر قريش : هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فاساموا

فصاحت زوجته هند فى وجهه وشتمته ونادت بقومها قائلة :

اقتلوا الحيث

فقال لهم « ويلكم لاتغرنكم هذه من انفسكم فانه قد جاءكم بما لا قبل لكم
به . فادخلوا دار ابي سفيان فمن دخلها فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن
اغلق بابيه فهو آمن »

فتفرق الناس على الفور وقد قذف فى قلوبهم الرعب وجنحوا الى التسليم فقصد
فريق المسجد (الكعبة) فلجأ اليه واعتصم آخرون فى بيت ابي سفيان وآوى
آخرون الى بيوتهم

كيف دخل المسلمون مكة

عباً المسلمون جيشهم من الصباح تعبئة عسكرية، استعداداً لدخول مكة واعدوه على منوال جعلهم يحيطون بها من جميع الاطراف فقاد على بن ابي طالب الطليعة وتلقى امرا بان يدخل من كداء، وقاد الزبير بن العوام الجناح الايسر، وخالد بن الوليد الجناح الايمن وامر بان يدخل من الليط (اسفل مكة) وقاد عبيدة بن الجراح القلب . وقاد الرسول بنفسه الساقة (مؤخرة الجيش) وركز رايته على الحجون (اعلى مكة) وركب ناقته القصواء وتعمم بعمامة سوداء ولبس ملابس الاحرام

واصدر قبل الزحف، اوامره الى قادة الجيش وامرائه بان لا يقتالوا الا من قاتلهم وان يعفوا عمن يستسلم اليهم واستثنى من ذلك احد عشر رجلا واربع نساء ، امتازوا بعدائهم الشديد للاسلام فهدر دماءهم وامران يقتلوا ولو وجدوا متعلقين باستار الكعبة وهذه اسماء الرجال منهم :

عبد الله بن خطل وعبد الله بن ابي سرح بن الحارث العامري وعكرمة بن ابي جهل والحويرث بن نقيد ومقيس بن صبابه وهبار بن الاسود بن المطلب وكعب بن زهير بن ابي سامي المزني والحارث بن هشام المخزومي وزهير بن ابي امية المخزومي وصفوان بن امية بن خلف الجمحي ووحشى بن حرب وهذه اسماء النساء :

سارة مولاة لبني المطلب بن عبد مناف وهند بنت عتبة زوج ابي سفيان ام معاوية وفرتنا وقريبة وهما قيتان لعبد الله بن خطل ، وقد عني عن اكثر هؤلاء بعد ذلك ولم يقتل منهم سوى الاول والرابع والخامس فقط وقتلت من النساء قريبة فقط وعني عن الباقيات

مقاومة بسيطة

وحاول فريق من قريش تجمعوا في الخندمة (اسفل مكة) بقيادة صفوان بن

امية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن ابى جهل المقاومة فصدّمهم خالد بن الوليد وهزمهم بعد ماقتل ١٢ منهم

ولما انتهت المقاومة وتم الاستيلاء على جميع الاطراف مشى النبي على ناقته وانطلق حتى اتى الكعبة فطاف سبعة اشواط وصلى ركعتين شكرا لله على ماأولاد من نصر وتأيد . وبعد ماتسلم مفاتيح البيت وقف على بابه ، وكانت قريش مجتمعة فى الصفا فقال : لاإله الاالله وحده لاشريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده ، الاكل مائة اودم او مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين الا سداثة البيت وسقاية الحاج

يامعشر قريش :

ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم خلق من تراب . ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا

يامعشر قريش ويااهل مكة ماترون انى فاعل بكم ؟

- خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم

- اذهبوا فاتم الطلقاء

وكان فتح مكة يوم ٢٠ رمضان للسنة الثامنة من الهجرة . وهكذا سقط آخر

معقل للوثنية فى الحجاز فانهارت بانهاره وتقلص ظلها

تأج فتح مكة

والواقع ان فتح مكة على هذا النوال ، لم يك خاتمة النضال بين المسلمين وقريش وحدها وقد امتد ٢١ سنة تقريبا ١٣ قبل الهجرة و٨ بعدها بل كان خاتمة النضال فى بلاد العرب ووسيلة لاتساع نطاق الاسلام وانتشاره فى داخل الجزيرة وفى خارجها ، فلم يطل المطال على قبائل شرقى الحجاز - وكانت تلتزم الحياد فى العراك الدائر بين المدينة ومكة - حتى اقبلت وفودها تتسابق الى المدينة ، تعلن اسلامها وانضمامها الى الدولة

الجديدة بمحض ارادتها واختيارها ومن دون ضغط او ارهاب ، لانها ادركت
عدم فائدة القعود والتردد

ويمكن القول ان فتح مكة اتج النتائج الآتية :

١ - قضى على الوثنية والشرك في جزيرة العرب وعلى نظم الجاهلية وتقاليدها
وعاداتها وابدلها بدين التوحيد وانشأ لها نظماً وعادات وتقاليد جديدة سعدت بها
وارتقت

٢ - قضى على الحكم الاقطاعى في جزيرة العرب واقام مقامه دولة موحدة
قادت العرب الى مواطن النصر والفخار وسودتهم على العالم

٣ - قضى على نظام العصبية وعلى روح القبيلة وساوى بين الجميع فلا تفاضل
ولا تنافس بل الكل اخوان فى ظل راية التوحيد

٤ - قضى على عهد الكفاح والنضال بين القبائل فانصرفت الى نشر
الاسلام وتعزيزه

٥ - اعاد الصلح بين البيوت والعائلات ، وقد انقسمت على بعضها فى زمن
الحرب فقاتل الابن اباه والاب اولاده فى سبيل الدين ونشره فالتأم الشمل وازيلت
الاختلافات

ويضيق بنا النطاق لو حاولنا وصف الثمرات العظيمة التى جناها المسلمون من
فتح مكة فهى كثيرة عميمة

غزوة حنين وعصار الطائف

انصرف النبي في خلال الايام الاولى للفتح الى قبول بيعة المكيين نساء ورجالا فدخلوا افواجا افواجا في دينه ، والى انشاء نظام حكم جديد ، يقوم مقام النظام الارستقراطي العائلي القديم وقد انهار واندر ، فعين عاملا لمكة يحكمها باسم الدولة الاسلامية ويدير شؤونها واعاد الصلح والوثام بين العائلات وشمل بعفو كثيرين من الذين حكم باعدامهم وارق دماءهم

وسير من مقامه في مكة سرايا الى الاطراف لاختضاع القبائل المجاورة وادخلها في الطاعة ولهدم الاصنام والاوثان في ديارها - بعد ما حطم الاصنام والاوثان في مكة ومحارها - فارسل خالد بن الوليد الى « العزى » وهى شجرة كانت بنخلة (بين مكة والطائف) عندها وثن تعبده غطفان فقطع الشجرة وكسر الوثن وهدم البيت الذى كان فيه

وسير سرية اخرى بقيادة عمرو بن العاص الى سواع وهو اسم لصم كانت تعبده هذيل فهدمه وعاد ولم يحدث له حادث . وارضى هذيل بين مكة والطائف وسير سعد بن زيد الاشهل الى مناة وهو صم كانت الاوس والخزرج تعظمه فهدمه وعاد سالما . وكان مناة بالمشلل وهو جبل على ساحل البحر الاحمر قرب قديد وبعث بعد ذلك خالد بن الوليد الى بنى جذيمة من كنانة وكانوا باسفل مكة في ناحية ياعلم ، يدعوهم الى الاسلام فوقع بينه وبينهم سوء تفاهم ادى الى قتل بعضهم مع انهم اعلنوا حين وصوله اليهم دخولهم فى الاسلام ولما بلغ النبي ذلك تبرأ منه وارسل على بن ابى طالب الى بنى جذيمة فدفع دية القتل

تقيف وهوازن وتجمع

وجاءت الاخبار الى المسلمين في مكة بان قبائل الطائف وهي هوازن (قبيلة عتيبة الشهيرة في الحجاز ونجد وتنزل في نفس منازل هوازن القديمة) وثقيف وسعد تتجهز لتقاتلهم وتستعد للزحف عليهم فاصدر النبي ﷺ الاوامر بالتأهب للقائهم ، كما امر عبيد الله بن ابي حنيفة الاسامي بان يذهب اليهم ويختلط بهم ويأتيه بخبرهم فذهب اليهم وكانوا في وادي حنين شرقي مكة في طريق الطائف بينه وبينها نحو ٤٠ كيلومترا من ابتداء الوادي وهو طويل ، فاختلف بهم ودرس حالتهم عن كثب ثم عاد واخبره بما شاهد ورأى فقرر ان يسير اليهم

قوة المسلمين وتعبئتهم

غادر جيش المسلمين مكة ظهر يوم السبت ٦ شوال للسنة الثامنة قاصدا وادي حنين وعدته كما يقول المؤرخون ١٢ الف مقاتل منهم عشرة جاءوا معه من المدينة والفا من اهل مكة تطوعوا في صفوفه ، وفي مقدمتهم ابو سفيان بن حرب وغيره من زعماء قريش الذين اسلموا حديثا

وعبأ النبي قواه حينما اقتربوا من اراضي العدو فكانت سليم في المقدمة وعليها خالد بن الوليد ووزع الرايات فكان لواء المهاجرين مع علي بن ابي طالب ولواء الحزرج مع الحباب بن النذر ولواء الاوس مع اسيد بن حضير

قوة القبائل وبرايرها

بين الرواة اختلاف في البواعث التي بعثت قبائل الطائف على التجمع لقتال المسلمين ، والذي عليه الاكثرون انهم تجهزوا للقائهم منذ ما علموا بخروجهم من المدينة لانهم ظنوا انهم قاصدوهم فارادوا ان يسيروا للقائهم وكذلك اختلف الرواة في عدد جيش القبائل المتحالفة فقول ان مجموعهم بلغ

١٥ الفا وقيل عشرين الفا ولا يخلو الرقم الاخير من مبالغة ظاهرة فجمع جيش يبلغ عدده ٢٠ الف مقاتل غير متيسر في منطقة صغيرة كمنطقة الطائف مع العلم ان قريشا - وكانت اقوى منهم واكثر ثروة واعظم نفوذا - لم تستطع ان تجهز جيش الاحزاب ولم يزد على عشرة آلاف الا في عدة اشهر وقد اشركت فيه قبائل عدة يزيد عدد نفوسها على قبائل الطائف المتحالفة

واسامت هذه القبائل زمامها الى مالك بن عوف وولته القيادة العليا ، لانها ادركت ان توحيدها في مقدمة الوسائل التي تضمن النجاح

وعملا بامر القائد العام - مالك بن عوف - سارت القبائل المتحالفة بالظعن (اى النساء والاطفال والماشية) والدرارى والماشية (البنون والمال) هما اعز مايملك ابن البادية واغلاه ومعنى ذلك ان هذه القبائل كانت تدرك خطورة المهمة التي اقدمت عليها وانها كانت موطنة النفس على القتال حتى النفس الاخير املا بان تنتصر على المسلمين بعدما انتصروا على قريش ، فتموز بالزعامة في جنوبي الحجاز وتحي عبادة الاوثان بعد سقوطها

القبائل تباعدت المسلمين

ومما يصح الاخذ به لتأييد هذه النظرية - نظرية استماتة هذه القبائل في قتالها وازماعها المضى في النضال حتى النهاية ورغبتها في احراز نصر حاسم على المسلمين - هوائها اخنتهم على غرة حين تقدمهم في وادى حنين ، والظاهر انهم اهملوا اتخاذ التدابير الاحتياطية التي تتخذها الجيوش عادة عند دخولها في اراضى عدوها ، لانهم كانوا يعتمدون على كثرتهم كما كانوا يستخفون بقوة عدوهم ، ولولا ذلك لاعدوا من العدة والتدابير ما يضمن لهم اجتياز الوادى سالمين

وذاق المسلمون عاقبة الاهمال ، وللإهمال مهما كان شكله عواقب وخيمة ، فقد وقع الذعر والاضطراب في صفوفهم ، حينما كرت عليهم القبائل المتحالفة واخنتهم على حين غرة في فجر اليوم الثالث لمسيرهم في مضيق وادى حنين ، ففرا اكثرهم ليايرون

على شيء لانهم ما كانوا يتوقعون مثل هذه المفاجأة، وهي المرة الاولى التي اخذ بها الجيش الاسلامي على هذا المنوال في خلال السنوات التي تولى النبي فيها قيادته
و وقعت القبائل المتحالفة في نفس الخطأ الذي وقع فيه الرماة السامون يوم احد، فانها بدلا من المضي في مطاردة المهزيمين ، انصرفت الى الاشتغال بجمع الغنائم والاسلاب لا اعتقادها ان المعركة انتهت ، وان النصر عقد لها ؛ والحصول على الكسب اول ما ينشده ابن الصحراء في حروبه

ورأى النبي الفرصة سانحة للعمل ، وللقيام بهجوم معا كس على العدو ، وضربه ضربة شديدة ، فوقف الى طرف الوادي وحوله خاصته وكبار هيئة اركان حربه :
ابو بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس ، وكانوا محيطين به على الدوام ، وغيرهم من كبار الانصار والمهاجرين ، يدعو الناس الى الالتفاف حوله قائلا :

انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب

ولم يكتف بهذا النداء بل كرر على بقلته لاحقا بالمنهزمين وداعيا اياهم الى الوقوف والثبات ثم اوعز الى عمه العباس بان ينادى في الانصار - والانصار عمدة الجيش الاسلامي ودعامته - ويدعوهم الى الالتفاف حول النبي فناداهم قائلا :

يا اصحاب السمرة ، يا اصحاب سورة البقرة ، هلموا هذا رسول الله ، فأقبلوا على صوته ، حتى اذا تكامل عددهم ، وانتظمت صفوفهم ، وكان النهار قد اشرق حملوا على اعدائهم ، وكانوا مشغولين بجمع الغنائم غير حاسبين للحوادث حسابا فأخذوهم على غرة وهزموهم هزيمة شنعاء ونكلوا بهم واستردوا منهم ماغنموه كما اخذوا ذراريهم ونساءهم وقتلوا عددا كثيرا من رجالهم وفي جملتهم دريد بن الصمة وجرح خالد بن الوليد في ذاك اليوم لكثرة ما قاتل

وواصل السامون تقدمهم نحو الطائف لمطاردة المهزيمين الذين لجأوا اليها وتبعد الطائف عن مكة ١٢٠ كيلو مترا وهي واقعة الى شرفها ، اي انهم لم يكتفوا بهزيمة المتحالفين بل لحقوا بهم في عاصمتهم لاحتلالها وادخالها في ادارة الدولة الجديدة وقيل ان يزحف الجيش على الطائف ، سير سرية بقيادة ابي عامر الاشعري

لمطاردة العدو وقد انقسم حين انسحابه الى قسمين : قسم لحق بالطائف وهو الاكبر وقسم قصد نخلة قرب مكة اى انه سار نحو الغرب ، فلحق بهم ابو عامر هذا وقاتلهم وحل محله ابن اخيه ابو موسى الاشعري حينما قتل

وواصل النبي تقدمه حتى نزل قريبا من سور الطائف ، وهي مشهورة بسورها ولا يزال قائما حتى الآن، وكان التحالفون قد سبقوا اليه وتحصنوا في داخله ، فلما قدم المسلمون رموهم بنبلهم فقتلوا منهم ١٢ رجلا وجرحوا كثيرين وفي مقدمة الذين جرحوا في خلال ذلك الحصار ابو سفيان بن حرب فقد فقمت عينه

وضرب المسلمون الحصار حول الطائف ونصبوا المنجنيق وهي اول مرة يستعملونه في حروبهم ، كما قطعوا الشجر والكرم ، فعلا ذلك في بني النضير وقرية وخير من قبل ارهابا لرجالها وحملهم على الاستسلام ، فلم تجنح ثقيف الى التسليم بل اصرت على المقاومة والنضال ، ورأى المسلمون بعد حصار ١٨ يوما ، انه ليس من مصلحتهم اطالة الإقامة حول السور او بذل ضحايا كبيرة لاحتلاله ، فتركوه وعادوا الى مكة

ونزل المسلمون في الجعرانة (وتبعد ٤٠ كيلومترا عن مكة) في طريق الطائف ، اى انهم لم يقصدوا مكة مباشرة وضرب النبي مخيمه فيها، واقام فيها ثلاثة عشر يوما ، وزع فيها الغنائم التي غنموها في غزوتهم ويقولون انها بلغت ٢٤ الف بغير و ٤٠ الف شاة واربعه آلاف اوقية من الفضة ، عدا النساء والذراري ، ولم يوزع هؤلاء رحمة بهم ، وجاءه في مقامه هنالك وفد هوزان وعددهم ١٤ من كبار رجالهم فأعلنوا اسلامهم وندمهم وسألوه ان يرد عليهم ما أخذهم منهم فرد عليهم النساء والذرية واستبقى الابل والماشية والفضة ووزعها على الذين اسلموا حديثا من اهل مكة واشتركوا في تلك الغزوة وهي اول قتال يشتركون فيه دفاعا عن الاسلام . وجاءه وهو في الجعرانة ايضا مالك بن عوف قائد القبائل فاسلم واسلمت ثقيف بعده

ودخل مكة يوم ١٧ ذى القعدة محرما اى ان غزوة حنين استغرقت ٣٧ يوما فلم يقم فيها سوى يوم واحد ثم قصد المدينة عاصمته فاستقر بها

اتهاء الاعمال العسكرية في الحجاز

ويان عنها

كانت معركة حنين ، آخر معركة عسكرية ، ادار الرسول ﷺ رحاها ، وتولى قيادتها ، كما كانت آخر قتال شهده ، وبها انتهى فتح الحجاز عمليا ، وخضع للاسلام فلم يرتفع بعدها للوثنية رأس ، ولم ينبه لها ذكر ، واقبلت وفود القبائل من جميع انحاء بلاد العرب طائعة ، تعلن دخولها في الدين الاسلامي وخضوعها للدولة الجديدة التي انشأها المسلمون

ولقد استغرق فتح الحجاز كله - وفي جملة نجد ، ولم يشهر سيف في فتحها وكانت تعد جزءا من اراضي الحجاز - سبع سنين ، ابتدأت في شهر رمضان وهو الشهر السابع لنزول المسلمين المدينة بسرية حمزة وانتهت في شهر ذي القعدة من السنة الثامنة - ظلت بعوهم العسكرية ترى في خلالها ، وظلوا في نضال عنيف مع قريش واحلافها ، فلم يخلدوا الى الراحة حتى تم لهم الفوز والنصر ، فاخضعوا الحجاز لسلطانهم بفضل ثباتهم وتفانيهم والتفافهم حول نبيهم وقائدهم وهاديهم وكانوا ينتقلون من نصر الى نصر ومن فوز الى فوز حتى علت كلمتهم وهزم الشرك وقضى على عبادة الاوثان ، ودخل العرب في دور جديد من الحياة والاستقرار لاعهد لهم به من قبل

والبيانات المفصلة التي اثبتناها وهي مستقاة من اوثق المصادر التاريخية تدحض الزعم القائل بان الدين الاسلامي قام على السيف وانتشر به ، فعدد المارك الحقيقية

التي خاضها المسلمون في خلال هذه الفترة الطويلة هي اربع معارك لا اكثر ولا اقل ،
وهذه اسمائها بحسب وقوعها :

١ - معركة بدر الكبرى

٢ - معركة احد

٣ - معركة خيبر

٤ - معركة حنين

تلك هي المعارك العسكرية الكبيرة التي خاضها النبي بالذات وقاتل فيها او ادار دفتها ، وقد كان المسلمون فيها مدافعين لامهاجين ، تؤيد ذلك البيانات التاريخية الصحيحة التي او رداها . ونعود هنا الى بسطها بايجاز تماما للفائدة فنقول :

١ -- معركة بدر - خرج المسلمون يوم بدر لمهاجمة قافلة قريش

لا ليحاربوها ولا ليعتدوا عليها ، فلما سامت القافلة ولم يعد في الامكان الحصول عليها استشار النبي اصحابه على عادته - وكان لايبث في امر من الامور الخطيرة الا برأيهم ، عملا بمبدأ الشورى الذي جاء به - وسألهم هل يعود الى المدينة أم يصمد لقريش وكانت في طريقها الى بدر للاقائه ففوضوا اليه بان يعمل مايراه موافقا للمصلحة وقالوا له انهم يتبعونه من غير قيد ولا شرط وينفذون اوامره

وماخطر ببال المسلمين في موقفهم ذلك ان يهاجموا قريشا او يقتلونها لانهم

كانوا يعرفون انها تفوقهم عددا وعددا ولورجعت الى مدينتها طبقا لاقتراح ابي سفيان لما وجدت من يطاردها ، وقد رجع فعلا بنو سهم حينما وصلت الاخبار اليهم بوصول القافلة سالمة - وكانت الغاية من خروجهم انقاذها - فلم يلحق بهم احد من المسلمين ولم يطاردهم ، بيد ان اصرار ابي جهل على القتال وموالاته الاكثرية وتأبيدها له في خطته رغم نصيحة عتبة بن ربيعة وغيره من اصحاب الرأي لهم بالرجوع ، جعل الحرب واقعة ، فقد استهان ابو جهل ومن شايعه بالمسلمين وكانوا قوة قليلة ضئيلة بالنسبة لهم ، وظنوا ان في استطاعتهم القضاء عليهم والتخلص منهم ، فلم يجد هؤلاء بدا من الدفاع عن انفسهم ، اى انهم كانوا في حالة الدفاع المشروع ، وفي حالة رد الاعتداء ،

وقد صدقوا الحملة واحسنوا اختيار مواقعهم واحكموا تنظيم صفوفهم فكان النصر في جانبهم ودارت الدائرة على قريش الباغية ، وعلى الباغي تدور الدوائر

٢ - معركة احد - ووقع يوم احد ما وقع في بدر ايضا فقد سارت قريش بقضها وقضيضها ، ونسائها ، ورجالها للانتقام لقتلها في بدر وللثأر من الماسين الذين كانوا يدافعون عن كيانهم ، ومع ان الغلبة كانت في جانب هؤلاء لانهم احسنوا تعبئة جيشهم وتنظيم صفوفهم ، الا ان الخطأ الكبير الذي ارتكبه الرماة الماسون - وقد ظنوا ان المعركة انتهت وان النصر تم لقومهم - غير الموقف وصير الانتصار انكسارا ، فقد اغتم خالد بن الوليد - وكان على خيالة قريش في ذلك اليوم - فرصة انكشاف جناح الماسين الايسر فكر عليهم وقطع خطر رجعتهم فوق الذعر في صفوفهم وقد قاتل النبي بالذات في ذلك اليوم وجرح ، ولم يقا تل يوم بدر ، وانتهت المعركة بانكسار الماسين ، بسبب خطأ الرماة (وقد استشهد اكثرهم) ومن تحصيل الحاصل القول بان الماسين كانوا يوم احد في حالة الدفاع المشر وع عن النفس وعن الكيان .

٣ - معركة خيبر - والمعركة الثالثة التي شهدتها النبي وتولى قيادة الماسين فيها هي معركة خيبر وقد اسهبنا في الكلام عن مقدماتها و وصف اسبابها وعواملها من قبل وخلاصة ما يقال فيها هو انه بعد ان وقع ما وقع بين الماسين واليهود في المدينة وحو لها ، لجأ كبار هؤلاء الى خيبر ، وكانت اعظم مراكزهم في الحجاز وا كبرها شأنا وعكفوا على دس الدسائس للاسلام والعمل للانتقام منه ، وصدور هذا العمل منهم غير مستنكر وهو مما تقره شريعة ذلك العصر ، وادرك الماسون ان ما يدبر لهم في خيبر ويطبخ في مطبخها ، يهددهم باعظم خطر في حاضرهم ومستقبلهم ، فقصدها بجموعهم ودعوا اهلها الى الاسلام والدخول فيه والانضمام الى هيئتهم الجديدة ، فيكون لهم ما للماسين وعليهم ما عليهم ، وتلك كانت الوسيلة الوحيدة في نظرهم لحل الخلاف بعد الذي جرى ، لانهم لم يعودوا يثقون بعهود اليهود واتفاقاتهم ، بعد يوم بني قريظة ، فرفض الخيبريون ما عرض عليهم ، وابوا الدخول في الاسلام وحشدوا قواهم للنضال فلم ير

المسلمون بدأ من منازلهم فقاتلوهم وادرك هؤلاء ان لافائدة ترجى من المقاومة فطلبوا الصلح فتفاوضوا فتم الاتفاق على الصلح ، فغادروا البلاد من دون ان يمس احد منهم بسوء او يعتدى عليهم او تحرق حرمة الميثاق الجديد ، مما يؤيد مذهبنا اليه وهو ان المسلمين ما ارادوا الحرب لذاتها ولا مشوا اليها وانما اضطروا اليها اضطرارا لانهم كانوا بين شرين : شر ترك الخيبريين ، وشأنهم ولا يأمنون ان يؤتوا من جانبهم ويؤلبسوا عليهم القبائل كما فعلوا في المرة الاولى يوم الاحزاب ؛ وشر قتالهم واجلائهم وهو الاخف والافضل بالنسبة اليهم ، ولم يقدموا على هذا اعتباطا ، ولكنهم دعوا اليهود الى الدخول في دينهم والاشترك في الهيئة الاجتماعية الجديدة التي انشأوها والمساهمة في اسواقها فابوا ؛ ولما لم يبق مناص من القتال اقدموا عليه بعد ما استنفدوا الجهد في بلوغ السلام والوفاق ، وغايتهم دفع الخطر الذي كان يهددهم من ناحية خيبر لا مهاجمتها بالذات

ولابد لنا من الكلام بهذه المناسبة عن حادث بنى قريظة وهو ايضا حادث فذ في تاريخ الاسلام والباحث المنصف يسلم بان المسلمين لم يقدموا على معاملة القرظيين تلك المعاملة الشاذة القاسية ، وتاريخ النبي في جميع ادوار حياته شاهد بحبه للعفو والصفح وعدم ميله للانتقام والعقوبة الا لضرورة قصوى ، فقد عفا عن كثيرين من اعدائه الشخصيين ومن الذين آذوه يوم فتح مكة مما دل على انه من ابعد الناس عن الانتقام ، ولا يتفق مع ما امتاز به من اخلاق عالية سامية ، بوائه ارفع مقام ، ورفعه الى اعلى ذروة من ذرى المجد والحلوة

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فان النبي لم يعامل احدا من يهود الحجاز - وكانوا يبلغون بضعة عشر الفا كما قدرناهم - بما عامل به القرظيين ، لا قبل هؤلاء ولا بعدهم فقد اكتفى باجلاء بنى قينقاع وبنى النضير حين ادرك انه لم يعد في الاستطاعة السكوت عن دسائسهم واكتفى منهم بالرحيل مع العلم انهم لم يستسلموا اليه ولم ينزلوا على حكمه الا مضطرين لانه اقوى منهم ، ومعنى ذلك ان فوزه عليهم كان في حقيقته فوزا عسكريا ومع ان الشرائع النافذة في تلك الايام تطلق يد الغالب في معاملة المغلوب اطلاقا

تأما فله ان يقتله أو يسترقه ويستخدمه في جميع شؤونه ومرافقه مدى الحياة مع اهله وولده من دون قيد ولا شرط فان النبي قد ترفع عن معاملتهم بمقتضى الشرائع التي كان الناس يخضعون لها ولا يرون فيها ما ينكر ، وعاملهم بالرفق والاحسان وتركهم يذهبون اني شاءوا فجاءوا حاملين متاعهم واموالهم ، يغنون وينشدون ويرقصون . ولا نظن ان غالبا في ذلك العصر عامل مغلوبه بافضل مما عامل به النبي ﷺ بنى قينقاع

وكانت جريمة بنى النضير افظع واشد ، فقد قعدوا عن الدفاع عن المدينة حينما هاجمتها قريش يوم احد ، ولم يشتركوا في القتال خلافا للعهود العقودة بينهم وبين المسلمين ، وتأمر على النبي حينما زارهم يريدون اغتياله والتخلص منه ، كما نظم بعض شعرائهم القصائد في تمجيد قتلى قريش يوم بدر وفي الطعن بالمسلمين ، يضاف الى هذا اتصلمهم بقريش ، عدوة المسلمين يومئذ ووصل حبلمهم بحبلمها وتردد زعمائهم على مكة واثارتهم الاحقاد على المسلمين واغراء قريش بهم ، مما جعل التعاضى عنهم لا يطاق ولا يحتمل ، فسار المسلمون اليهم واحاطوا بحصونهم ، ولما ادرك هؤلاء انه لا قبل لهم بالمقاومة والثبات ، جنحوا الى السلام فصالحهم على شروط اثقل من شروط أولئك لان جريمتهم كانت اعظم ففزع منهم السلاح والميرة والماشية وبعض المتاع ولم يسمح لهم الا بنقل ما استقلت به الابل

وصالح اهل خيبر بعد ما غلبهم على الجلاء فقط وصالح وادى القرى وفدك وتيما على شروط غاية في الاعتدال فاقرهم في بيوتهم ومنازلهم ولم يعتد عليهم ولم يسلب منهم شيئا مكتفيا بالطاعة والانقياد وارسل الى بلادهم العمال والحكام يسوسونهم ويحبون منهم الجزية (الضرائب) كالرايا الآخرين مما يدل على انه ما كان واجدا على اليهود لانهم يهود ، ولا متعمدا الاساءة اليهم ، وانه في اجلائه بنى قينقاع ثم بنى النضير وفتكه بقريظة ثم محاربه خيبر ثم في صلحه مع سكان وادى القرى وفدك وتيما لم يك معتديا ولا جائرا وإنما فعل ما اعتقد ان مصلحة جماعته تقضى به حرصا على مستقبلها وكيانها ، ولا نشك في ان اليهود لو انصفوه وعاملوه بما كان يعاملهم به من الرعاية

والحرمة ، في ابتداء امره لما اريق دم من دمهم ولكن ما قدر كان
 ٤ - غزوة حنين - وكان شأن المسلمين يوم حنين شأنهم يوم بدر ويوم احد
 بالضبط اى انهم كانوا يحاربون دفاعا عن انفسهم وعن كيانهم فقد تجمعت قبائل ثقيف
 وهوازن وسعد وسارت اليهم من دون اى باعث يوجب ذلك ، ورأى المسلمون انهم
 امام خطر عظيم ، فخرجوا للقاء القبائل المتحالفة ومهاجمتها قبل ان تهاجمهم فاعتنمت
 فرصة غفلتهم وعدم اتخاذهم من التدابير ما تفضى القواعد الحربية باتخاذها فباغتتهم
 وهزمتهم ، ولولا انشغال القبائل المنتصرة بجمع الغنائم والاسلاب ، وثبات النبي ومعه
 بعض الصحابة ومناداتهم الانصار والتفاف هؤلاء حول الرسول ثم كرههم على القبائل
 المشغولة بجمع الغنائم وتغلبهم عليها ، لكانت النكبة شديدة ومما لاريب فيه انهم كانوا
 في حالة الدفاع المشروع عن النفس ، ولا نظن منصفاً يمارى في هذا او يشك فيه
 تلك هى المعارك الكبرى التى شهدها النبي بنفسه وتولى قيادتها وادار حركة
 القتال فيها وما كان المسلمون فيها بمعتمدين او باغين او ظالمين بل كانوا فى حالة الدفاع
 المشروع عن النفس

بقيت هنالك غزوات اخرى غزاها او سرايا سيرها فى خلال تلك المدة الطويلة
 فقد بلغ عدد غزواته مع الغزوات الاربع التى تقدم الكلام عليها ٢٤ غزوة هذا
 بيان عنها وعن عدد قتلها :

بيان عمر الغزوات

ملاحظات	اسم الغزوة	قتلى خصومهم	قتلى المساميين
لاقتال فيها	١ - ودان او الابواء		
» » »	٢ - بواط		
» » »	٣ - بدر الاولى		
» » »	٤ - العشيرة		
	٥ - بدر الكبرى	٧٠	٨
لاقتال فيها	٦ - بنو سليم		
» » »	٧ - بنو قينقاع		
	٨ - السويق		٢
لاقتال فيها	٩ - امرأوغطفان		
	١٠ - احد	٢٣	٧٠
لاقتال فيها	١١ - حمراء الاسد		
» » »	١٢ - بنو النضير		
» » »	١٣ - ذات الرقاع		
» » »	١٤ - بدر الثالثة		
» » »	١٥ - دومة الجندل		
» » »	١٦ - المريسيع		
	١٧ - الخندق	٣	٦
قتل كل رجالها اليهود	١٨ - بنو قريظة		١
لاقتال فيها	١٩ - بنو لحيان		
	٢٠ - ذو قرد		١
	٢١ - خيبر و وادي القرى	٩٣	١٥
	٢٢ - فتح مكة	٢٨	٢
	٢٣ - حنين والطائف	مجهول	١٢
لاقتال فيها	٢٤ - تبوك		
		٢١٧	١١٧

بيان عن السرايا

وهذا بيان آخر باسماء السرايا التي سيرها وعددها وعدد القتلى فيها :

ملاحظات	اسم السرية	قتلى خصومهم	قتلى المسلمين
لاقتال	١ - سرية حمزة		
» »	٢ - سرية عبيدة بن الحارث		
» »	٣ - سرية سعد بن ابى وقاص		
	٤ - سرية عبد الله بن جحش	١	
لاقتال	٥ - سرية زيد بن حارثة		
تبشير بالدين	٦ - سرية الرجيع		٥
» »	٧ - سرية بئر معونة		٦٩
لاقتال	٨ - سرية عكاشة بن محصن الاسدى		
» »	٩ - سرية محمد بن مسامة الى ذى القصة		٩
لاقتال	١٠ - سرية ابى عبيدة الى غطفان		
» »	١١ - سرية زيد بن حارثة الى بنى سليم		
» »	١٢ - » » » » العيص		
» »	١٣ - » » » » الى جذام	٢	
» »	١٤ - » عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل		
» »	١٥ - » على بن ابى طالب الى بنى سعد		
» »	١٦ - » عمر بن الخطاب الى هوازن		
	١٧ - » ابى بكر الى بنى كلاب		مجهول العدد
لاقتال	١٨ - » بشير بن سعد الى بنى مرة		

ملاحظات	اسم السرية	قتلى خصومهم	قتلى المسلمين
لاقتال	١٩ - سرية غالب الليثي الى نجد	مجهول	
لاقتال	٢٠ - « بشير بن سعد الى غطفان		
	٢١ - « الاجزم الى بنى سليم		٤٩
لاقتال	٢٢ - « غالب الليثي الى كديد		
	٢٣ - « » » الى بنى مرة	مجهول	
لاقتال	٢٤ - « شجاع بن وهب الى هوازن		
	٢٥ - « كعب الغفاري الى ذات اطلاق »		١٤
	٢٦ - سرية مؤتة	مجهول	١٢
لاقتال	٢٧ - « عمرو بن العاص الى ذات السلاسل		
لاقتال	٢٨ - « ابى عبيدة الى سيف البحر		
قتال	٢٩ - « ابى قتادة الى نجد	مجهول	مجهول
لاقتال	٣٠ - « » » الى اضم		
قتال	٣١ - « خالد بن الوليد الى جذيمة	مجهول	
لاقتال	٣٢ - « عينية بن حصن الى تميم		
لاقتال	٣٣ - « خالد بن الوليد الى نجران		
لاقتال	٣٤ - « اسامة بن زيد الى فلسطين		

هذا هو بيان السرايا وعددها ٣٤ وهنالك من يضيف اليها سرايا ارسلت
 لاغراض خاصة كهدم الاوثان والاصنام فيجعلها ٣٨ كما ان هنالك من يزيد في الغزوات
 ويجعلها ٢٧ او ينقصها الى ٢٦

عدد قتلى المسلمين في جميع المعارك

فمن هذا الاحصاء يتبين ان عدد الذين قتلوا من المسلمين في جميع الغزوات التي غزاها النبي وعددها ٢٥ غزوة لم يزد عن ١١٨ قتيلا كما ان عدد قتلى السرايا بلغ ٢١٧ يخرج منهم ٧٤ وهم قتلى الرجيع وبئر معونة وقد ارسلاوا للتبشير لا لغزو ولا لفتح فلا يبقى سوى ١٤٣ قتيلا وباضافتهم الى مجموع قتلى الغزوات يبلغون ٢٥٨ قتيلا وهم كل ما فقدته المسلمون في ٥٨ بعثا عسكريا سيروها في خلال ٩ سنوات واثموا فيها فتح الحجاز واليمن وجانبا من الشام

عدد قتلى غير المسلمين

ويدل هذا البيان على ان قتلى خصوم المسلمين ومنافسيهم لم يزد فيما وصل اليه عن ٢٢٠ منهم ٢١٧ في الغزوات و٣ في السرايا يخرج منهم قتلى اليهود في خير وعددهم ٩٣ فلا يبقى سوى ١٢٠ قتيلا يضاف اليهم مثلهم في المعارك التي لم يذكر عدد القتلى فيها وهو اكبر تقدير فيبلغ المجموع ٢٤٠ قتيلا سقطوا في خلال تسع سنوات . ولا يدخل في هذا الاحصاء قتلى بني قريظة اليهود

ويسلم الباحث النصف بعد اطلاعه على هذا البيان و بعد اطلاعه على عدد الغزوات والسرايا والبعوث وعدد قتلى الفريقين بانه لم يكن هنالك قتال بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولا ارباب ولا ارهاق وان السيف لم يكن العامل الوحيد في فتح الحجاز واليمن وبعض اطراف الشام ، وانما هو تضامن المسلمين واتحادهم والتفافهم حول نبيهم ، واتباعهم تعاليمه ، وحسن نظامهم الداخلي ، وشدة ايمانهم ، وسمو الغاية التي يعملون لأجلها ، ويستمتتون في سبيلها ، يقابل هذا تفرق كلمة خصومهم وتشتتهم وعدم وجود روابط متينة تربطهم واعتقاد اكثرهم بعدم صحة العقيدة التي كانوا يدافعون عنها وشتان ما بين الفريقين

وجملة القول ان الاسلام لم يوطد ولم ينتشر ويعظم الا بفضل سمو
تعاليمه ، واخلاص رجاله الاولين ، وتضامنهم وتفانيهم في سبيل تأييده واقتحامهم
الاهوال والمخاطر لرفع كلمته وشأنه ، ولا بد من اتصاف قوم هذه حالهم وفوزهم
ونجاحهم

فتح نجد

جـ

معلومات جغرافية موجزة عنها

يطلقون اسم نجد في الوقت الحاضر على هذه المنطقة الواسعة في قلب جزيرة العرب ، وكانوا يعدونها من اجزاء الحجاز غير انهم اصطلاحوا على الاسم الجديد واعتبروا نجدا مقاطعة مستقلة

وتقع نجد في شرقي الحجاز وتبدأ حدودها في الوقت الحاضر من ذات عرق وهو مكان يبعد عن وادي السيل المعروف في الحجاز ، وتمتد حدودها نحو الدهناء في الشرق

ويشمل هذا التحديد الارض التي يحدها جبل شمر ومنطقة الهضاب الحجازية شرقي سلسلة جبال الحجاز وعسير في الغرب والصحراء الكبرى من الجنوب والدهناء وتفصل بين نجد والحسا من الشرق

وكانت نجد في العهد العثماني خاضعة لتركيا وفيها امارتان مستقلتان استقلالا اداريا داخليا : امارة آل السعود في العارض (السهل) و امارة آل الرشيد في شمر (الجبل) ثم تغلب السعوديون فاكتسحوا نجدا كلها وبسطوا نفوذهم على الحجاز كما تقدم

وفود نجد في المدينة

كانت معركة حنين آخر معركة عسكرية تولى قيادتها النبي بالذات وادار رحاها. كما كانت آخر قتال شهده، وبها انتهى فتح الحجاز عمليا، فلم يرتفع بعد ذلك للوثنية رأس، ولم تقع بعدها معركة خطيرة الشأن، فأقبلت قبائل جزيرة العرب كلها الى المدينة تقدم خضوعها للمسلمين، وتدخل في دينهم

وكانت قبائل الشرق او قبائل نجد، كما نسميها الآن، تنتظر نتيجة العراك الدائر بين مكة والمدينة فاما خضعت هذه وانتشر الاسلام في ربوعها وعلت كلمة المسلمين، هرع رؤساؤها وزعمائها الى المدينة معلنين اسلامهم وكان وفد بني تميم في المقدمة وتقع بلادهم في منتهى الشرق من القصيم ولا تزال هذه القبيلة في نجد واكثر المدن والقرى النجدية تضم عناصر من تميم وقد تحضر جانب منها وتنقسم تميم في نجد اليوم الى ثلاثة بطون وهي :

١ - بطن حنظلة بن مالك بن زيد بن مناة

٢ - بطن سعد بن زيد بن مناة بن تميم

٣ - بطن عمرو بن تميم

وفي العراق ايضا قبائل تنسب الى هذه القبيلة وتنزل في اطراف بغداد

١ - وفود بني تميم

وتألف وفد بني تميم برئاسة عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدى التميمي وقصد المدينة يمثل تيمما بانخادها وقبائلها وهذه اسماء رجاله :

الاقرع بن حابس التميمي والزبرقان بن بدر من بني سعد وعمرو بن الاهتم

والحُتات بن يزيد ونعيم بن يزيد وقيس بن الحرث وقيس بن عاصم اخو بنى سعد
وثابت بن قيس وجاء معهم عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى وقد شهد فتح
مكة وحينئذ مع المسلمين فألقوا الخطب والقصاص ودخلوا فى الاسلام

٢ - وفد بنى هنيئة

وقدم بعد ذلك وفد بنى هنيئة (اليمامة فى نجد) فأساموا ايضا وجاء معهم مسيلمة
ابن حبيب الحنفى ويكنى ابا ثمامة وهو الذى ادعى النبوة فى اليمامة وقاتل المسلمين بعد
ذلك

٣ - وفد طيء

وجاء وفد طيء (نجد) فأساموا وعادوا الى بلادهم

وفود اخرى

وتتابعت الوفود من جميع اطراف نجد وخضعت هذه البلاد للمسلمين ولا تزال
على ذلك حتى الآن

فتح اليمن وحضرموت

اليمن

معلومات جغرافية عامة

اليمن قطر عربي واقع في جنوبي جزيرة العرب الغربي ، وطوله من الشمال الى الجنوب (ماعدا عسيرا وتهامة) ٧٥٥ كيلومترا ومن الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ كيلومتر

وتنقسم بلاد اليمن الى قسمين : سهلي وجبلي ، ويطلقون على السهلي اسم تهامة وتتصل حدوده الشمالية بالحجاز ، وكانت بعض قبائل تهامة مرتبطة برابطة التحالف مع قريش

وحدود اليمن الحاضرة كما يأتي : شرقا الاحقاف وغربا البحر الاحمر وشمالا الحجاز وجنوبا النواحي التسع وعدن . وفيه حكومة عربية مستقلة

اما حضرموت فقطر عربي في جنوبي الجزيرة ايضا ، ويعده بعض الجغرافيين من مخاليف اليمن ، وكان منه في الاصل ، اما الآن فهو مستقل استقلال تاما ، ويحده من الشرق شعب وادي الزهور ، ومن الغرب عين باسعيد ومن الشمال رمال نجد والربع الخالي ، ومن الجنوب البحر العربي ، ومساحته السطحية نحو ١٢٠ الف كيلومتر مربع

وفي حضرموت حكومتان عربيتان : حكومة القعيطيين في الساحل وحكومة

الكثيرين في الداخل وهما مشمولتان بالحماية البريطانية

دولة التباينة في اليمن

اليمن اقرب الاقطار العربية الى الحجاز فهو جارها الادنى ويتصل بها من الشمال اتصالا وثيقا وجبال السراة التي تشقه بتبديء من شمالي الحجاز فليس هناك فاصل طبيعي يفصل بينهما ، ولا اختلاف عادات يفرق بينهما ، ولا حكومة اجنبية قوية كما كان الحال في الشام والعراق عند ظهور الاسلام، تحول دون اتصالها وما كانت حالة اليمن الاجتماعية عند ظهور الاسلام تختلف كثيرا عن حالة الحجاز، فكانت في اليمن كما كانت في الحجاز، قبائل مشتتة الشمل ، مفككة انعقد لانظام ينظم امورها ، ولا حكومة تشرف على شؤونها

واول دولة عربية نشأت في اليمن ووصلت اليها اخبارها دولة سبأ الاولى وكانت مأرب عاصمتها . وسبأ هذا هو والد قحطان ، وقد نزع من شمالي الجزيرة (اي من العراق) في القرن الثامن قبل الميلاد ، بعد فوز الاشوريين ، فتغلب برجاله على اليمن وانشأوا فيها دولتهم « دولة سبأ » وقد اشتهرت بتأسيسها سد مأرب لاتقاء السيول وكانت تنزل في وادي يسمونه وادي الميزاب يرتفع الف ومئة متر عن سطح البحر وتحيط به الجبال من كل ناحية ، ويضيق من جهتيه الشرقية والشمالية وينحصر بين جبلين يسمونهما بلق الايمن وبلق الايسر في مسافة يقال انها ٦٠٠ خطوة

وكان طول السد الذي بناه السبئيون ٨٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠ ذراعا وكان على مسافة قليلة من مضيق الوادي فكون مع جانبي البلقين الخارجيين مجرى عموديا على المضيق حول الماء من مجراه الاصلى وكان ذلك في القرن السادس قبل الميلاد وفي عهد الملك يشعم ، وزاد خلفاؤه فيه من بعده ، وبنوا له الفتحات فصير البلاد جنانا ، ونظم

الزراعة ورقاها، وجنوا منه اطيب الثمرات، وظلوا على ذلك حتى انفجر السد وانهدم
ويقال ان ذلك كان في القرن الثالث للميلاد، فخلوا عن اليمن وتفرقوا في الحجاز ونجد
والعراق والشام فكانت منهم كئنة في نجد والمناذرة في العراق والغساسنة في الشام
وقضاة والاوس والحزرج في شمالي الحجاز

وانفرط عقد الوحدة الادارية في اليمن بعد سقوط دولة سبأ الاولى، وقام في كل
مدينة او قبيلة متغلب لقب بلقب « ذو » واستمروا في ذلك حتى اواخر القرن الاول
لميلاد فتغلب ذو علهان صاحب ظفار على جملة مخاليف (مقاطعات) وكون منها دولة سبأ
الثانية فبسطت نفوذها على اليمن في اواخر القرن الثالث للميلاد ثم حلت محلها دولة
التبابعة اسسها شمر برعش سنة ٢٧٥ للميلاد كما يقولون

وهذا جدول باسماء ملوك هذه الدولة ويلقب ملكها بتبع ومعناه ملك الملوك

اي انه معادل للفظ امبراطور في هذا العهد

شمر برعش	من سنة ٢٧٥	الى سنة ٣٠٠ م
ذو القرنين الصعب	« « ٣٠٠	« « ٣٢٠
عمرو زوج بلقيس	« « ٣٢٠	« « ٣٣٠
بلقيس (غير بلقيس سليمان)	« « ٣٣٠	« « ٣٤٥
المهداد ابو بلقيس	« « ٣٤٥	« « ٣٧٤
مليكيرب ينعم	« « ٣٧٤	« « ٣٨٥
ابو كرب اسعد	« « ٣٨٥	« « ٤٢٠
حسان بن اسعد	« « ٤٢٠	« « ٤٢٥
شرحبيل بن يعمر بن اسعد	« « ٤٢٥	« « ٤٥٥
« « ينوف	« « ٤٥٥	« « ٤٧٠
معدى كرب ينعم وابنه لحيعة	« « ٤٧٠	« « ٤٩٥
مرثد اللات ينوف	« « ٤٩٥	« « ٥١٥
ذو نواس	« « ٥١٥	« « ٥٢٥
ذو جدن	« « ٥٢٥	« « ٥٣٥

و بين المؤرخين من يورد قائمة أطول ملوك هذه الدولة والارجح ماوردناه
وتعد دولة التبابعة هذه من اعظم الدول العربية التي نشأت في جنوبى الجزيرة
وما كانت حضارتها لتقل عن حضارة دول العرب فى شمالها ، وكانت الزراعة والصناعة
والتجارة نامية فى عهدها ، وقد شمل نفوذها بعض الاقطار العربية المجاورة لها
ويقال فى اسباب سقوطها ان ذوزين - وهو آخر ملوكها - اذا استئينا ذو جدن
وقد نهض بعد انقراضها - جار على نصارى نجران من رعاياه - ونجران مخالف
يمانى كبير يقع فى شمالى اليمن بينها وبين عسير ونجد - فقتلهم واحرقهم ظاماً وعدوانا
ويقال انهم اصحاب الاخدود الوارد ذكره فى القرآن فاستجدوا بقيصر الروم - وكان
يومئذ جوستينيان - ولما كانت بلاد القياصرة بعيدة عن اليمن وكانت جيوشهم لاتبلغها
الا بشق النفس لصعوبة المواصلات فى ذلك العهد ، كتب هذا الى نجاشى الحبشة وهو
مسيحى مجاور لليمن ، وبينهما البحر الاحمر ، يرجوه ان يسير لنجدة ابناء دينه
فجهز على اليمن جيشا بقيادة ارباط احد قواده ، فقاتلهم ذو نواس عند نزولهم ثم تحاذل
وخاف ففر ، ومات غريقا ، فانهارت بموته دولة التبابعة وبسط الاحباش نفوذهم على
اليمن واستصفوها ، ثم مدوا بنظرهم الى الحجاز وحاولوا ضمه الى اليمن فسار ابرهة
(احد قوادهم) فى جيش لجب (جيش اصحاب الفيل) وظل يتقدم ، والظاهر انه جاء
بطريق صنعاء - ابها - الطائف - وهو اقصر الطرق واقربها حتى بلغ ابواب مكة من
دون مقاومة ، وقد قعدت قريش لانها ادركت عجزها عن مقاومة جيش الحبشة القوى
المنظم ، والمسلح بالاسلحة الكاملة ، فاستسلمت الى حكم القضاء وتركت الامر لله قائلة
« ان للبيت رباً يحميه » وحدث ماحدث بعد ذلك من ارتداد هذا الجيش وانسحابه
وعجزه عن القيام باى عمل وقد فسر بعض مفسرى القرآن لفظ «حجارة سجيل»
وقد جاء فى القرآن ان طير الابابيل ألقتها عليهم فهزمتهم ، بانها جرائم الامراض
والاوبئة انتشرت بينهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة فعادوا الى صنعاء بالحياة والفشل
واغتتم احد امراء التبابعة وهو ذو جدن فرصة النزاع الذى اشتد فى
اوائل القرن السابع بين الروم والفرس او بين الزردشتية والمسيحية ، فقصده

المدائن مستنصرًا بالفرس على الروم ، وعاملا على اقناع هؤلاء بمساعدته للتغلب على النصرانية فلقى منهم ارتياحا وهوى ، وكانت الحروب بين الفريقين على اشدها في ميدان الشام ، فارسل كسرى معه جيش المسجونين بقيادة احد رجاله وقال ان فتحوا اليمن فهى لنا وان هلكوا استرحنا منهم ، ويؤخذ مما رواه المؤرخون انهم جاءوا الى اليمن من طريق البحر اى انهم ركبوا السفن من الخليج الفارسى فاجتازت بهم المحيط الهندى حتى البحر الاحمر وانزلتهم فى الشاطىء اليماني، فنازلوا الاحباش وهزموهم وقضوا على الحكم الحبشى ولوا اذا جدن الملك ، ويقال ان عبد المطلب جد النبي قصد صنعاء ليهنىء الملك التبعى الجديد بما ادركه من نجاح وفوز فاكرم وفادته

ووثب الحجاب - وكانوا من الاحباش - على ذى جدن فقتلوه فاغتمت الفرس الفرصة ووضعوا يدهم على البلاد ، وتدل الدلائل على ان العامل الفارسى فى صنعاء كان يتمتع باستقلال واسع النطاق لبعده اليمن عن المدائن وصعوبة المواصلات واراد كسرى ابرويز استغلال صلته باليمن ، حين ما وصل اليه كتاب الرسول فكتب الى باذان عامله فى اليمن (انظر ص ١٢٤) يأمره بان يرسل رجلين من قبله الى المدينة يأتیان به الى المدائن . فلما جاء اخبرهما الرسول بقتل الملك صاحب الامر واعادها الى صنعاء فقضا على صاحبهما ما وقع فاسلم ، فكان اسلامه مقدمة لانتشار الاسلام فى تلك الربوع ودخولها فى طاعته

اول بعث اسرى الى اليمن

شغل المسامون بامر الحجاز في السنوات الاولى فأهملوا كل ما عداه عاملين بالقاعدة القائلة بتقديم الأهم ، ففتح الحجاز واخضع قبائله ، كان في نظرهم مقدما على اى عمل في الاقطار العربية المجاورة لهم
 واذا صح مارواه المؤرخون فيكون اليمن اول قطر عربي عمل المسامون على نشر دينهم في ربوعه ، بعد فتح الحجاز وخضوع نجد وكانت تعد يومئذ جزءا منه .

١ — بعث علي بن ابي طالب

ارسل النبي ﷺ على اثر فتح مكة اى في السنة الثامنة للهجرة ، بعثا الى اليمن بقيادة علي بن ابي طالب ، فسارت بطريق الطائف - اها - حتى صنعاء ، ويقول مؤرخ يمانى ان عليا لم يلق مقاومة في طريقه ، وانه نزل حين وصوله الى صنعاء عند ام سعيد البرزخية وكانت اول امرأة اسامت من اهل اليمن ، فتعلمت القرآن ، وقد حول بيتها بعد ذلك الى مسجد لا يزال قائما حتى اليوم في صنعاء واسمه مسجد علي عليه السلام

واسامت قبيلة همدان على يده وهي من قبائل اليمن الكبرى وتنزل حول صنعاء وفي جوارها ولا تزال في ديرتها القديمة حتى اليوم ، فكتب الى النبي من صنعاء يبشره بدخولها في الاسلام نفر ساجدا شكرا لله ، وبذلك تكون همدان اول قبيلة يمانية دانت للإسلام

٢ - سرية قيس بن سعد

وارسل النبي من الجعرانة حين منصرفه من الطائف وذلك في السنة الثامنة سرية عددها ٤٠٠ مقاتل بقيادة قيس بن عباد الخزرجي الى اليمن ويقول مؤرخو السيرة النبوية ان قيسا تلقى امرا بان يقصد قبيلة صداء اليمانية ويقول معجم البلدان ان صداء مخلاف في اليمن بينه وبين صنعاء ٤٢ فرسخا. وقد بحثنا في اسماء مخاليف اليمن الحديثة واسماء قبائلها المدونة فلم نعث على اسم لها لابن المخاليف ولا بين القبائل . ويلوح لنا انها محرف كلمة « صعاء » في الوقت الحاضر ، وصعاء من المراكز الكبرى في شمالي اليمن وهي قريبة من ابها ، أى انها اقرب الى الحجاز من صنعاء وهي في شماليها وتبعد عنها نحو ٢٥٠ كيلومترا وبين صنعاء وابها نحو ٢٢٠ كيلومترا وبين الطائف وابها نحو ٦٠٠ كيلومتر

ولم تصل هذه السرية الى المكان الذي اتدبت للسفر اليه فقد جاء المدينة على أثر رحيلها زياد بن الحارث الصدائي وقابل النبي وقال له يارسول الله انى رسول قومى اليك فاردد الجيش وانا اتكفل باسلامهم وطاعتهم قال فاذهب الى السرية فردها ، قال ان ناقتى قد كلت . فارسل من يردهم . ودخل قومه بعد ذلك فى الاسلام

وفود اليمانيين في المدينة

واستقبل النبي أيضا وفودا عديدة جاءت من اليمن بعد فتح مكة و بعد ما اعترفت
المسلمون فتح ذلك القطر العظيم هذا بيان عنها :

١ - وفد صداء

وكان وفد الصدائيين اول وفد يمانى قدم المدينة فقد جاء مع الحارث بن
ابى زياد الصدائى كما تقدم واعلن دخول قومه فى الاسلام و بايع باسمه واسمهم

٢ - وفد همدان

وقدم بعد ذلك وفد همدان الى المدينة فى السنة التاسعة بعد رجوع النبي
من غزوة تبوك ، وكان يتألف من مالك بن نمط و ابى ثور وهو ذو المشعار
ومالك بن ايفع وضام بن مالك السامانى وعميرة بن مالك الحارفى فلقوا النبي واعلنوا
اسلامهم و بايعوه على السمع والطاعة فكتب لهم الكتاب الآتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من رسول الله محمد لمخلاف خارق واهل جناب الهضب وحقاف
الرميل مع وافدها ذى المشعار لمالك بن نمط ومن اسلم من قومه على ان لهم فراعها
ووهاطها ما اقاموا على الصلاة و آتوا الزكاة يأكلون علافها ، و يرعون عافياها ، لهم
بذلك عهد الله و ذمام رسوله و شاهدهم المهاجرون و الانصار »

٣ - وفد حمير

ووفد على المدينة في الوقت نفسه ، اى بعد رجوع النبي من غزوة تبوك ، وفد يتألف من الحرث بن عبد كلال ونعيم بن عبد كلال والنعمان قيل ذو رعين ومعاfer وهمدان ، يحمل اليها كتب ملوك حمير باسلامهم وانضمامهم الى الدولة الاسلامية الجديدة فكتب الرسول اليهم الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله النبي الى الحرث بن عبد كلال والى نعيم بن عبد كلال والى النعمان قيل ذى رعين ومعاfer وهمدان : اما بعد ذلك فانى احمد اليكم الله الذى لا اله الا هو

اما بعد فقد وقع بنا رسولكم منقلبا من ارض الروم فلقينا بالمدينة فبلغ ما ارسلتم به وخبر ما قبلكم وانبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهداه ، ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة واعطيتم المغام خمس الله وسهم النبي وما كتبه على المؤمنين من الصدقة : من العقار عشر ما سقت العين وسقت السماء ، وعلى ماسقى الغرب نصف العشر ، ان فى الابل الاربعين ابنة لبون وفى ثلاثين من الابل ابن لبون ذكر ، وفى كل خمس من الابل شاة ، وفى كل عشرة من الابل شاتان ، وفى كل اربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبوع جذع او جذعة ، وفى كل اربعين من الغنم سائمة وحدها شاة ، وانها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خير له ومن ادى ذلك واشهد على اسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فانه المؤمن له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله وانه من اسلم من يهودى او نصرانى فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن كان على يهوديته او نصرانيته فانه لا يرد عنها وعليه الجزية ، على كل حالم : ذكر او اثنى ، حر او عبد ، دينار واف من قيمة المعافر أو عوضه ثيابا ، فمن ادى ذلك الى رسول الله فان له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فانه عدو لله ولرسوله »

٤ - وفد زرعة ذى يزن

وجاء مع هذا الوفد ايضا مالك بن مرة الرهاوى يحمل كتاب زرعة ذى يزن
معلنا دخوله فى الاسلام فكتب اليه كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان محمدا يشهد ان لا اله الا الله وانه عبده ورسوله ثم ان مالك بن
الرهاوى قد حدثنى انك اسلمت من اول حمير وقتلت المشركين فابشر بخير وامرك
بحمير خيرا ، ولا تخونوا ولا تحاذلوا فان رسول الله هو ولى غنيكم وفقيركم وان الصدقة
لا تحل لمحمد ولا لأهل بيته وانما هى زكاة يزكى بها على فقراء المسلمين وابن السبيل
وان مالك قد بلغ الخبر ، وحفظ الغيب وامركم به خيرا . وانى قد ارسلت اليكم من
صالحى اهلى واولى دينهم واولى علمهم وامركم بهم خيرا فانهم منظور اليهم والسلام
عليكم ورحمة الله وبركاته »

٥ - وفد امرى

وجاء الى المدينة ايضا وفد بنى زبيد برئاسة عمرو بن معديكرب الزبيدى
وفد بنى خولان ووفد الاشعريين وينسبون الى اشعربن ادد وغامد وغيرها وكان
وفد النخع آخر وفد قدم المدينة فى حياته وكانوا بايعوا معاذ بن جبل من قبل فكتب
لهم الكتب يبين فيها شرائع الاسلام على مثال الكتب التى اثبتناها ويقال انه قال فى
وفد الاشعريين حينما جاءوه : « اناكم اهل اليمن كانوا السحاب وهم خيار من فى
الارض »

وهكذا انتشر الاسلام فى اليمن وحضرموت ودخل هذا القطر العظيم فى الدين



المسجد العمري الكبير في صنعاء (اليمن)

وفود المسلمين الى اليمه

١ - وفد معاذ بن جبل

كان معاذ بن جبل الانصارى رئيس اول وفد اوفده المسلمون الى اليمن فقد اتدبه النبي على رأس بعثة قوامها عبد الله بن زيد ومالك بن عباد وعقبة بن نمر ومالك بن مرة وامرهم بان يسافروا اليها ليعلموا أهلها الاسلام وقيموا الصلاة وحبوا الزكاة والصدقات وهذا نص الكتاب الذى وجهه الى زرعة ذى يزن فى هذا الشأن :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد فان رسول الله محمدا النبي ارسل الى زرعة ذى يزن انه اذا اتاكم رسلى فاصيكم بهم خيرا ، معاذ بن جبل وعبد الله بن زيد ومالك بن عباد وعقبة بن نمر ومالك بن مرة واحبابهم ، وان اجمعوا ما عندكم من الصدقة والجزية من مخاليفكم وابلغوها رسلى وان اميرهم معاذ بن جبل فلا ينقلب الا رضيا »

ولما ازمع معاذ السفر مع اخوانه اوصاه النبي بالوصايا الآتية :

« يسر ولا تعسر ، و بشر ولا تنفر ، وانك ستقدم على قوم من اهل الكتاب

يسألونك مامفتاح الجنة فقل شهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له »

٢ - وفد عمرو بن هزاهم الى حبراه

وفى شهر ربيع الاول من السنة العاشرة اى بعد رجوع النبي من تبوك وكانت

فى شهر رجب من السنة التاسعة ، جهز المسلمون سرية عددها ٤٠٠ مقاتل بقيادة

(م - ١٢)

خالد بن الوليد للزحف على بنى الحرث بن كعب من نجران ، وكانت لم تسلم ولم توفد
وفدا الى المدينة

ونجران مخلاف (مقاطعة) يمانية كبيرة . واقعة في شمالي اليمن بينها وبين نجد

وعسير

وكان اهل نجران يدينون بالمسيحية بعكس جيرانهم الوثنيين ، وقد اوصى النبي
خالدا حينما سيره ، بان يدعوهم الى الاسلام قبل القتال ثلاث مرات ، فان دخلوا فيه
وقبلوه فيقيم بينهم يعلمهم الاسلام والكتاب وان ابوا فليقاتلهم

ووصل خالد الى نجران فنزل فيها وارسل الرسل في المدن والقرى يدعون
الناس الى دخول الاسلام ، ويقولون لهم اسمعوا تسامعوا فدخلوا في الدين فاقام خالد
بينهم يعلمهم ويرشدهم وارسل الى النبي من مقره هنالك الكتاب الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الى محمد النبي رسول الله من خالد بن الوليد

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته.فانى احمد اليك الله الذى لا اله الا
هو . اما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني الى بنى الحرث بن كعب وامرتني
اذا اتيتهم الا اقاتلهم ثلاثة ايام وان ادعوهم الى الاسلام فان اسمعوا قبلت منهم وعامتهم
معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسمعوا قاتلتهم . وانى قدمت عليهم فدعوتهم
الى الاسلام ثلاثة ايام كما امرنى رسول الله وبعثت فيهم ركبانا قالوا يا بنى الحرث اسمعوا
تسامعوا ، فاسامعوا ولم يقاتلوا وانا مقيم بين اظهريهم وامرهم بما امرهم به الله وانهاهم عما
نهاهم الله عنه واعامهم معالم الاسلام وسنة النبي حتى يكتب الى رسول الله والسلام
عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته

وعلى اثر وصول هذا الكتاب ارسل النبي الى خالد الرد الآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله الى خالد بن الوليد :

سلام عليك ، فانى احمد الله اليك الذى لا اله الا هو : اما بعد فان كتابك

جاءنى مع رسلك بنجران بان بنى الحرث قد اساموا قبل ان يقاتلوا واجابوا مادعوتهم اليه من الاسلام وشهادة ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله وان قد هداهم الله بهداه فبشرهم وانذرهم واقبل وليقبل معك وفداهم والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

بيان نبوى الى اهل اليمن

وعاد خالد على الأثر الى المدينة مع وفد منهم يعلن اسلامهم ودخولهم فى الدين فلم يكتبوا طويلا فى المدينة بل عادوا الى اوطانهم ، وارسل النبي معهم عمرو بن حزام يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة و يأخذ صدقاتهم وزوده بالبيان الآتى وهو منشور عام الى اهل اليمن :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا بيان من الله ورسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

« عهد من محمد النبي رسول الله لعمر بن حزم حين بعثه الى اليمن ، امره بتقوى الله فى امره كله فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وامره ان يأخذ بالحق ، كما امره ان يبشر بين الناس بالخير ويأمرهم به ، ويعلم الناس القرآن ويفقههم فيه ، وينهى فلا يمس القرآن انسان الا وهو طاهر ، ويخبر الناس بالذى لهم والذى عليهم ، ويلين للناس فى الحق ، ويشدد عليهم فى الظلم ، فان الله كره الظلم ونهى عنه فقال : الالعة الله على الظالمين ، ويبشر الناس بالجنة وبعملها ، وينذر الناس النار وعملها ، ويتألف الناس حتى يفقهوا فى الدين ، ويعلم الناس معالم الحج وسننه وفرائضه ، وما امر الله به ، والحج الاكبر هو الحج ، والحج الاصغر هو العمرة ، وينهى الناس ان يصلى احد فى ثوب واحد صغير الا ان يكون ثوبا يثنى طرفيه على عاتقيه ، وينهى الناس ان يحتبى احد فى ثوب واحد يفضى بفرجه الى السماء ، وينهى ان يعقص احد شعر رأسه فى قفاه ، وينهى اذا كان بين الناس هيج ، عن الدعاء الى القبائل والعشائر ، وليكن دعواهم الى الله عز وجل وحده لا شريك له ، فمن

لم يدع الى الله ودعا الى القبائل والعشائر فليقطعوا بالسيف حتى تكون دعواهم الى الله وحده لا شريك له

« ويأمر الناس باسباغ الوضوء وجوههم وايديهم الى المرافق وارجلهم الى الكعبين ويمسحون رؤوسهم كما امرهم الله ، ويأمر بالصلاة لوقتها، واتمام الركوع والسجود والخشوع ويغسل بالصبح، ويهجر المهاجرة حين تميل الشمس، وصلاة العصر والشمس في الارض مدبرة ، والمغرب حين يقبل الليل لا يؤخر حتى تبدو النجوم في السماء ، والعشاء اول الليل ، وامر بالسعي الى الجمعة اذا نودى لها والغسل عند الراح اليها «وامر ان يأخذ من المغنم خمس الله، وما كتب على المؤمنين في الصدقة : من العقار عشر ماسقت العين وسقت السماء وعلى ماسقى الغرب نصف العشر . وفي كل عشر من الابل شاتان وفي كل عشرين اربع شياه ، وفي كل اربعين من البقر بقرة ، وفي كل ثلاثين من البقرة تبع جذع او جذعة ، وفي كل اربعين من الغنم سائمة وحدها شاة فانها فريضة الله التي افترض على المؤمنين في الصدقة ، فمن زاد خيرا فهو خير له «وان من اسلم من يهودى او نصرانى اسلاما خالصا من نفسه ودان بدين الاسلام فانه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته او يهوديته فانه لا يرد عنها، وعلى كل حالم، ذكر او اثنى، حرا او عبدا، دينارا واف او عوضه ثيابا ، فمن ادى ذلك فان له ذمة الله وذمة رسوله ومن وضع ذلك فانه عدو لله ولرسوله وللمؤمنين جميعا ، صلوات الله على محمد والسلام عليه ورحمة الله وبركاته »

٣ - سرية على بن ابي طالب الثانية

وفي السنة العاشرة ايضا جهز المسلمون سرية عددها ٣٠٠ مقاتل للسير الى اليمن بقيادة على بن ابي طالب فاما وصلت الى هنالك ففرق على اصحابه فأتوا بغنائم ثم لقي جمعا من اليمانيين فدعاهم الى الاسلام فأبوا ورموا المسلمين بالنبل والحجارة وخرج منهم رجل من مذحج يدعو الى المبارزة فبرز اليه الاسود بن خزاعي فقتله وصف على اصحابه وتمهيا للقتال ثم هاجمهم وقتل منهم ٢٠ ففرقوا وانهمزوا

فصف عن طلبهم قليلا ثم دعاهم ثانية الى الاسلام فاسلموا وعاد بعد ذلك الى مكة بطريق المدينة

هذا مجمل ما أورده كتاب السير والمغازي عن هذه السرية ، وقد اغفلوا اسم الناحية التي قصدتها واسم المكان الذي دار فيه القتال ، واسم القبيلة التي نازلت المسلمين . ويلاحظ لنا ان السرية هاجمت قبيلة بنى مذحج وهي قبيلة من كندة وتجتمع مع قبيلة الاشعريين في ادد وكانت تنزل في شمالي اليمن بقرب حدود الحجاز ولم نعر على اسم لهذه القبيلة في جداول اسماء القبائل الموجودة بأيدنا مما يدل على انها انقرضت او اندمجت في غيرها وانما عثرنا على اسماء منازلها القديمة وعلى كل حال فقد كانت هذه السرية آخر سرية وجهها المسلمون الى اليمن ، كما كان القتال الذي يقولون انه دار بين رجالها واليمنيين هو القتال الوحيد الذي دار في سبيل الاستيلاء على هذا القطر العربي الكبير ومعنى ذلك انه لم يرق دم مسلم في سبيل فتحه بعكس الاقطار الاخرى ، ولو استشهد مسلم لما امسك المؤرخون عن تسجيل اسمه . وعاد على من غزوته تلك ، وكان النبي يحج حجة الوداع في شهر ذي الحجة من السنة العاشرة فشهدها معه

حضرموت تدفّل في الاسلام

واصل الدعاة الاسلاميون الذين ارسلوا الى اليمن لنشر الدعوة الاسلامية عملهم وجابوا ذلك القطر تقريبا ، وكانت حضرموت في جملة البلاد التي دخلوها ونشروا الاسلام في ربوعها ، وكانت تعد يومئذ من مخاليف اليمن ، فدخلت بذلك في الاسلام وانتادت اليه ، ولم يشهر المسلمون في سبيل فتحها سيفا

وفود حضرموت في المدينة

وجاءت الى المدينة في السنة العاشرة وفود حضرموت وفي مقدمتها وفد كندة وعلى رأسه الأشعث بن قيس ، وكان عدد رجاله ثمانين ، فاستقبلهم النبي بعد عودته من تبوك ، ودخلوا عليه وقد تكلموا وعليهم جبب الجبر وقد كففوها بالحرير فسأل أم يساموا ؟

- بلى

- فما بال هذا الحرير في اعناقهم ؟ شقود منها فشقود والقود

وجاءت وفود اخرى من حضرموت

فتح البحر بن و عمان

البحرين وعمان

معلومات جغرافية موجزة

البحرين ، او جزر اوال ، اسم لمجموع جزر متجاورة ، في خليج فارس هي المنامة ، والمحرق ، والرقاع ، ولحد ، والبديع تبلغ مساحتها السطحية ٥٥٢ كيلومترا وعاصمتها السياسية المحرق ، وفيها مقر شيخها ، وسكانها عرب ، وهي مشمولة بالحماية البريطانية في الوقت الحاضر

عمان ، مقاطعة عربية واسعة تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب وتمتد حدودها من ظفار في حضرموت حتى قطر على الخليج الفارسي . ومن البحر العربي حتى الربع الخالي وفي عمان اليوم حكومتان : حكومة مسقط وعاصمتها مسقط ، وحكومة عمان وعاصمتها نزوى وهي مقر الامامة الاباضية

ومساحة مسقط وعمان مجتمعين ١٤٠ الف كيلومترا مربعا وطول ساحلها ٤٠٠ كيلومتر مربع وسكانهما عرب مسامون . والاولى مشمولة بالحماية البريطانية ويشمل نفوذها الساحل والثانية مستقلة استقلالاً تاماً وتحكم داخلية البلاد

كيف اسلمت البحرين

كانت البحرين خاضعة خضوعاً اسمياً لدولة المناذرة في جنوبي العراق عند ظهور الاسلام، فاما بدأ المسلمون بنشر دعوتهم ارسل النبي ﷺ العلاء بن الحضرمي الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين يدعوه الى الدخول في الاسلام فأسلم
وقدم في السنة التاسعة الى المدينة وفد عبد القيس من البحرين وعلى رأسه الجارود بن عمرو بن حنش احد بنى القيس فقابل النبي ﷺ فدعاه الى الاسلام فدخل فيه

كيف اسلمت عمانه

كانت عمان تابعة للتبابعة في اليمن ثم انفصلت عنهم حينما ضعف امرهم ، ولما ظهر الاسلام وانتشرت دعوته قدم المدينة في السنة التاسعة وفد من الازد سكان عمان وعلى رأسهم صرد بن عبد الله الازدي فأساموا وعادوا الى بلادهم

عروب الردة

امر وفاة النبي في جزيرة العرب

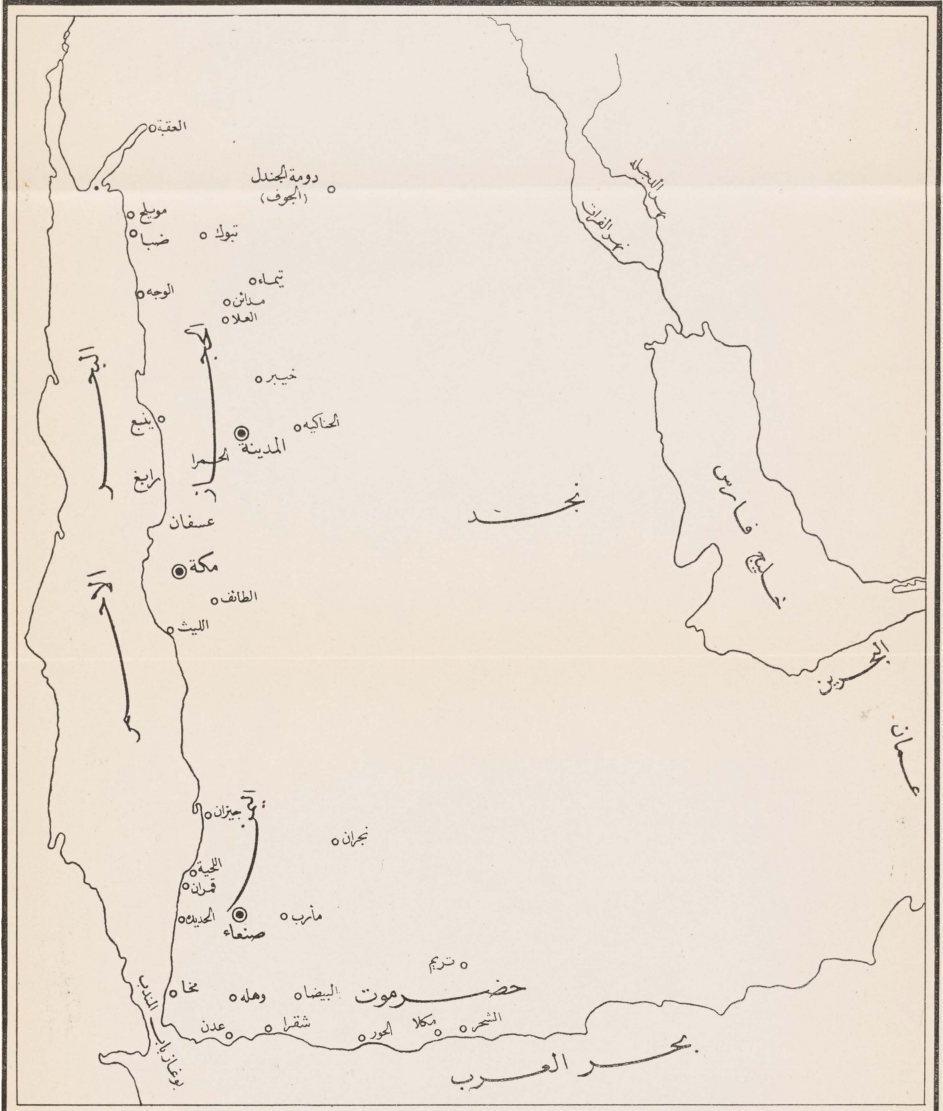
في صباح يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ للهجرة (٨ مايو سنة ٦٣٣) قبض رسول الله ﷺ الى رحمة ربه وهو في الثالثة والستين من العمر ، قضى منها ٢٣ سنة يجاهد في تبليغ رسالته ، ونشر دعوته ، فأدرك من التوفيق والنجاح ماقرت به عينه وعين البشرية ، ورجعت نفسه الى ربها راضية مرضية

لقد جاء بدين هو افضل الاديان واكملها واسماها ، لم يلبث ان انتشر في اربعة اقطار المعمور فدخل فيه الناس افواجا افواجا ، وسن شريعة اجمع الباحثون على انها ارقى شريعة سماوية عرفها البشر في تاريخهم ، وأسس هيئة اجتماعية جديدة على دعائم ثابتة من الاخاء والمساواة والحرية ، كانت ارقى هيئة اجتماعية عرفتها جزيرة العرب فسادت العالم واكتسحت الامبراطوريات ، واقام حكومة عادلة ، تنصر الدين الحق وتؤيده ، وتوزع العدل وتضمنه ، وتحارب نظام الطبقات وتمقته ، وتنكر البدع والخرافات وتحاربها ، لا فضل لأحد فيها على أحد الا بالتقوى والاخلاص ، ولا كبير في عرفها ولا صغير ، فالكل سواسية امام شرعها ، واخضع اقطارا واسعة لم يسبق لعربي غيره ان اخضعها ، فكانت حدود الدولة الاسلامية حين وفاته تمتد من تبوك (اول حدود بلاد الروم) شمالا حتى بادية حضرموت جنوبا ومن البحر الاحمر غربا حتى خليج فارس شرقا وتنظم الحجاز ونجدا وعسيرا واليمن وحضرموت والبحرين ولم يسجل التاريخ من قبله ان دولة عربية امتلكت هذه الاقطار وضمت مثل هذا الملك الضخم

ولم يستخلف احدا ولم يوص لأحد بالخلافة بل ترك الامر شورى بين المسلمين
منفذا بذلك مبدأ من اجل المبادئ التي جاء بها

واحدثت وفاته ذعرا واضطرابا في صفوف المسلمين ، وكانوا يحبونه أكثر مما
يحبون انفسهم ، ويعظمونه ويجلونه ويحترمونه لسيرته الحسنة فيهم ، ولسمو
اخلاقه ، وتواضعه ولينه ، وانسه وبشاشته ، ولا يسع منصفاً يدرس سيرته حق
دراستها ، ويحيط بأخباره وما أوتي من الخلق العظيم الا الاعجاب به والتسليم بأنه ليس
في استطاعة بشر مهما أوتي من المواهب والصفات ان يعمل ما عمله اذا لم تكن
هنالك قوى سماوية تؤيده ، وتمده ، وتنصره ، وتأخذ بيده ، وتيسر عمله

خريطة جذوة الإقليم الإسلامي بين روافد النيل



اول اجتماع سياسي في الاسلام

دل سير الحوادث على ان بعض خواص المسلمين لم يفاجأوا بموت النبي وان فوجي به عامتهم وانقض على رؤوسهم انقضاء الصواعق ، يؤيد ذلك اجتماع جمهور من الانصار في سقيفة بني ساعدة ، لمبايعة سعد بن عبادة بالخلافة ، ولم تنقض سنات على وفاته ، واعتزامهم البت فيها ، وجعل جمهور المسلمين امام حالة مبرمة ، ولو لم يسرع اليهم ابو بكر وعمر وابو عبيدة ويشتركوا في الاجتماع ويقنعوهم بعدم ملائمة الخطة التي اتبعوها لمصلحة المسلمين العليا ، لاتموا البيعة ولنادوا بمرشحهم خليفة

ويمكن القول ان مسلمي المدينة انقسموا حين وفاته الى ثلاثة اقسام :

١ - فريق آل هاشم وهم آل هذوو وعصبته ، وكانوا يرون انهم احق بالخلافة من سواهم ، وكان عمه العباس يخطبها لنفسه لانه ورثه الشرعى ومثل ذلك ابن عمه وصهره على بن ابى طالب فقد شهد معه المشاهد كلها ، وابلى في نصره الاسلام وتأييده وكان من السابقين الاولين . ومن اقطاب هذا الحزب الزبير بن العوام وابناء العباس وقبيل من المهاجرين والانصار

٢ - فريق المهاجرين من قريش وكان يؤيد ابا بكر لما امتاز به من ميزات وتميزته من رسول الله ، ولانه اختاره للصلاة في مرض موته

٣ - فريق الانصار وكان يضم اكثريتهم المطلقة ويرى بان الخلافة يجب ان تكون فيهم لانهم نصروا الاسلام وايدوه ، ومرشحهم سعد بن عبادة زعيم الخرج وكبيرهم

ولا بد لنا من الاعتراف بان اقطاب الحزب الهاشمي شغلوا بغسل الرسول وتجهيزه وتكفينه عن كل امر فلم يتسن لاحد منهم حضور اجتماع السقيفة وادلاء دلوهم في الدلاء ولذلك اقتصر الامر على اقطاب الفريقين الكيرين : فريق المهاجرين وفريق الانصار وقد كتب الفوز للاولين فتم انتخاب مرشحهم وفازوا فيما ارادوه

وبيان ماوقع ان فريقا كبيرا من الانصار اجتمع في سقيفة بني ساعدة - وكانت قرب سوق المدينة - للبت في قضية الخلافة على اثر وفاة الرسول . ولم يشركوا احدا من المهاجرين

ووصلت اخبار هذا الاجتماع الى ابى بكر وعمر وابى عبيدة وكانوا يشهدون المآثم في المسجد فاسرعوا ومعهم بعض المهاجرين ، لشهوده وبدأ ابو بكر الكلام نغضب خطبة طويلة تناول فيها تاريخ الاسلام من بدء ظهوره ، ونود بمابذله المهاجرون والانصار على السواء في سبيل تأييده ثم استطرد الى البحث في قضية الخلافة وابان ضرورة وجودها في قريش وخاطب سعدا زعيم الاجتماع قائلا : « ولقد عامت ياسعد ان رسول الله قال وانت قاعد ، قريش ولاة هذا الامر فبر الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم » فقال صدقت واستطرد ابو بكر فقال :

نحن الامراء واتم الوزراء لاتفتاون بمشورة ، ولا تفض دونكم الامور

الدعوة الى اميرين

وخطب الحباب بن المنذر وهو من بنى جشم من الخزرج فدعى الانصار الى الاتحاد والاتفاق وقال لهم « انتم اهل العز والثروة واولو العدد والنعمة والتجربة . وذوو البأس والنجدة ، وانما ينظر الناس الى ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم امركم » وختم خطبته مقترحا ان يكون هنالك امير من المهاجرين وآخر من الانصار جمعا للشمل وتوحيدا للكلمة

عمر يعارض في هذا الاقتراح

وعارض عمر بن الخطاب معارضة شديدة في تنفيذ هذه الفكرة - ففكرة تقسيم الخلافة بين اميرين - وقاوم فكرة انتقالها الى الانصار في خطبة طويلة خطبها فرد عليه الحباب بخطبة تمسك فيها برأيه ودعا الانصار الى الاتفاق والتمسك بالامارة وقال لهم « املكوا على ايديكم ولا تسمعوا مقالة هذا واصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الامر » فانبرى له عمر بن الخطاب ثانية وفند اقواله

ابو عبيدة يخطب

وخطب ابو عبيدة بن الجراح فنصح الانصار بالتزام الهدوء وقال لهم « انكم اول من نصر وآزر ، فلا تكونوا اول من بدل وغير » واسهب واطال

الانصار يعزلون فطهم

واثرت هذه المناقشة في نفوس بعض الانصار الحاضرين فوقف بشير بن سعد وهو من بنى زيد بن مالك الخزرجي فناشد قومه العدول عما اعتزموا عليه وقال لهم « لئن كنا اولى فضيلة وجهاد وسابقة في هذا الدين فما اردنا بذلك الا رضاء ربنا، وطاعة نبينا، والفلاح لانفسنا، فما ينبغي لنا ان نستطيل على الناس بذلك، ولا نبغى به من الدنيا عرضا. الا ان محمدا من قريش وقومه احق به واولى، وايم الله لا يرانى الله انازعهم هذا الامر ابداء، فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم »

الاوس تنضم الى المهاجرين

وانضمت الاوس الى المهاجرين والى بشير بن سعد ومن قال بقوله من الخزرج لانها رأت ان بقاء الخلافة في قريش قد يكون افضل لمصلحتها الخاصة ففشل الاجتماع وقضى على الفكرة التي اوحى به فهد ابو بكر يده لمبايعة عمر فاني

ودعا عمر وابو عبيدة الناس الى بيعة ابى بكر لانه افضل المهاجرين و « ثانى
اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة اهم اركان الاسلام »
وبدأ فبايعاه وتلاههما الناس فبايعه الانصار كما بايعه المهاجرون ولم يتخلف سوى على
ابن ابى طالب ومن معه من بنى هاشم ولم يحضروا اجتماع السقيفة ، على ان عليا
لم يبايعه الى ما بعد انقضاء ستة اشهر على بيعته ؛ وجرى الزبير سيفه وكان من الحزب
المهاشمى واقسم ان لا يغمده حتى يبايع عليا فقال عمر خذوه منه واضربوا به الحجر
برا بيمينه ، وما زال به حتى حملاه على بيعة ابى بكر

ابو بكر الصديق

هو عبد الله بن ابي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن فهر بن مالك القرشي وامه ام الخير سلمى بنت صخر بن عامر ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة وهي بنت عم ابيه
كان من رجال قريش المعروفين في الجاهلية ، وكان محبا فيهم ، وكان اليه الاشناق (الديات) وكان اذا حمل شيئا صدقته قريش ، وامضوا حملته وحمالة من معه وكان من اعرفها بالانساب

كان يشتغل بالتجارة قبل الاسلام ، وقد نشأت بينه وبين الرسول صداقة قبل ان يبعث ، فلما بعث كان اول من آمن به من الرجال الاحرار واسلم على يديه كثيرون ، وروى بن اسحاق عن النبي انه قال « مادعوت احدا الى الاسلام الا كانت عنده كبوة وتنظر الا ما كان من ابي بكر ، ما علم عنه حين ذكرته له » اي انه بادر اليه

ولما اشتد اذى قريش على المسلمين في مكة ، وهاجر اكثرهم ، بقي ابو بكر مع النبي حتى هاجر معه الى المدينة وحديث الهجرة معروف مشهور
وكان ابو بكر يملك ثروة واسعة في الجاهلية قدرت باربعين الف درهم انفقها كلها في سبيل الاسلام ، وقيل انه كنى بابي بكر لابتكاره الحاصل الحميدة ، ولقب بالصديق بعد الاسلام لقبه به الرسول لانه صدق ما رواه عن حديث المعراج بدون تردد او تلغم ، وسمى عتيقا لان رسول الله قال له « انت عتيق من النار »
وكان الرسول يكرمه و يبجله ويثني عليه وكان يقول « لو كنت متخذنا خليلا

لأخذت ابا بكر خليلاً » ودفع عقبة بن معيط عن النبي حينما حاول قتله عند الكعبة وهو يصلى وقال : يا قوم اتقتلون رجلا ان يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » وامرد النبي على الحج فى السنة التاسعة ، وشهد معه المشاهد ولم يتخلف عن واحدة منها واستخلفه عنه فى الصلاة فى مرضه الاخير

ومما يؤثر عنه انه كان يحلب لأهل الحى قبل الخلافة ، فلما بويع بالخلافة ، قالت جارية : ومن يحلب لنا الآن ؟ فسمعها فقال « بلى لعمرى لأحلبها لكم ، وانى لأرجو الا يغيرنى مادخلت فيه عن خلق كنت عليه » فكان يحلب لهم الشاء ، وربما قال للجارية اتحبين ان ارغى لك او اصرح فأى الامرين احبت فعله

توفى يوم الجمعة ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣ اى بعد النبى بستين وثلاثة اشهر

و ١٢ يوما وكان فى الثالثة والستين

وتزوج فى الجاهلية قتيلة بنت عبدالعزيز من بنى عامر بن لؤى فولدت له عبدالله واسماء ؛ وتزوج ايضا ام رومان بنت عامر من بنى غنم بن مالك فولدت له عبد الرحمن وعائشة وتزوج فى الاسلام اسماء بنت عميس من خثعم بعد ماقتل زوجها جعفر بن ابى طالب فولدت له محمدا وتزوج حبيبة بنت خارجة بن زيد من الخزرج فولدت له ام كلثوم فذكور اولاده ثلاثة ومثلهم الاناث

خليفة ابي بكر

كان اختيار ابي بكر لمقام الخلافة فوزا للفكرة الدينية الصحيحة التي جاء بها الاسلام ، فهو وان كان من قريش ، الا انه ليس منها في الذروة ، ولا يعادل سعد بن عبادة زعيم الخزرج عصبية ونفوزا ، فاختياره دون المرشحين الهاشميين - وقد كان العباس طامعا فيها ومثله على ، ويريان انهما احق بها ، والانصارى وقد رأيت كيف جمع الانصار حوله - دل على رسوخ الفكرة الدينية في نفوس جمهور المسلمين الذين التفوا حول ابن ابي قحافة وناصروه لما امتاز به من صفات في الجاهلية والاسلام ولسبقه في الايمان ولقربه من رسول الله فقد كان ألصق الناس به واعرفهم باخلاقه واكثرهم تشربا بمبادئه فقد صحبه قبل البعثة وبعدها ، ولم يتركه لافي زمن الشدة ولا في زمن الرخاء ، فتشبع بروح الاسلام وعرف حقيقته وجوهده

وفضلا عن ذلك فاختيار ابي بكر للخلافة صان لقريش مقامها باعتباره احد ابناءها الاوفياء ورجالها الاصفياء وحفظ لها الزعامة السياسية والدينية وكانت تحرص عليهما ولا تتنازل بسهولة عنهما . ولا بد لنا من القول ان قريشا اقبلت بعد فتح مكة على تأييد الاسلام ونصرته لانها ادركت ان عزها في عزه وفوزها في فوزه وكيفما كان الحال فان انتخاب ابي بكر كان موفقا من جميع نواحيه وقد اكسب الاسلام قوة ومنعة وكان من العوامل الكبيرة في انتشاره ونموه

اول بيان سياسى فى الاسلام

صعد ابو بكر المنبر غداة اتخابه ، نخطب المسامين خطبة لاتزال يران صداها فى اذن التاريخ ، ولا يزال الناس يتدارسونها من اربعة عشر قرنا ويعجبون بما انطوت عليه من مبادئ سامية وروح شريفة عالية ، قال :

« ايها الناس : لقد وليت عليكم ولست بخيركم فان احسنت فاعينونى وان صدقت فقومونى

الصدق امانة والكذب خيانة

الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ان شاء الله

لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل

اطيعونى ما اطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم »

تلك هى خطبة ابى بكر وهى على اختصارها برنامج سياسى ودينى واخلاقى جامع فقد انطوت على المبادئ الآتية :

١ - اعترف فى الفقرة الاولى بانه من عامة الشعب فليس له ميزة على احد ولا فضل ، ودعا الناس الى نصحه وشد ازره ومساعدته اذا صنع مايرضيهم وعمل صالحا ، والى انتقاده وتقويمه اذا اخطأ وحاد عن جادة الصواب ، ولا تنطوى المبادئ الديمقراطية الحديثة على مبدأ افضل من هذا المبدأ واسمى منه

٢ - دعا المسامين الى نبذ الكذب واتخاذ الصدق شعارا لهم ، ووصف الكذب بانه خيانة كما وصف الصدق بانه امانة ، والصدق من المبادئ الاخلاقية السامية

فأثبت انه يعنى بالاخلاق ويدرك منزلتها فى الأمم . وما تمسك بالصدق قوم الافاز ولا ونجوا

٣ - اعان مبدأ المساواة المطلقة فى حكومته فقال : ان الضعيف قوى عنده حتى يأخذله حقه و بالعكس ، ومعنى ذلك انه لاجابة ولا مراعاة ولا تفاضل .والمساواة المطلقة من القواعد الجوهرية التى جاء بها الاسلام

٤ - دعا المساميين الى مواصلة الجهاد فى سبيل الله وقال لهم انه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل ، ومعنى الجهاد الشرعى فى الاسلام الدفاع المشروع عن النفس فكأن ابا بكر يدعوهم الى تعزيز الدفاع الوطنى وعدم اهماله فتضرب عليهم الذلة . وتسير الأمم كلها فى عصرنا هذا على هذا المبدأ : مبدأ تعزيز الدفاع الوطنى وتبذل كل مرتخص وغال فى سبيله فلا يضرب عليها الذل ، ولا تذلل الا الشعوب الجاهلة الحاملة

٥ - دعا الناس الى طاعته مادام مطيعا لله ورسوله اى مخلصا للدستور (كما يقال فى اصطلاح هذا العصر) والقرآن كان ولا يزال الدستور الصحيح للمسلمين يرجعون اليه ويردون منه العذب الصافى ، كما دعاهم الى نبذ طاعته اذا خرج عن هذه الدائرة اى خالف بتصرفاته ما نص عليه فى الدستور الاسلامى . ولا يقول بمثل هذا القول اعظم ملك دستورى فى هذا العصر

وغنى عن البيان ان هذه المبادئ التى ضمنها ابو بكر خطبته تعد برنامجا سياسيا من افضل البرامج الحكومية فى عصرنا الحاضر ولا تتعارض مع احدث النظريات الدستورية والبرلمانية

رج موت النبي المدينة رجا ، واقام سكانها واقعدهم ، واثّر في نفوس خاصتهم وعامتهم ، ولا سيما في نفوس الصحابة من المهاجرين والانصار فصعق بعضهم واغمى على البعض الآخر ، وامتاز ابو بكر عنهم - والرجال تعرف عند الشدائد - بما ابداه من رباطة جأش ، وقوة عزيمة ، وصبر وتحمل ، فهدأ روعهم ، وبرد لوعتهم وتلا عليهم قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل »

وسرى مفعول هذا التأثير في جزيرة العرب ، فكان له رد فعل عظيم ، ووطن بعض اصحاب المطامع ان وفاته تساعدهم على تحقيق احلامهم بما تحدته من اضطراب في بنيان الدولة الاسلامية الجديدة وبما تلقيه من زعر في نفوس المسلمين

وكانت مشكلة الخلافة في مقدمة المشا كل التي واجهت المسلمين بعد وفاة نبيهم ، فقد كاد يجر عدم استخلافه احدا ، الى خلاف داخلي بين المهاجرين والانصار لولا ان تداركه اقطاب الفريقين وحاولوا على منوال صينت به الوحدة العامة وارتضته الكافة

ومشكلة جيش اسامة اول مشكلة واجهت حكومة ابى بكر . و خلاصة ما يقال في صدها ان النبي امر - قبل ان يمرض مرضه الاخير - بتجهيز جيش يزحف الى الشام لاستطلاع حالة الروم ومهاجمة الاطراف (سنفصلها تفصيلا في الجزء الثاني حين الكلام على فتح الشام) فتجهز هذا الجيش وعدد رجاله ثلاثة آلاف وفيه عدد من كبار الصحابة وعيونهم ، وعهد بقيادته الى اسامة بن زيد بن حارثة وقد استشهد والده في غزوة مؤتة

وضرب الجيش مخيمه في الجرف (شمالي المدينة وعلى ٥ كيلومترات منها) و بينما هو يعد معدات السفر ، اشتد المرض على النبي ففضل رجاله الانتظار فالما ادركته الوفاة واستخلف ابو بكر ، راجت في دوائر المدينة فكرة تقول بوجوب العدول عن تسيير هذا الجيش ، خوف الطوارئ ، واذا لم يكن ذلك في الامكان ، فتبديل قائده على الاقل ، وما كان عمره يزيد على العشرين مع ان تحت امرته عدد من شيوخ الصحابة واقطابهم كعمر بن الخطاب وغيره من السابقين الاولين الذين تجهزوا للمسير تحت لوائه ، طبقا للاوامر الصادرة ولم يحل دون ذلك سوى اشتداد المرض على رسول الله ، و رغبة رجال الجيش في الاطمئنان على صحته قبل سفرهم

وقاوم ابو بكر فكرة العدول عن تسييره بشدة ، كما انكر الاقتراح القائل بابدال قائده بمن هو اكبر سنا ، واكثر حنكة وغضب على مقترحه وقال له « يوليه رسول الله واعزله » و يروى انه امسك بلحية عمر بن الخطاب حينما كلفه في هذا الشأن وقال له « عدمتك امك وثكلكت يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله وتامرني ان انزعه » ويلوح لنا ان بعض بعيدى النظر من الصحابة خاف ان يؤدي زحف هذا الجيش الى البلقاء - ولا تقل المسافة بينها وبين المدينة عن الف كيلومتر لا تقطع في اقل من ٣٠ يوما ذهابا ومثلها ايابا - الى اضعاف قوة المسامين العسكرية في المدينة ، لانه كان يضم نخبة ابطالهم ورجالهم المجريين ، ويعرى بعض القبائل بهم ، سيما وهم قريبو العهد بوفاة رسول الله مؤسس الدولة الجديدة وركنها الركين ، فاقترح على ابى بكر ما اقترحه من باب الاحتياط ، لانه ما كان يجهل نفسية رجال البادية ، فاخلاء المدينة من قوة عسكرية كبيرة يطمع هؤلاء وقد يحملهم على مهاجمتها ، وهو ما وقع فعلا ، ومع ما في هذا رأى من وجهة فقد ابى ابو بكر ان يأخذ به ، لاعتبارات جوهرية ربما كان في مقدمتها اعتقاده بانه ليس من حقه ان ينقض امرا ابرمه الرسول لما في ذلك من الجرأة ولانه قد يعد سابقة يجرى عليها الخلفاء من بعده ، فينتقض كل منهم ما ابرمه سلفه فتقع الفوضى والاضطراب ، وكان ابو بكر عدوا لهمما وفضلا عن ذلك فان عدول المسامين عن تسيير هذا الجيش بعد ما تموا اعداد

معداته ، وبعدهما عرفت الغاية من تسييره ، قد يحمل في نظر القبائل على محمل الضعف والجن فيزيد في جرأتها على المسلمين ، اذا كانت تفكر في احداث حدث ، بدلا من ان يخيفها ويرهبها لانها تقول انه لولا ضعفهم لما استبقوه فتنهض للعمل اذا كانت لاتزال مترددة

وهكذا رجح رأى ابى بكر الآراء الاخرى وتقرر ان يسير الجيش لاتمام مهمته التى اتدبه لها رسول الله . واستأذن الخليفة ، قائده اسامة فى ان يبقى عمر بن الخطاب لديه ليساعده فى بعض المهام ؛ وكان عمر جنديا فى جيش اسامة فسمح له ، وفى هذا الاستئذان مايدل على حب ابى بكر للنظام وشدة احترامه له ، فقد كان فى استطاعته ان يستبقى عمر لديه من دون طلب الاجازة ولكنه فضل ان يطلبها من القائد ، رعاية « لقاعدة التسلسل » وهى من القواعد المحترمة فى الجيوش . ومع انه يتولى بحكم رئاسته منصب القيادة العليا للجيش الاسلامى فلم يشأ ان يطلب ماطلبه بصفة الامر بل بصفة الاستئذان وفى ذلك منتهى التواضع والمجاملة

وصية ابى بكر لاول مبعث بسيره

وخرج ابو بكر الى الجرف ، مكان تخيم الجيش ، ليشيع الجند حين سفرهم ، وخرج معه اسامة ، وكان هذا يركب فرسه ، فاراد النزول عنها فيركبها الخليفة ، وهو الشيخ الطاعن فى السن ، فابى عليه ذلك مع انه اصغر من اولاده ، وقال له : ماذا على ابى بكر ان يغبر قدمه فى سبيل الله . وهكذا ظل اسامة راكبا وابو بكر ماشيا ولاشك انه اراد بعمله هذا ان يضرب مثلا لرجال الجيش فى وجوب احترام قائدهم وتعظيمه وتوقيره وذلك من أشد الضروريات لادراك الفوز والنجاح

ولما ازف الرحيل ودع ابو بكر الراحلين وخطبهم خطبة طويلة فى فضائل الجهاد واوصاهم بالوصية الآتية وهى من الوصايا الخالدة فى التاريخ ولا تزال تكرر فى كل عصر وزمان للظة والاعتبار وهى تدل على سمو روح ابى بكر وعلى تشبعه بتعاليم الدين الاسلامى الصحيحة قال :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ، ولا بعيرا الا لما كلة

» وسوف تمرّون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا

انفسهم له

» وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا اكتم منها

شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها

» وتلقون اقواما قد فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب

فاخفقوهم بالسيف خفقا»

تلك هي وصية ابي بكر لجنده وقواده وهي تنطوي على اشرف المبادئ

الانسانية واسماها ، وتختلف اختلافا كبيرا عن نظم الحرب وشرائعها التي كانت نافذة في

ذلك الزمن ، زمن الروم ، وكانوا يعاملون سكان البلاد التي يغزونها ويفتحونها

معاملة العبيد الارقاء فلمهم ان يقتلهم او يبيعوهم او يستخدموهم كيفما شاءوا وارادوا ،

ولا تنطوي شرائع الحرب الحديثة - وقد وضعتها الدول الاوربية في مؤتمر الهاي سنة

١٨٩٩ وتعهدت باحترامها- على مبادئ افضل من هذه المبادئ رغم انقضاء ١٤ قرنا

على هذه الوصية التي ارتجلها ابو بكر ارتجالا

القبائل التي ارتدت

ما كاد جيش اسامة يتعد عن المدينة في طريقه الى الشمال ، حتى وقع ماخفه بعيدو النظر من الصحابة فارتد بعض القبائل وظهرت بوادر الفتنة في المنطقة الشرقية خاصة وفي بعض المناطق الاخرى وقد تجلت هذه الحركة في ثلاثة اشكال :

١ - في تجهز بنى عبس وذبيان - وينزلون في شرقي المدينة - لمهاجتها ونهب اموالها وما فيها اعتقادا منهم بان امر المسامين قد انتهى بعد وفاة الرسول فلن تقوم لهم قائمة

٢ - في امتناع بعض قبائل اليمامة وغيرها من قبائل الشرق - وهي لم تسلم الا بعد فتح مكة - عن دفع الزكاة ، وطردها الجباة ومحصلى الاموال من ديارها

٣ - في انتشار صيت بعض مدعى النبوة في نجد واتساع نفوذهم وانشاء كل واحد منهم - وعددهم اربعة - دينا جديدا وانضمام بعض العامة والغوغاء اليهم وقتالهم معهم

ولا بد لنا من القول ان مفعول الردة او الانتفاض لم يكن واحدا في القبائل بل كان يختلف باختلاف الديار والمنازل والبعد عن المدينة والقرب منها ، وصلة القبيلة نفسها بالاسلام والطريقة التي بها دخلت فيه ، وهل اعتنقته طائفة او اكرهت عليه ، ومقدار تأثيره في نفوس رجالها وانبائها ، وهل تشربوا تعاليمه ام لم يتشربوها لقرب عهدهم بها ، وهل كان بينها مدع يدعى النبوة ام لا ؟ فان لذلك اثرا لاينكر في دراسة هذه المشكلة الخطيرة وهي أعظم مشكلة استهدفت لها الاسلام بعد وفاة مؤسسها ونجا منها بفضل اخلاص خليفته ، وقوة عزيمته ، وشدة بأسه

و بين الباحثين اختلاف في البواعث التي بعثت على الردة والعوامل التي عملت في تكوينها ، ومع ان بعض المستشرقين يرى ان للعوامل الاقتصادية المقام الاول في ظهور الردة وان تأثيرها كان اكثر ظهورا في القبائل التي دخلت حديثا في الاسلام او اعلنت اسلامها بواسطة الوفود التي اوفدها الى المدينة بعد فتح مكة وبعد انتشار الاسلام وظهوره بمظهر القوة ، الا اننا مع تسليمنا بوجاهة هذه الاعتبارات نرى في حركة الردة هذه حركة رجعية Reactionaire وتظهر هذه الحركة في الغالب عقب كل انقلاب سياسى يحدث في بلد من البلدان او قطر من الاقطار فيغير نظامه وشرائعه ، ويراد بها الرجوع الى النظام القديم وحيائه والتخلص من النظام الجديد والتضاء عليه ، و اى انقلاب سياسى او اجتماعى اعظم من هذا الانقلاب الذى جاء به الاسلام فبث في جزيرة العرب روحا جديدة ونشر فيها دينا جديدا لم تكن تعرفه ولا عهد لها بمثله قط

فالغاية من حركة الردة في نظرنا هى الرجوع الى النظام القديم وحيائه والتخلص من الاسلام وما يتطلبه من واجبات ثقل بعضها على نفوس بعض القبائل فقام يطالب بتعديلها آملا بان يعود الى ما كان عليه في الجاهلية حيث كان يعيش مطلق السراح ليعرف منطلقه اوسع من دائرة قبيلته ولا يعد نفسه مكلفا بشيء الا فى داخل دائرتها الضيقة

وهذا بيان باسماء القبائل التي ارتدت وقالتت المسلمين :

اسم القبيلة	منازلها	ملاحظات
فزارة وعبس	شرقى المدينة على طريق نجد	قالتت فزارة وعبس واسد المسلمين تحت
اسد	شرقى المدينة بجوار فزارة	راية طليحة الاسدى مدعى النبوة
حنيفة (الجماعة نجد)	شرقى المدينة	قالتت المسلمين تحت راية مسيامة الكذاب

اسم القبيلة	منازلها	ملاحظات
البحرين اليمين		
حضر موت		كانت حركة الردة ضعيفة في هذه الاقطار فلم يلق المسلمون عناء في اخضاعها
عمان		
مهرة		
تهامة		
قضاة	شمالى المدينة على ساحل البحر الاحمر	خضعت بسهولة
سليم	شرقى المدينة	انقسمت الى قسمين قسم اقام على الولاة وقسم ارتد بيدانه مالمبث ان عاد نخضع
هوازن	شرقى مكة	

تلك هي اسماء القبائل والاقطار التى ظهرت فيها حركة الردة ، والواقع ان المسلمين لم يلقوا من العناء في اخضاع القبائل المرتدة ما لقوه في اخضاع بنى اسد وحلفائهم من غطفان وكان يقودهم طليحة الاسدى ، وبنى حنيفة وكان يقودهم مسيامة الكذاب ، مما يدل على تأثير دعوة هذين الدعين في نفوس قومهما واتباعهما فولواهما لم يك قاتل يذكر يؤيد ذلك ما حدث في المناطق المرتدة الاخرى ، فانه لم تكد تظهر خيول المسلمين ، او يشيع بين القبائل ان هؤلاء اتصروا في براحة او عقرباء حتى عادوا الى خضوعهم وطاعتهم . وتختلف حركة اليمين عن حركة طليحة ومسيامة لان مدعى النبوة فيها قتل قبل موت النبي ، ولذلك كان تأثير حركة الردة فيها ضعيفا بالنسبة لما جرى في بنى اسد واليمامة

ويذكر المؤرخون أسماء قبائل يقولون انها تأثرت بحركة الردة ، ولكنها لم
تسهر على المسامحة سيما ، وفي مقدمتها قبيلة طيء الكبرى ، فقد انضم بعض بطونها
اليهم غير انه ما لبث ان انسحب منهم وعاد الى صفوف المسامحة ، ومثل ذلك قبيلة
تميم فانها اسرعت فانضمت الى خالد حينما وصل الى بلادها ، وقد شهد بعض كبار
الصحابة بان بنى يربوع من تميم اذنوا عند وصولهم اليهم اعلانا بتمسكهم بالاسلام ،
وقد اتفقوا على خالد بن الوليد تصرفاته معهم . وكذلك كان شأن قبيلة بنى عامر
فانها قدمت الطاعة لخالد عند ما جاء بلادها

وظلت القبائل الاخرى النازلة غربى المدينة وجنوبها وبعض قبائل الشمال
والقبائل الضاربة بين الحرمين ومعظم القبائل النازلة حول مكة وشرقيها وفي مقدمتها
ثقيف وهذيل ولحيان على الطاعة وقد انضم بعضها الى المسامحة وقاتل معهم ودافع عن
المدينة حينما هوجمت

مدعو النبوة وهركة الردة

طليحة الاسدى - مسيامة بن حبيب - الاسود العنسى - سجاح بنت الحارث

اطمع الفوز العظيم الذى ادركه صاحب الشريعة الاسلامية بعض قصيرى النظر من ابناء القبائل الضاربة في نجد واليمن ، فظنوا ان استطاعتهم ان يبلغوا مبلغه ، وينالوا مكاتته بعبارات ينمقونها ، وسجع يرسلونه ، فظهر اربعة منهم في وقت يكاد يكون واحدا ، فلاقت دعوتهم هوى من نفوس قبائلهم وكان بعضها يحسد قريشا على منزلتها ، فانضمت اليهم ووالتهم ، املا بان تنال على يدهم ما نالته قريش على يد محمد ابن عبد الله

واول هؤلاء الادعاء واعظهم شأنا مسيامة بن حبيب الحنفى من بنى حنيفة (نجد) وثانيهم الاسود العنسى من بنى عنس (اليمن) وثالثهم طليحة الاسدى من بنى اسد (الحجاز) ورابعهم سجاح بنت الحارث وهى تغلبية (العراق) ويقال ان اصلها من بنى يربوع من تميم النجديين

واغتنم بعض هؤلاء فرصة الاضطراب الذى شمل الجزيرة على اثر وفاة النبي ، والجزء الذى استولى على النفوس فنشطوا واستمالوا كثيرين من الانصار والمؤيدين الذين طمعوا في الفوز على يدهم

على انه ما كاد خالد يضرب طليحة ضربته الكبرى في بزاحة حتى تفرق انصاره

وعدوا الى حظيرة الدين الاسلامي ، وكان كذلك شأن بني حنيفة انصار مسيامة ،
اما القبائل الاخرى التي لم يقم فيها نبي ولم يظهر بينها دعي فلم تقاوم مقاومة تذكربل
اسرعت الى الخضوع وتقديم الطاعة حينما طلعت عليها خيل المسلمين وحينما تبين لها
انهم لايزالون اقوياء يحطمون رأس كل من تحدته النفس بالانتقاض عليهم او
الخروج على جماعتهم

لئن كان ظهور طليحة متأخرا عن ظهور زملائه الثلاثة وهم مسيامة بن حبيب والاسود العنسى وسجاح الا ان وقوع بلاده على مقربة من المدينة ، ومهاجمة بعض انصاره لها وبدء المسامين بقتاله ، يجعلنا نقدم « ترتيبه » ونبدأ في الكلام عليه ثم نفصل بعد ذلك حديث زميله الآخر مسيامة وقد ثنى به خالد بن الوليد بعد انتصاره على بنى اسد في بزاخته ونذكر بين ذلك حديث سجاح ، فشأنها دون شأنهما ، وان كان يدل على ان المرأة لا تفتأ في كل عصر وزمان تقلد الرجل وتحرص على ان تحذو حذوه في كل عمل يعملها ، ثم نذكر حديث الاسود العنسى وامره بسيط بالنسبة الى امر صاحبيه

من هو طلحة الاسدى

اذا صح ما يقال وهو ان اسدا من تميم ، فيكون اثنان من مدعى النبوة من نجد ، واذا الحقنا بهما سجاح ويقولون انها من بنى يربوع التميميين فيكون الثلاثة الذين ادعوا النبوة واولقوا تلك الفتنة الكبرى نجديين ولم تسلم قبيلة بنى اسد الا بعد فتح مكة ، فقد قدم وفدها المدينة في سنة تسع فاساموا وقالوا يارسول الله اسلمنا ولم نقاتلك كما قاتلتك العرب فنزلت في حقهم هذه الآية ﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وبعد ما اقاموا في المدينة اياما يتعلمون الفرائض عادوا الى بلادهم

اما طليحة الاسدى نفسه فقد اجمع الرواة على انه شهد حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة فأثر في نفسه ما رآه من عظمة مقام النبوة ، فلم يتمالك ان نهض يدعيها في قومه حينما وصلت الاخبار بوفاة النبي

وينزل بنو اسد على منتصف الطريق بين الحجاز ونجد الى جنوبي جبل شمر وتبعد منازلهم عن المدينة نحو ٣٠٠ كيلومتر . ويقال في بعض المصادر انهم اجتمعوا بعد الردة في السميراء ، ولا يزال هذا المكان موجودا ويظهر في الخريطة ، ويقدر عدد مقاتليهم بأربعة آلاف ، عدا الذين انضموا اليهم من الاحلاف

ولقد كانت قبيلة غطفان وتتألف من فزارة وعبس وذبيان - وتنزل في شرقي المدينة على بعد ١٢٠ كيلومترا في الربذة (الحنائية) - اول قبيلة انضمت الى بني أسد ومالاتهم على المسلمين

ولغطفان - جارة المدينة في الشرق - مواقف معروفة ازاء المسلمين فقد اسرفت في عدائهم وكانت مع الذين انضموا الى الاحزاب يوم الخندق ، فزحفت على المدينة واشتركت في حصارها ، ولم تسلم الا بعد فتح مكة ، مع ان عينته بن حصن كان في جيش الفتح وورد اسمه في قائمة قواده ، ولعل ذلك كان قبل ان تسلم قبيلته كلها وقدمت غطفان لطليحة ٧٠٠ فارس اشتركوا في المعركة التي دارت بينه وبين المسلمين وكانت تطمع ان تتغلب بواسطته على قريش وتتزعزع منها الزعامة والنفوذ ، ولعل هذا هو العامل الاول - بعد الحقد الشخصي - في ابرامها الحلف مع جيرانها الشرقيين (بني اسد) وانضمامها اليهم

وبيان ما وقع ، ان خارجة بن حصن ، اخا عينته سيد غطفان ، اوقف جاني الزكاة غب وفاة النبي ، وسلبه ما جمعه من صدقات بني فزارة واعاده الى المدينة صفر اليدين . ولعل ذلك حدث قبل ان يجهر طليحة بدعوته ، فلما جهر بها اسرعت غطفان فانضمت اليه وحالفته لانها كانت في حاجة الى حلفاء بعد ما آذنت المسلمين

بالحرب وانتقضت عليهم ، لمعرفتها انها عاجزة عن مقاومتهم والتغلب عليهم
وقصد عيينة بن حصن نفسه والاقرع بن حابس ومعهم عدد من وجوه القوم
المدينة ، على اثر حادث سلب المال ، فقابل الخليفة الجديد ابا بكر ، وخطبه طالبا اعفاء
غطفان من الزكاة (الضرائب) لفقرها على ان تقيم الصلاة وتؤدى الفرائض الاخرى
التي فرضها الاسلام ، فلم يتردد الخليفة في رفض الاقتراح وابتى الدخول في اى
مساومة ، وقال كلمته المأثورة « والله لو منعوني عقاب بعير كانوا يؤدونه رسول الله
لقاتلتهم عليه » حينما خطبه بعض الصحابة مقترحا عليه التساهل واللين لضعف حالة
المسلمين

وما كان ابو بكر يجهل سوء نية غطفان وكونها تنشد الشر وتسعى اليه وتطمع
في غزو المدينة واستباحتها ، ولم يخف عليه انها ارادت من ارسال وفد لها ان تعجم
عود المسلمين ، وتعرف عدد قواهم ، وما يملكونه من معدات فتهاجمهم وتصيب منهم
غرة ، يؤيد ذلك دعوته الصحابة الى اجتماع عقده في المسجد على اثر سفر الوفد
الغطفاني ، فقد تكلم عن خطورة الموقف واقترح انشاء حرس عسكري لحماية المدينة
يتناوب رجاله العمل في الليل والنهار خوف مفاجأة العدو وقال لهم في ما قاله « انكم
لا تدرون أليلا تؤتون ام نهارا وادناهم منكم على يريد »

وزيادة في الاحتياط اقام رجالا في الابراج لمراقبة طرق البادية ورصد حركات
القبائل ، وأعد قوة عسكرية حول المسجد (مركز الحكم والقيادة العليا)
استعدادا للطوارئ ولاستخدامها عند الحاجة ، اى انه جعل المدينة في شكل منطقة
عسكرية وأعد عدته للحوادث واقام يرقب سيرها فلا تباعته ولا تأخذه على غفلة ،
وكتب الى القبائل القريبة والموالية فلبته وأنجده ، ويقال ان جهينة وحدها ارسلت
اليه ٤٠٠ مقاتل

الهجوم على المدينة

ولقد جاء سير الحوادث مؤيدا للرأى ابى بكر ودالا على بعد نظره فانه لم تنقض

ثلاثة ايام على رجوع الوفد العطفاني الى قومه حتى اسرعوا فأغاروا على المدينة ليلا يشدون فرصة للسلب والنهب ، فاكتشفت امرهم العيون التي اقامها ابو بكر ، كما بادر حينما وصل اليه الخبر الى لقائهم ، وسار حتى ذى القصة (مكان في شرق المدينة على طريق الرنبذة (الحناكية) ولا يعرف مكانه بالضبط وإنما يرجح ان يكون غير بعيد من المدينة)

وحاول بعض الصحابة صده عن الخروج بالنفس وناشدوه الله الا يفعل فمقامه في المدينة اشد خطرا على العدو فأبى ذلك واقسم ليسيرن اليهم وقال انه لا يرى لنفسه ادنى ميزة على المساميين ، وبر بقسمه فسار حتى التقى بفريق المرتدين من غطفان ، فقاتلهم وهزمهم ، وذلك قبل وصول جيش اسامة ، وشاع ذلك بين القبائل وعرف رجالها ان المساميين فازوا في اول معركة دارت فاسرع الأكثرون الى ارسال صدقاتهم بعد ما ترددوا في اول الامر ولا تزال هذه طبيعة القبائل العربية حتى اليوم في داخل الجزيرة فيلتزم معظمها الحياد غالبا في كل نضال ينشب حتى اذا ما كتب الفوز لأحد القريقتين بادر الى الانضمام اليه وتقديم الطاعة له

واستقرت الامور بعض استقرار بعد انتصار ذى القصة او البقاء - وكلاهما اسم لمسمى واحد - وزال الخطر الذي كان يهدد العاصمة ، ووصل جيش اسامة عائدا من غزوته من الشمال ، وي لوح لنا انه لم يبلغ البلقاء بل اكتفى بغزو وقضاة ، ودليلنا على ذلك ما رواه المؤرخون وهو ان مدة غيابه عن المدينة لم تزد على اربعين يوما ، وهي مدة قصيرة لانكفى لبلوغ البلقاء والرجوع منها ، ويرى بعضهم ان اقطاب الجيش رأوا ان لا يوغلوا في زحفهم نحو الشمال بعد ما وصلت اليهم الاخبار بوقوع الاضطراب وبارتداد بعض القبائل فأسرعوا بالعودة بعد ما ضربوا قضاة ، وعادوا ساميين ففرت بوصولهم عيون المساميين واصبحوا يملكون من القوى المنظمة المدربة ، التي اعتادت خوض القتال ، ما يضمن لهم الغلبة والانتصار على القبائل المرتدة واعادتها

الى حظيرة الطاعة ، فستان بين حالة الجيش الاسلامى فى ذلك الحين - وقد كان مستكمل المعدات ، موحد القيادة - و بين حالة القبائل المرتدة فلا قيادة عامة توحد بينها ولا حكومة تؤيدها وتجمع لها القوى والانصار

وجاءت الاخبار الى المدينة بان قوة من المرتدين تجمعت فى الابرق (وهو مكان لبنى ذبيان فى شرق المدينة) فخرج ابو بكر بالقوة التى سار بها الى ذى القصة بعد ان انضم اليه فريق من جيش اسامة فباغتهم وكانوا من قبائل عبس وذبيان وكلاب وهزمهم شرهزيمة فارتدوا الى السميراء وانضموا الى المرتدين من بنى اسد وهم جيرانهم اى انهم اوغلو فى الارتداد نحو الشرق ليبعدوا المسلمين عن مركز تجمعهم ، فعاد ابو بكر برجاله الى ذى القصة ولم يطل المقام فيها بل ابقى فيها قوة كافية لمقاومة المرتدين وصددهم اذا حدثتهم انفسهم بمواصلة القتال ، وعهد بقيادة هذه القوة الى خالد ابن الوليد وكان بين رجاله وعاد هو الى المدينة

واصدر اوامره الى المسلمين بان يقصدوا ذى القصة فتكون مركز احتشادهم فى هذه المرحلة ، فقصدتها جموعهم فلما تكاملوا سار اليهم بنفسه وقسمهم الى احدى عشر لواء وعين لكل لواء قائدا وهذه اسماء القواد والمناطق التى اتدبوا للعمل فيها :

١ - خالد بن الوليد وقد وجهه الى طليحة الاسدى ببزاخة فاذا فرغ منه قصد

مالك بن نويرة بالبطاح

٢ - عكرمة بن ابى جهل الى اليمامة لمقابلة مسيلمة الكذاب

٣ - شرحبيل بن حسنة الى اليمامة ايضا فيكون بمثابة قوة احتياطية لعكرمة

٤ - المهاجر بن امية الى صنعاء

٥ - حذيفة بن محصن الى عمان

٦ - عرجة بن هرثمة الى اهل مهرة (خليج فارس)

٧ - سويد بن مقرن الى تهامة

٨ - العلاء بن الحضرمى الى البحرين

٩ - حذيفة بن حازم الى بنى سليم ومن معهم من هوازن

١٠ - عمرو بن العاص الى قضاة

١١ - خالد بن سعيد الى مشارف الشام

مفسور الى بكر الى المرتبة

وقبل ان يتفرق الناس ويسير الجند ، كتب ابو بكر الى اهل كل قطر تردد او ارتد كتابا يحذرهم فيه من التورط ويقول بعد البسمة والمقدمة :

« وقد بلغنى رجوع من رجوع منكم عن دينه بعد ما اقر بالاسلام وعمل به

اغترارا بالله وجهالة بأمره ، واجابة للشيطان قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

« ولقد انفذت اليكم فلانا » و يذكر اسمه « في جيش من المهاجرين والانصار

والتابعين باحسان وامرته ان لا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له وافر وكف وعمل عملا صالحا قبل منه واعانه عليه ، ومن ابى امرته ان يقاتبه

على ذلك ثم لا يبقى على احد منهم قدر عليه ، وان يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسي النساء والذراري ولا يقبل من احد الا الاسلام فمن اتبعه فهو خير له ، ومن تركه

فلن يعجز الله . وقد امرت رسولى ان يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم والداعية الاذان فاذا اذن المسلمون فاذنوا كف عنهم وان اقروا قبل منهم وحملهم على

ماينبغى لهم »

عمره الى قواده

و بعد ان سير الرسل بالكتب الى الامصار كتب الى قواد جنده الكتاب الآتى وقد ضمنه تعليمات صريحة لهم فى الحطة التى يسرون عليها ويتبعونها قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا عهد من ابى بكر خليفة رسول الله الى القائد (و ذكر اسمه) حين بعثه . فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه ان يتقى الله ما استطاع فى امره كله سره وعلايته ، امره بالجد فى امر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى امانى الشيطان ، بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الاسلام فان اجابوه امسك عنهم وان لم يجيبوه شن غارته عليهم ، حتى يقرؤا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم لا ينظرهم ولا يرد المسامين عن قتال عدوهم ، فمن اجاب الى امر الله عز وجل واقر له قبل ذلك واعانه عليه بالمعروف وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا اجاب الى الدعوة لم يكن عليه سبيل وكان الله حسيبه بعد فيما استسره به

« ومن لم يجب داعى الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمه ، لا يقبل من احد شيئا اعطاه الا الاسلام فمن اجابه واقر عليه قبل منه وعلمه ومن ابى قتاله فان اظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما افاء الله عليهم الا الخمس فانه يلغما»

« وان يمنع اصحابه العجلة والفساد وان لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لا يكونوا عوناً ولتلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل وبتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول »

عدد الجيش الاسلامى

ويقدر عدد الجيش الاسلامى الذى اجتمع فى ذى القصة بعشرة آلاف مقاتل ، ظل عددهم يزداد تدريجاً بما كان الخليفة يرسله اليهم من نجدات و بمن انضم اليهم من ابناء القبائل الاخرى التى لم يطل امد تردها حتى انضمت اليهم وقاتلت فى صفوفهم حينما رأت ان كفتهم الراجحة حتى قدر عدده عند انتهاء حرب الردة وقد امتدت نحو سنة تقريباً بعشرين الف مقاتل ، احتشد الجانب الاكبر منهم فى نجد وهم الذين اتدبوا بعد ذلك لغزو فارس وفتح العراق فأدوا مهمتهم على الوجه الأكمل ودكوا ملك الاكاسرة واستولوا على ممالكهم وستقرأ كل ذلك مفصلاً

خالد في هروب الردة

كانت المهمة التي عهد بها الى خالد بن الوليد في حروب الردة من اشق المهمات واصعبها ، فقد كان عليه ان ينازل المرتدين من بني اسد وغطفان وفزارة وكان موقف جارتهم طيء مههما حتى ذلك الوقت ، وتعد من القبائل الكبرى في نجد والذي عليه الاكثر ان جيش خالد ما كان يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل في اول امره اما قوة بني اسد فما كانت تقل عن أربعة آلاف انضم اليهم القان من بني فزارة بينهم ٧٠٠ فارس ، ومعنى ذلك انه كان عليه ان ينازل قوات يبلغ عددها ضعف عدد رجاله في منطقة واسعة تحدها من الشرق الدهناء وهي الساحة الرملية الممتدة من الشمال الغربي الى الشرق الجنوبي في شرقي القصيم ، ومن الشمال جبل شمر (بلاد طيء) وتمتد جبالها من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، وفيها اودية كثيرة من جملتها وادي حایل ويبتدىء من بزاحة طيء ويفصل بين جبلى اجا وسلمى ، ويحده من الغرب حرة خيبر ومن الجنوب هضبة وادي الرمة وينزل بنو سليم في شمالها وبنو عامر في جنوبها

وينزل بنو اسد في الساحة الواسعة الى شمالي وادي الرمة وجنوبي فيد واطابة وغربي السميراء والظهران والسليلة وراية الغمر وهي من اراضيهم وتشرف على وادي الغمر وينبع ماؤه من سفح جبل الوشم الشمالي ويصب في الكهة ، وتقع بقربه بزاحة وقد دارت فيها المعركة الفاصلة بين خالد المرتدين

وكان مصير نجد - لامصير بني اسد - يتوقف على نتائج هذه المعركة فاذا تغلب خالد عليهم وهزمهم انضمت اليه قبائل طيء الكبرى وتنزل على مقربة من

بنى اسد ، ولم تكن حالتها على مايرام . ويؤكد بعض الرواة انه لولا تدخل عدى بن حاتم الطائي وسعيه الحثيث عند قومه لانضموا من اول الامر الى المرتدين فهو لم يوفق الى اقناعهم بالتزام الحياذ ترقبا لنتيجة المعارك الاولى الا بشق الانفس ، وكذلك كان شأن تميم تقريبا فكانت مترددة مضطربة ، منقسمة على نفسها ، فمنها من كان يؤيد المسلمين ظاهرا ، ومنها من كان يتردد وينتظر النتيجة

وسلك خالد فى طريقه من ذى القصة الى بزاحة طريق الربذة ووادى الركبة ثم انحدر الى وادى الرمة وقبل أن يصل الى منتصف الطريق مال الى اليسار متظاهرا بأنه يقصد اراضى طيء ، وما كان يريد ان يذهب بالذات وإنما كان يريد ان يقوم بمظاهرة عسكرية فى ديرتهم فيرهبهم ويمنعهم من الانضمام الى المرتدين ، وقد اثرت مظهرته هذه تأثيرا حسنا وحملت طيئا على الخضوع لانها اقترنت بالجهود الكبرى التى بذلها عدى بن حاتم سيد طيء فقد حذر قومه من عاقبة التورط فى العداة فطلبوا اليه ان يؤخر تقدم خالد حتى يسترجعوا من لحق بغطفان من رجالهم فقابل عدى خالدا فى السبخ وطلب اليه ان لا يغادر مكانه حتى يعود الطائيون من بزاحة الى منازلهم ، وارسل الى هؤلاء قومهم يقولون لهم ان خالدا يستعد للهجوم على منازلهم فيجب ان يعودوا اليها ، وتلك طريقة ابتكروها لتلايدعوا وسيلة لطليحة فيحملهم على البقاء ، فلما وصلهم الخبر عادوا الى منازلهم فكان ذلك اول فوز عسكري ادركه خالد ولم يباشر حربا . ويؤكد بعض الرواة ان بنى طيء قدموا لخالد الف مقاتل انضموا الى جيشه قبل رحيله الى بزاحة

تراير هالدر العسكرية

قدم خالد على طليعته حينما زحف على بزاحة ، عكاشة بن محصن وثابت بن اقرم فباغت المرتدون الطليعة وقتلوا قائديها ، مما يدل على تأهبهم واستعدادهم ، وكان حبال وساعة اخوا طليحة يقودان جناحى بنى اسد وقاد عينة بنى فزارة قومه حين المعركة ووقف طلحة فى القلب وحوله ٤٠ من فتيان بنى اسد يقاتلون دونه

وعبأ خالد جيشه فجعل رجال القبائل فى الجناح اليمين والمهاجرين والانصار فى الجناح الايسر وتولى هو قيادة القلب وفيه فريق من رجال القبائل ايضا وصدق طليحة وانصاره الحملة فى ابتداء القتال فتغلبوا على جناح المسلمين اليمين وضعضوه فانسحب الى الوراى وزلزل الجناح الايسر فأسرع خالد فحمل بمن كان معه فى القلب وهو ينادى يا انصار الله فأقبل المتراجعون على نداءه وكرروا معه فاشد القتال واستبسل الفريقان واستقتلوا وترجل خالد عن ظهر جواده وقاتل راجلا وحاول بعض رجاله ان يحمله على الخروج من صف القتال فابى وواصل النضال حتى دارت الدائرة على المرتدين وانهمزم جناحهم وبقى طليحة فى القلب وحوله فتياهه فقتلوا جميعا فانسحب الى الوراى يتحين الفرص للهرب وقد التف بردائه وجاءه عيينة بن حصن حينما ظهر تفوق المسلمين يسأله هل اتاه الوحي ؟

- نعم

- بماذا

- انه يقول « ان لك رضى كرحاه ، وحديثا لا تنساه » فنادى عيينة فى قومه « يا بنى فزارة انصرفوا فهذا والله كذاب » وسقط عيينة نفسه اسيرا فى يد خالد فكبله بالحديد وارسله الى المدينة ليحكم ابو بكر فى امره ، ونجا طليحة على فرس اعداها من قبل واخذ معه امرأته وقال لقومه « من استطاع منكم ان يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل » فتفرقوا وانهمزوا

وما كادت الحرب تضع اوزارها حتى اقبل الكثير من بنى اسد وغطفان الى خالد يجددون اسلامهم ويعلنون ندمهم ، ويظهرون حسرتهم على ما فرطوا وغنم خالد مغنم كثيرة من بنى اسد ، ونزع سلاح هذه القبيلة كلها

وبث من مقامه فى بزاحة السرايا لمطاردة المهزمين فالتقى بعضها بفريق منهم فى جبل رمان جنوبى جبل سلمى فهزمتهم واسرت كثيرين منهم وغنمت اسلحتهم والتقى غيرها بغيرهم فى الابان الابيض والابان الاسود وهما رايتان على جانبى وادى الرمة فقاتلتهم واسرت عددا منهم وغنمت اسلحتهم وخيلهم

وغادر خالد بزاخة وسار حتى نزل بين اكناف جبل سامى واجا ، ولعله اراد من ذلك تهديد بنى عامر وكانوا ينزلون فى تلك الديرة وان يفعل معهم مايفعل بنى طيء ولم يتردد هؤلاء فى ارسال وفودهم اليه لتجديد اسلامهم فقبل ذلك منهم بعد ما فرض عليهم كمية من السلاح قدموها الى الجيش ، جزاء تردهم فى اول الامر وبذلك خضعت هذه القبيلة للمسلمين

وجاءت الاخبار الى خالد بان فريقا من المرتدين اجتمع فى ظفر وهى مكان بالقرب من حوآب على الطريق بين البصرة والمدينة ويقع الى شرق بزاخة جمعهم ام زمل سامى وشجعتهم على المقاومة فسار اليهم وقتلهم وهزمهم وقتلت ام زمل نفسها فى المعركة . ولما انجز امر بنى اسد وغطفان وطيء وعامر واعادها الى الطاعة وتعد من اقوى القبائل واعظمها شأنًا اتجه نحو بنى تميم ، وكانت قوة كبرى يخشى بأسها فى الشرق

١١

سجاء

كان لاتصار خالد العظيم في براحة وانضمام طيء و بنى عامر اليه وخضوع غطفان واسد واطهارها الندم ، دوى كبير بين قبائل الجزيرة ، اخافها وارعبها ، فعاد معظمها الى الاسلام ، وقدم الخضوع والطاعة والجند والمال والسلاح فاستعاد المسامون هيبتهم ومقامهم وعكفوا على انجاز عملهم العسكري لاختضاع القبائل الباقية التي ظلت في خارج الحظيرة وفي جملتها بنو تميم

وتختلف حالة بنى تميم عن حالة بنى اسد وغطفان فقد كانوا منقسمين الى بطون وقبائل استحكمت بينها الخلافات ، ونمت الحزازات ففرقت كلمتها والقت العداوة والبغضاء بينها وتنقسم تميم في الاصل الى اربعة اخفاذ :

- ١ - الرباب وهم من ضبة وعبد مناف وزعيمهم الزبرقان بن بدر
- ٢ - عوف والانباء ومقاعش وهم من شعب سعد بن زيد بن مناة وزعيمهم قيس بن عاصم
- ٣ - مهدي وخشم وزعيم الاولى صفوان بن صفوان وزعيم الثانية سبرة ابن عمرو

- ٤ - حنظلة و يربوع وهم من بنى مالك وزعيم حنظلة وكيع بن مالك وزعيم بنى يربوع مالك بن نويرة

وقدم وفد بنى تميم على المدينة (انظر ص ١٦٢) وفي جملته الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فدخلوا في الاسلام فعينهم النبي على صدقات قومهم واعادهم الى منازلهم ، فلما توفي ، ارتد بعض القبائل واقام بعضها

على الوفاء للإسلام وفي مقدمتهم الزبرقان بن بدر سيد الرباب وارسل الزكاة ومنهم من تردد وبين هؤلاء مالك بن نويرة سيد بني يربوع وكان العداء مستحكما بينه وبين الزبرقان وكان كل منهما يتربص بصاحبه دوائر السوء

سجاح في نجد

واقبلت على نجد في تلك الاثناء سجاح بنت الحارث - واصلها من بني يربوع في تميم غادرت بلادها ونزلت مع ابها عند بني تغلب في الجزيرة وادعت النبوة في السنة العاشرة للهجرة فأمن بها عدد من نصارى تغلب ، فرحفت بهم وبآخرين من بني شيبان واياهم تريد الحجاز ويقال انها كانت تحاول من زحفها ذلك بلوغ المدينة والاستيلاء عليها ، لما رسخ في ذهنها من تشتت الساميين واضطراب حالهم بسبب حوادث الردة

واتصلت حين مرورها في نجد بمالك بن نويرة سيد بني يربوع وكانوا يقطنون ارض الحزن غربي الدهناء. ودعته وقومه الى الانضمام اليها وتأييدها ، فرأى الفرصة سانحة للتنكيل بخصمه الزبرقان بن بدر ، فاقنعها بالعدول عن مهاجمة المدينة وبان تغير على بعض احياء تميم الاخرى ، وهو يقصد بذلك الزبرقان وقبيله فانصاعت اليه . واتصلت بعد ذلك بوكيع بن مالك زعيم بني حنظلة فتظاهر بتأييدها فضمنت تأييد حنظلة ويربوع من بني مالك

وغادرت سجاح اراضي بني تميم من دون ان تعمل عملا يذكر الى اليمامة ومعها عدد من أنصارها ، يخاف قدومها مسيامة الحنفي مدعى النبوة في اليمامة فاستمالها ثم تزوجها فانصرفت الى الجزيرة من ارض اليمامة وانتهى امرها

خالد عند بنى تميم

ولما وردت الاخبار الى بنى تميم بانتصار خالد فى براخة و بزحفه عليهم وعلى اليمامة ، خاف الذين منعوا الزكاة كمالك بن نويرة ومن حدا حذوه وبادروا فأخرجوها وارسلوها اليه ، قبل ان يصل اليهم

ومشى خالد بقواه الكبرى حتى بلغ البطاح من اراضى بنى يربوع لأنهم سبق فظاهروا بتأييد سجاح وموالاتها وامر مالك رجاله بان يتفرقوا و بان لا يقوموا باى حركة عداة ضد المسلمين .

وضرب خالد خيامه فى البطاح (بطاح بنى تميم) واستقر فيها و بث سراياه فى اطرافها فجاءت تميم مستسلمة وفى جملتها مالك بن نويرة مع بعض قومه فأمر بهم خالد فحبسوا ثم قتلوا .

ورأى بعض رجال الجيش وفى مقدمتهم بعض الصحابة ان خالدا خالف بقتلهم اوامر ابى بكر وتعليماته وتقضى بان لا يقتل من يؤذن وقد اذنوا عند وصول الجيش سيما وقد اقترن القتل بتصرف آخر وهو زواجه بزوجة مالك بعد قتله ورفعوا الأمر الى ابى بكر فاسف له كل الاسف وامر بدفع دية مالك كما دفع دية باقى القتلى الى اهلهم .

ولم يحدث سوى هذا الحادث فى منطقة بنى تميم كلها وعادت الى الاسلام كما كانت

مسيلمة بن حبيب

مسيلمة بن حبيب الحنفي اول من ادعى النبوة في جزيرة العرب ، وأول من ابتدع هذه البدعة ، فقد اجمع الرواة على انه ظهر في السنة التاسعة للهجرة اى قبل ظهور الاسود العنسى وطليحة ، ولم يظهر الاول الا في أواخر السنة العاشرة ولم يظهر الثانى الا بعد وفاة النبي في السنة الحادية عشرة ، اما سجاح فقد ظهرت في العاشرة ايضا وجاءت العراق في أثناء تلك الغمرة لتدلى دلوها في الدلاء وما كانوا من قبل ذلك يعرفون شيئاً من امرها

مسيلمة يزور النبي في المدينة

ويقول ابن هشام ان مسيلمة بن حبيب زار المدينة مع قومه من بني حنيفة حينما قدموها في السنة العاشرة معلنين دخولهم في الاسلام وانضواءهم تحت لوائه ، فناء معهم الى المسجد وقد ستره بالثياب ، وكان النبي جالسا مع اصحابه ومعه عسيب (قضيب) من سعف نخل في رأسه خوصات ، فلما انتهى الى الرسول كله وهو مستور بالثياب فقال له لو سألتني هذا العسيب لما اعطيتك اياه

وجهر مسيلمة بعد رجوعه من المدينة بدعوته وأخذ يسجع لقومه الاسجاع في مضاهاة القرآن كما وضع عنهم الصلاة واحل لهم الخمر والزنا

ولم يقف مسيلمة عند هذا بل كتب الى النبي كتابا يقترح عليه اقتسام البلاد وقد اثبت ابن هشام هذا الكتاب ونصه :

« من مسيلمة رسول الله الى محمد رسول الله

« سلام عليك . أما بعد فاني قد اشتركت في الامر معك وان لنا نصف الارض

ولقريش نصف الارض . ولكن قريشا قوم يعتدون »

وارسل كتابه هذا الى المدينة مع رسولين من قومه فساماه الى النبي وهو في مسجده فلما قرىء له سأل الرسولين اللذين جاء به عما يقولانه

- نقول كما قال

- والله لولا ان الرسل لاتقتل لضربت اعناقكم

ثم أمر فكتب الى مسيامة الكتاب الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم

» من محمد رسول الله الى مسيامة الكذاب

« السلام على من اتبع الهدى . اما بعد فان الارض لله يورثها من يشاء من

عباده والعاقبة للمتقين » ويقول ابن هشام ان ذلك كان في آخر السنة العاشرة اى قبل

وفاته باسابيع قليلة

واغتم مسيامة فرصة موت النبي فاستمال قومه فانضموا اليه وايدوه لاعتبارات

يمكن تلخيصها فيما يأتي :

١ - انه وضع عنهم الصلاة والصوم والزكاة واعفاهم من التكاليف التي جاء

بها الاسلام

٢ - انه كان يسجع لهم سجعاً لمضاهاة القرآن ويقول لهم : لقد جئتكم بقرآن

كالذي جاء به محمد

٣ - ان بنى حنيفة كانوا من ربيعة بعكس قريش فهى من مضر ، ولما كان

ظهور الاسلام فى هذه عززها ورفع مكاتها ، ولما كان ذلك لايرضى ربيعة ، ولما

كانت تحسد قريشا على ما اتاها الله من فضله ، فقد اقدمت على تأييد مسيامة رجاء ان

يبلغها ما ابلغ محمد قومه من علو المرتبة ، وسعة النفوذ والمجد ، مع العلم ان بنى حنيفة

أكثر من قريش عددا واعز نفرا ، ولم يهزمهم خالد بن الوليد إلا بشق النفس وبعد

ما كادوا يتغلبون عليه ويهزموناه ويلحقونه بجيشى عكرمة وشرحبييل وقد هزموهما .

ومما يؤثر عن زعيم من بنى حنيفة قوله : « اشهد ان مسيامة كذاب وان محمدا صادق ،

ولكن كذاب ربيعة احب الينا من صادق مضر »

سجاح في اليمامة

وقصدت سجاح بنت الحارث ارض اليمامة بعد ماغادرت ديار بني يربوع واتصلت بمسيامة ، فصالحها ثم تزوجها واقام معها وانضم رجاله الى رجالها واتباعه الى اتباعها فازداد بهم نفوذا وقوة ، وبيناهم على تلك الحالة وصلت القوات التي جهزها ابو بكر لضرب اليمامة والقضاء على فتنة مسيامة ودعوته ، وقد اتدب لهذه المهمة قائدين من قواده وهما عكرمة بن ابي جهل وشرحبيل بن حسنة وامرهما بان يتساندا ويتعاونوا

وغادر الجيشان ذا القصة في نفس الوقت ، الذي تجهز فيه خالد لقتال بني اسد ، وشرع هذا في العمل فورا ، لان الخطر من ناحية اسد كان اشد لقريةها من العاصمة بعكس اليمامة فقد كانت بعيدة عنها . يضاف الى هذا ان بني حنيفة ما كانوا يفكرون في مهاجمة المدينة او الاستيلاء عليها ، وقد هاجمتها غطفان وما كانت لتتورع عن دخولها ونهبها لو استطاعت الى ذلك سيلا

هرب اليمامة

اسرع عكرمة بن ابى جهل فى زحفه الى اليمامة (مقاطعة الحرج من نجد وتعدمن اعظم مقاطعاتها واكثرها سكانا وعمرانا وماء) مستهينا بالقوى الملتفة حول مسيامة ، وطامعا فى ان يفوز بفخر اطفاء فتنته قبل ان يلحق به شرحبيل بن حسنة وقد امرهما الخليفة بالتعاون والعمل متحدين ، مما يدل على انه كان يقدر قوة هؤلاء ، ولا يستهين بها

وهزم ابناء اليمامة عكرمة وتغلبوا عليه وشتموا شمل جيشه ، وفعالوا مثل ذلك بشرحبيل ايضا ، فساء ذلك ابا بكر ، فانتدب عكرمة الى حضرموت عقابا له ، كما امر خالدا - وكان قد اجهز على بنى اسد - بان يسير الى بنى حنيفة ، فرحف فى شهر ربيع الاول للسنة الثانية عشرة من البطاح يقصد عقرباء (اول الحدود الفاصلة بين اليمامة ووادى تيمم)

وسار خالد على تعبئة منظمة فقدم مقدمة من بنى طيء بقيادة عدى بن حاتم ، وارسل مكنف بن زيد الخيل واخاه لاستطلاع اخبار القوم كما ترك سليطام مع قوة فى البطاح لتكون ردها له

وعلم بنو حنيفة بسير خالد اليهم ، فجمعوا قواهم واقاموا فى عقرباء ينتظرون وصول المسلمين لينازلوهم والمسافة بين البطاح وبين عقرباء نحو ٣٥٠ كيلومترا واستشار خالد اصحابه حينما علم بتجمع الحنفيين فى عقرباء وسألهم عن الخطة التى يسير عليها فانفقت كلمتهم على القول بوجود التقدم . ويقدر المؤرخون قوى خالد يومئذ باربعة آلاف مقاتل ويقولون ان قوى بنى حنيفة ماكانت تقل عن عشرة آلاف

وعباً انصار مسيامة قواهم وكان محكم بن طفيل وهو من اجل رؤسائهم على الجناح الايمن ، والرجال بن عنفوة على الايسر وشرحيل بن مسيامة في القلب، وكان مسيامة في المؤخرة يرقب حركة القتال

وعباً خالد قواه تعبئة منظمة فاقام ابا حذيفة في الجناح الايمن ، وشجاع بن وهب في الجناح الايسر ، وحمل زيد بن الخطاب راية المهاجرين ، وثابت بن قيس راية الانصار ، وتقلد اسامة بن زيد قيادة الحيلة

والتقى الجيشان وتصافا ، وبدأت المبارزة فبرز الرجال قائد الجناح الايسر الى الميدان فبرز اليه زيد بن الخطاب وقتله ، وبرز آخرون منهم فقتلوا ايضا فأهاج ذلك انصارهم فحملوا على المسلمين واستحرق القتال ، وهبت ريح جنوبية في وجوه هؤلاء فضضعتهم فارتدوا ولحق بهم بنو حنيفة فبرز اليهم خالد وكان في المؤخرة ، ينادى « واحمداه » فالتف الناس حوله وكرروا على العدو فهزموه وردوه

ويورد المؤرخون كثيرا من التفاصيل عما جرى في هذا اليوم ويقصون قصصا عن ثبات المسلمين وبنائهم ، ويقولون ان قيس بن ثابت صاحب راية الانتصار كان ينادى اخوانه حيناً بدأوا بالتراجع ويقول « بئسما عودتم انفسكم يامعشر المسلمين هكذا عنى حتى اريكم الجلاد » وكان ابو حذيفة قائد الجناح الايمن يقول « يا اهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » وقال زيد بن الخطاب وكان يحمل راية المهاجرين حيناً رأى انفضاض الناس من حوله « والله لا اتكلم اليوم حتى نهزمهم او القى الله . فاكبه بحجتي . عضوا على اضراسكم ايها الناس . واضربوا في عدوكم وامضوا قدما » ويقول ابن خلدون ان قتلى الانصار يوم عقرباء زادوا على الثلاثمائة والستين وقتل مثل ذلك من المهاجرين والتابعين ولا تزال قبورهم قائمة الى يومنا هذا قرب وادي حنيفة عند قرية اسمها « جبيلة » ويقدرون مجموع قتلى المسلمين بألف ومائتين في يوم عقرباء وقتلى اعدائهم بثلاثة آلاف

وحاول قادة جيش اليمامة اضرام نار الحماسة في صدور قومهم فكان محكم بن الطفيل ينادى قائلا « يامعشر بني حنيفة : الان والله تستردف الكرائم غير رضيات ،

وينكحن غير حظيات ، فما عندكم من حسب فاخرجوه » وقتل عبد الرحمن بن ابى بكر محكما هذا بسهم رماه به

وسأل اهل اليمامة مسيامة ، حينما ركبهم المسامون ودارت عليهم الدائرة عما كان يعدهم به من النصر والتأييد فقال لهم « قاتلوا عن احسابكم »

ولجأ بنو حنيفة الى الحديقة وهو بستان مسور لمسيامة كانوا يسمونه حديقة الرحمن فدخلوها واغلقوا عليهم بابها فاقترح البراء بن مالك اخوانس على زملائه ان يلقوه فى الحديقة فأبوا فأصر عليهم فاحتملوه حتى اشرف على الجدار فاقتحمها وقاتل على الباب وفتحها للمسلمين ودخلوها عليهم ، فاقتتلوا اشد قتال

ورمى وحشى بن حرب ، قاتل حمزة بن عبد المطلب يوم احد ، مسيامة بحربة بين ثديه وضربه انصارى بالسيف فمات وصاح صائح قتله العبد الاسود فولت حنيفة واخذهم السيف من كل جانب

وتوسط مجاعة بن مرارة من اعيان بنى حنيفة ، وكان اسيرا عند خالد ، اسرته مقدمة الجيش فى طريقها الى عقرباء فصالح باسم قومه خالد على الشروط الآتية :

١ - يعف المسامون عن الرجال والنساء والذرية

٢ - يأخذون الذهب والفضة والسلاح

٣ - يأخذون ربع السبي

واوفد ابو بكر ، مسامة بن وقش بكتاب ، الى خالد ، فوصل بعد المعركة وبعد الصلح يأمره فيه ان يقتل من جرت عليه الموسيقى من بنى حنيفة ان اظهره الله عليهم ، فلم يشأ نقض عهده لهم وكتب الى ابى بكر يقول : لم اصالحهم حتى قتل من كنت اقوى به ، وحتى عجب الكراع (الخيل) ونهك الحف (الابل) ونهك المسامون بالقتل والجراح «

وعاد بنو حنيفة الى الاسلام ، وتبرأوا مما عملوه وقصد خالدًا المدينة ومعه ١٧
 من زعماء اليمامة فدخلوا على ابي بكر فبادرهم بقوله :
 - ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل
 - لقد كان الذي بلغك مما اصابتنا . وكان امر لم يبارك الله عز وجل له ، ولا
 لعشير شىء فيه

وسألهم ايضا عن اسجاع مسيامة فرووا بعضها
 فقال : سبحان الله هذا الكلام ما خرج من ال ولا بر فاين تذهب احلامكم

الاسود العنسي

الاسود بن كعب العنسي هو رابع الاربعة الذين ادعوا النبوة وقد انتهى امر الثلاثة الاولين بالفشل والاخفاق كما تقدم ، وكان مصير هذا مصيرهم واسمه الحقيقي عييلة والاسود لقب له لانه كان اسود البشرة

والثابت من اقوال الثقات ان الاسود هذا ظهر في حياة النبي وقضى عليه في حياته ايضا ، فقد روى ابن هشام ان رسول الله ﷺ خطب فقال « ايها الناس : قد رأيت ليلة القدر ثم انسيتهما . ورأيت في ذراعي سوارين من ذهب فكرهتهما فنفختهما فطارا فاولتهما هذين الكذابين صاحب اليمن وصاحب اليمامة »

وخلاصة ما يقال بشأن هذا الاسود انه من قبيلة عنس اليمانية ، ادعى النبوة في شهر ذى القعدة من السنة العاشرة اى بعد دخول اليمن في الاسلام و بعد وصول عمال المسلمين لادارتها ، فتبعه قوم من الفوغاء فسار بهم الى نجران فاستولى عليها ثم قصد صنعاء يؤيده عوام مذبح فدخلها وقتل عاملها شهربان واستولى عليها

واضطربت الحالة في اليمن على اثر هذه الحوادث وانقسم اهلها الى قسمين : قسم يوالى الاسود ويؤيده وقسم يتقيه ويحتفظ بدينه . ووصلت الاخبار الى المدينة فارسل النبي بواسطة بر بن يحنس كتابا الى من بصنعاء من الابناء (هم سلائل الفرس الذين وادوا بصنعاء في عهد احتلال الفرس لها) يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض الى الحرب والعمل على أمر الاسود وقتله اما غيلة واما مصادمة

واتصل الابناء بقيس بن عبد يغوث المرارى قائد جند الاسود واستالوه الى جانبهم مغتمين فرصة خلاف حدث بينهما ودبروا معه مؤامرة لاغتياله ثم ما لبثوا ان استالوا امرأة اغتصبها الاسود وتزوجها بعد ما قتل زوجها فانضمت اليهم ومهدت لهم

السبيل الى قتله فاغتاله فيروز احد الابناء في منزله واذنوا بالاذان عند الفجر وكان معناه انقاذ صنعاء وعودتها الى الحضيرة الاسلامية ، وتولى معاذ بن جبل امرها وكتب الى المدينة يبشر بقتله فوصلها الرسول صبيحة اليوم الذي قبض فيه النبي وعادت الحالة فاضطربت في اليمن حينما جاءت الاخبار بوفاة النبي ، وارتد بعض الزعماء والرؤساء ، فكتب ابو بكر الى الذين حافظوا على ايمانهم يدعوهم الى مقاومة الردة ، والوقوف في وجهها ريثما تصلهم النجيدات التي قرر ارسالها اليهم . والظاهر انهم كانوا الفريق الاضعف فقد اتفقت كافة المؤرخين على ان صنعاء سقطت في ايدي هؤلاء وكان على رأسهم قيس بن عبد يغوث ، قائد جند الاسود العنسي وصاحبه ، وكان يطمع في ان يخلفه بالسيطرة على اليمن بالاتفاق مع الساميين فلما خاب ظنه من ناحيتهم وتوفي النبي ، وظهر الاضطراب في الجزيرة ، نهض فجمع حوله انصاره القدماء فاستولى على العاصمة وانضم اليه عمرو بن معدى كرب في بني زبيد ، وبعض رؤساء القبائل وسار المهاجر بن امية وهو الذي اختاره ابو بكر في ذي القصة لاسترداد اليمن والقضاء على فتنها حتى صنعاء فاحتلها من دون مقاومة تذكر ، واسر زعماء الفتنة ولم يرتفع لها رأس بعد ذلك ، وكان في القضاء على حركة انصار الاسود العنسي في صنعاء - وما حدث الارتداد في اليمن سوى مظهر من مظاهرها - قضاء على حركة مدعى النبوة في جزيرة العرب كلها

حضر موت والبحرين وعمان

وكانت حضر موت والبحرين وعمان وهى فى منتهى حدود الدولة الاسلامية من الجنوب والشرق بين الاقطار التى ظهرت فيها حركة الارتداد لبعدها عن العاصمة وحدثت عندها بالاسلام ، فاولالى والاخيرة لم يسالما الا فى السنة العاشرة ، وربما توهم رجالها ان امر الاسلام انتهى بوفاة مؤسسه ، وان قوة المدينة لن تصل اليهم فاحجموا عن دفع الصدقات ، لاكرها منهم فى الدين ولا ابتغاء التخلص منه - كما نرجح - وإنما لظنهم ان امر الدولة الاسلامية قد انتهى

وعهد ابو بكر فى اخضاع هذه المقاطعات ، الى العلاء بن الحضرمى وقد وجهه الى البحرين ، والى حذيفة بن محصن وقد وجهه الى عمان ، وعرفجة بن هرثة وقد وجهه الى مهرة (عمان ايضا) وامره بان يتصل بحذيفة ويتعاون معه . كما عهد الى المهاجر ابن امية بان يتولى امر حضر موت ويعيدها مع اليمن الى حظيرة الطاعة

ويقول المؤرخون ان قبائل عبد القيس من البحرين عادت من نفسها الى الاسلام ، قبل وصول العلاء فقد دعا الجارود بن المعلى رؤساء القوم وكبارهم ووجه اليهم السؤال الآتى وطلب اليهم الاجابة عليه

- هل كان لله انبياء فيما مضى ؟

- نعم

- فما فعلوا ؟

- ماتوا ؟

- لقد مات محمد كما ماتوا ، واشهد ان لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله

وتشهد القوم معه وعادوا الى الاسلام ، وشذت قبيلة بكر بن ربيعة وكانت تنزل في البحرين بجوار عبد القيس وظلت على ارتدادها وقاد حركتها الحطم بن ضبيعة واستمال اليه بعض قبائل القطيف وهجر فايدوه وناصروه

و وصل العلاء الحضرمي الى البحرين ومعه الجند الذي عهد اليه بقيادته في ذي القصة ولحق به ثمامة بن اثال في مسامة بنى حنيفة وجموع من تميم فقاتل الحطم وغلبه وقتله فاتتهى بموته امر الردة في البحرين والحساء وخضعت هذه المنطقة الواسعة للاسلام

و وقع في حضرموت ما وقع في البحرين فقد امر ابو بكر عكرمة بن ابي جهل بان يسير اليها ، بعد الفشل الذي لحق به في اليمامة فقصدها ونازل قبيلة كندة بالاتفاق مع المهاجر بن ابي امية فقد خرج للقتال بعد ما قضى على فتنة صنعاء فأسروا الاشعث بن قيس سيد بنى كندة وارسالوه الى المدينة وبذلك قضى على الفتنة في حضرموت كما قضى عليها في عمان ومهرة وانقادت تلك المقاطعات كلها للمسلمين

و اذا استثنينا ما وقع في بزاخة واليمامة ومنشؤه في نظرنا وجود الدعين طليحة ومسيامة فقد خضعت الاقطار الاخرى كلها تقريبا من دون عناء ولا نصب مما يؤيد ان حركة الردة لم يك مصدرها كره الاسلام ومقته والسعي للتخلص منه وانما هو الحقد الشخصي من جهة وما رسخ في اذهان القوم من انه قضى على الاسلام بموت مؤسسه من جهة اخرى والرجوع الى نظم الجاهلية

ولم ينقض العام الاول على وفاة النبي حتى كانت حركة الردة قد اخمدت وقضى عليها قضاء مبرما تاما فعدت جميع الاقطار العربية الى الطاعة وقام على رأس كل منها امير اتدبه ابو بكر ، كما عادت القبائل الى الطاعة والانقياد ، فاتخذ الاسلام سبيلا جديدا يقوم على مهاجمة الفرس والروم في شرقي الحجاز وشماله فنالوا نصرا عظيما وادركوا فوزا كبيرا ستقرؤه مفصلا في الاجزاء الآتية

فتح العراق واهران

عروب الإسلام والامبراطورية الفارسية

معلومات جغرافية عامة

كانت مملكة العراق العربية ودولة ايران البهلوية خاضعتين لدولة واحدة عاصمتها المدائن (طيسفون) في جنوبي بغداد ومنهما كانت تتألف دولة الاكاسرة او دولة الساسانيين القديمة التي هاجمها العرب يوم غزو العراق وكانت حدود العراق في العهد الفارسي هي نفس حدود دولته اليوم مع تعديل جزئي فحدوده من جهة نجد وخليج فارس وبلاد الشام وتركيا تكاد تكون نفس حدوده القديمة ، اما حدوده من جهة الشرق ، وهي حدود ايران الحاضرة ، فتنتهى عند جبال حميرين شرق بغداد وكان جغرافيو العرب يسمونه الجبل وهو فاصل طبيعي يفصل بين البلاد التي يتكلم اهلها العربية والبلاد التي يتكلم اهلها الفارسية اليوم وحدود ايران البهلوية من جهة الشرق والشمال والجنوب في الوقت الحاضر هي تقريبا نفس حدود المملكة الكسروية في عهد الساسانيين

الاسلام وفارس

اتتهت حروب الردة في نجد واليمن وارتاح المسلمون من مشاغلها ومشكلاتها ، واستقرت قواعد دولتهم في داخل الجزيرة ، واصبحوا بلا عمل يعمل يعملونه بعد ما اخضعوا العصاة ووصلوا حتى حدود الروم (الرومان) في شمالى الحجاز ، وحدود الفرس في شريقه ، وكانوا يحتلون العراق ويسيطرون عليه وفي جنوبيه وشماليه ، شعب عربى يقدر بالملايين

ومع ان التسلسل الطبيعى للحوادث كان يقضى على ابى بكر بان يبدأ بغزو الشام بعد ماوصل جند الساميين الى البلقاء واخضع جزءا من الاراضى التى كانت خاضعة للروم كتيبوك والجوف ومعان والعقبة والمناطق المجاورة لها الا أن انتهاء المطاف بنحالد فى اليمامة (الخرج) ووقوفه عند حدود العراق الفارسية ، جعل ابا بكر يرجح البدء بحرب الفرس وغزو العراق على حرب الروم وغزو الشام ، لان ذلك اسهل وايسر واقرب ، وما كانت المسافة بين مقر هذا الجيش وحدود الفرس فى العراق لتزيد على ٤٠٠ كيلومتر فى حين ان بينه وبين الشام شاسع المسافات ومئات الاميال

والواقع ان غزو فارس واخضاعها للحكم الاسلامى كان من جملة الاغراض التى وضعها المسلمون نصب اعينهم فقد بشرهم النبي بقرب استيلائهم على ملك كسرى وقال لهم ان خزائنه ستحمل اليهم ، وكتب السيرة مشحونة باخبار هذه البشائر والروايات

وكان كسرى بين الملوك الذين كاتبهم ودعاهم الى الدخول فى دينه ودعا عليه بتمزيق الملك حينما جاءه الخبر بانه مزق كتابه ، واذا قيل لنا ان النبي لم يجرد بعثا

عليها ولم يزحف لاحتلال اراضيها كما زحف على اراضي الروم نجيب انه ما كان يوجه بعونه الا لضرورة مبرمة ، اى انه ما كان يرسلها لجرد التحرش والاعتداء ، فغزوة دومة الجندل الاولى كانت لتأديب ابنائها لاعتدائهم على تجار الميرة ولانهم كانوا يستعدون للهجوم على المدينة ، وغزوة مؤتة كانت طلبا لثأر رسول للمسلمين قتله الغساسنة ، وغزوة تبوك كانت لملاقاة الروم وكانوا - كما نقل الرواة - يتأهبون لمهاجمة المدينة ويستعدون للاستيلاء عليها ومعنى ذلك ان المسلمين كانوا في جميع غزواتهم وزحوفهم على حدود الشام مدافعين لامهاجمين . ولم يقع على حدود العراق ما يستوجب الزحف ولو وقع لما تأخروا ، علاوة على ان قبائل نجد - وكانت تنزل في المنطقة الواسعة الممتدة بين الحجاز والعراق - لم تدخل الاسلام الا في السنة التاسعة ، وبدخولها اتصلت حدود فارس بحدود المسلمين ، والمرّة الأولى التي بلغ فيها الجيش الاسلامي حدود العراق كانت بعد حرب الردة ، فلم ير الخليفة ما يستوجب رجوعه ، فاصدر اليه الامر بان يتقدم لاحتلالها والاستيلاء عليها فيحقق بذلك بشارة من بشارات الرسول للمسلمين وما شك المسلمون في صحتها

ويلوح لنا ان ابا بكرزى بمشروعه هذا الى ادراك الاغراض الآتية :

١ - نشر الدين الاسلامي في تلك الربوع وتلك هي الغاية الاولى التي وضعها

المسلمون في الصدر الاول نصب عيونهم وقاتلوا لاجلها وماتوا في سبيلها

٢ - تحرير العرب النازلين في جنوبي الشام وجنوبي العراق من نير الروم

ونير الفرس ، فقد كانت دولتا العرب في بصرى (عاصمة الغساسنة) وفي الحيرة (عاصمة

الناذرة) مشمولتين بالنفوذ الفارسي والرومي وكان لقيصر الروم ولكسرى

الفرس الكلمة العليا في تصريف امورهما كما كان قولهما الفصل في اختيار ملوكهما

وكان تحرير العرب في جميع اقطارهم وادخالهم ضمن نطاق الدولة الاسلامية

الجديدة وحملهم على التدين بالدين الاسلامي مما سعى له مساهمو الصدر الاول وعملوا على

تحقيقه فما كانوا يقبلون الجزية من عربي وما كانوا يعفون عنه الا ان يدخل في

الدين الجديد ويندمج في الهيئة الاجتماعية الجديدة التي انشأوها ، اى ان المسلمين

استبدلوا في الدور الجديد عصبية القبيلة ، بعصبية القومية ، فكان العرب سياج الدولة الجديدة وحصنها وكانت جزيرة العرب مثابة لها وامانا

٣ - اشغال العرب بقتال هاتين الدولتين وكاتنا قد هوتا في درك الانحطاط الاجتماعى والسياسى فلا يعودون بعد ذلك الى الغزو وشن الغارات فى داخل جزيرتهم والغزو وشن الغارات مما الفه العرب واعتادوا عليه ، فاشتغالهم بقتال دولتين عظيمتين متمكنتين فى بلاد غنية عظيمة كالعراق وتعد من أخصب بلاد العالم ، وكالشام وثروتها الطبيعية مما لا يستهان به ، يصرفهم عن المنافسات الداخلية وعن التزاحم ، ويرىح حكومة المدينة من جهتهم ، كما يدر عليهم اخلاف الكسب والربح وبالفعل فقد جنوا الاموال الطائلة من غز وهم واستولوا على كنوز الاكاسرة وذخائر الرومان فندفقت انهار الثروة فى المدينة المنورة ، ودخلت جزيرة العرب اموال عظيمة لا عهد لها بمثلها ، وعاش العرب عيشة رخاء لم يألفوها

ذلكم هو بعض ما يخطر ببال الباحث وهو يحاول ان يعلل خروج العرب من الحجاز وانسياحهم فى العراق وفى الشام فبقاؤهم وراء حصون جزيرتهم الرملية وهم لا يكادون يجدون القوت الضرورى فى ربوعها واكتفاؤهم بما فى ايديهم اصبح مستحيلا بعد ما نفخ فيهم الاسلام من روحه وصهرهم ببوقته فانشأهم نشأة جديدة وكون منهم امة متحدة متماسكة تعزز بدينها وقوميتها وتدرى أن عليها واجبا دينيا وقوميا هو انقاذ البشر ، وتأسيس دولة تقيم العدل بالقسطاس المستقيم ، وتهتدى بهدى القرآن وتشرع بالحق السامية

٢ الاطار

دولتان عظيمتان كانتا تسودان معظم الاقطار الشرقية المعروفة عند ظهور الاسلام
وتسيطران عليها

دولة الفرس في آسيا الوسطى ، ودولة الروم في شرق اوربا وآسيا الصغرى
وافريقية الشمالية وكاتنا تجاوران الحجاز وتسيطران على الجانب الغنى المعمور والمأهول
من بلاد العرب ، فكان الفرس يحتلون اليمن في الجنوب كما كانوا يحتلون العراق في
الشمال ومثل ذلك الروم وكانوا يحتلون البلقاء وهوران والجوف وتدمر والصحراء
وهي أقاليم عربية لايعرف أهلها سوى العربية لهم لسانا

وقد اقتصرت العلاقات بين الاسلام وهاتين الدولتين في ابتداء ظهوره ، على
غارات بسيطة أغارها المسلمون على اطراف المملكة الرومية في جنوبي الشام فاحضعوا
بعض مقاطعاتها القريبة من الحجاز لدولتهم الجديدة ، فلم يثر ذلك كبير اهتمام في
الدوائر السياسية والعسكرية في انطاكية او القدس لبعده هذه المقاطعات من العمران
ولان صلتها بالامبراطورية كانت محدودة لا تكاد تتجاوز دائرة الخضوع الاسمي
أو « الشكلى »

وفعل المسلمون هذا الفعل مع الفرس تقريبا فانزعوا منهم اليمن على اثر دخول
عاملها باذان في الاسلام ولم يقابل عمله باى احتجاج او تديرير في المدائن لبعده المسافة
بينها وبين صنعاء ، ولان العلاقة السياسية كانت محدودة بينهما ، وكان العامل الفارسى
يتمتع باستقلال واسع النطاق . وما كان الفرس يهتمون كثيرا لحال اليمن لفقد
الاتصال بينهم وبينها وقد رأيت كيف انهم ارسلوا السجناء لفتحها (انظر ص ١٧١)

وما قاله ملكهم عند ما ارسلهم مع التبعية لغزوها

وعلاوة على هذه الاعتبارات وهي جوهرية في نظرنا ، فهناك اعتبارات اخرى لابد من تدبرها ، وفي مقدمتها ظهور اعراض الهرم والشيخوخة على هاتين الامبراطوريتين حين ظهور الاسلام ؛ فقد افنت الحروب المتتابة بينهما قواهما ، وقد استمرت زهاء ستين سنة اى منذ غزو الفرس الشام للمرة الاولى فى سنة ٥٤٠م بقيادة خسرو الاول حتى سنة ٦٢٣ م وانتهت بفوز الروم فوزا حاسما على الفرس فاعادوهم الى بلادهم واملوا عليهم شروطهم ونحن فى غنى عن القول ان هذه الحروب افقرت خزائنها وافقرت بلاديهما ونفرت شعوبهما منها فصاروا يمتقونهما ويتمنون زوالهما لما انزلود بهما من مظالم ومغارم فقد كانوا يصادرون الاموال ويخندون الناس بالقوة

ولا يتسع المقام هنا للافاضة فى تاريخ الفرس الساسانيين ووصف ماجرى بينهم وبين جيرانهم الروم فامر ذلك يطول كما انه ليس هنا موضعه ، وانما نقول اجمالا ان هذه الحروب مهدت للاتصار الاسلامى وساعدت المسامين فى القضاء على هاتين الامبراطوريتين وقد مشوا الى قتالهما فى وقت واحد فكانوا يحاربون الفرس فى العراق كما كانوا يقاتلون الروم فى الشام ، وما زالوا يكافحونهم ويناضلونهم فى الميدانين حتى تمت لهم الغلبة فقوضوا ملك الاكاسرة واستصفوا تلك الامبراطورية العظيمة ، وضموها الى دولتهم الجديدة كما قضاوا على كل نفوذ للروم فى شرقى البحر المتوسط والبحر الاحمر فانزعوا فلسطين وسورية وكيليكية وقبرص ومصر وافريقية فى الغارة الاولى ، ثم تابعت بعد ذلك غاراتهم فاحتلوا الاناضول والقسطنطينية وقضاوا على الامبراطورية العظمى كما قضاوا على امبراطورية الساسانيين من قبل وورث الاسلام هاتين الامبراطوريتين العظيمتين كما ورث امبراطوريات اخرى فى الهند واواسط آسيا وشرقها لم يسبق لا للفرس ولا للروم ان بلغوها

وجملة القول ان تتابع الحروب بين هاتين الامبراطوريتين ، - وقد اورثهما الفقر والضعف - كان من جملة العوامل التى مكنت للاسلام وساعدت على انتشاره ، فعمل المسلمون بمطلق الحرية فى داخل الجزيرة فى اول امرهم ، ولم يلقوا مقاومة

من رجال هاتين الحكومتين ، وكان كل فريق منهما منهما في ابتكار الوسائل والاساليب التي تضمن له التفوق على خصمه والتغلب عليه ، لا يهمه امر جزيرة العرب ولا ما يحدث في داخلها من حوادث ، ولا يرقب مجرى التحول الجديد الذي كانت تتحوله ، والغالب انهم ما كانوا يقيمون له وزنا ، لا ستهاتهم بشأن سكان الجزيرة وقطانها الذين اعتادوا مقاتلة بعضهم بعضا ، فكان اهمالهم وبالا عليهم ، ولم يشعروا بخطأهم الا حينما اخذتهم الصيحة وطرق المسلمون ديارهم واحاطوا بهم من كل جانب فاخذوهم اخذ عزيز مقتدر ، وتلوا عليهم من آيات البطولة والنجدة والشهامة والثبات والتكاتف والتضامن والاستماتة في سبيل اداء الواجب ما يحير العقول والالباب وكانوا من الفائزين ، والارض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين

العلاقات بين العرب والفرس

كانت حدود الدولة الفارسية يوم استقر قرار المسلمين على مهاجمتها تمتد من حدود الحجاز جنوبا فالشام وديار الجزيرة غربا فبحر الخزر شمالا فافغانستان شرقا ، وكانت تنقسم الى اربع مقاطعات كبيرة وهي مقاطعة خراسان ومقاطعة اصبهان وفيها اذربيجان ومقاطعة بلاد فارس والاهواز ومقاطعة العراق واقليم الروم وما كان عدد سكانها يقل عن اربعين مليوناً يدين الجانب الاكبر منهم بالزردشتية ويعبدون الالهة المقدس

وكانت حدودهم الجنوبية والغربية هي نفس حدود الدولة العراقية الجديدة تقريبا فكانت نجد تجاورهم من الجنوب وحدودها نفس حدود الدولة السعودية تقريبا . وتجاورهم بادية الشام من الغرب وحدودها تقريبا نفس حدود دولة سورية الحالية وشرقي الاردن اليوم وكانت ارمينية تجاورهم من الشمال وقد حلت محلها دولة الجمهورية التركية الجديدة والحدود هنا مختلفة بعض اختلاف . فقد كانت نصيبين وماردين واورفا وديار بكر داخل حدود الدولة الرومية ثم دخلت في حوزة المسلمين حين فتحهم العراق وهي اليوم من املاك الترك ومثلها رأس العين وجزيرة ابن عمر (الخابور) فقد ضمتها سورية

دولة المناذرة في جنوبي العراق

وكان العرب الخاضعون للفرس ينقسمون الى قسمين عرب الجنوب (سكان البلاد المجاورة لنجد) ولهؤلاء دولة خاصة بهم ، هي دولة الحيرة ، وعرب الشمال (قبائل ربيعة ومضر والنمر) وكانت تنزل الجزيرة بين دجلة والفرات

وكان الاولون - ويزلون على نهر الفرات - يتمتعون بشبه استقلال داخلي ودولتهم اقدم من دولة الفرس في العراق ، فقد انشأوها كما يرى بعض المؤرخين سنة ١٣٨ م في الحيرة ، اسسها مالك بن فهم التنوخي من قضاة ، فعاشت حتى سنة ٢٦٨ م ولما توفي جذيمة الابرش انتقل الملك بوفاته الى ابن اخته عمرو بن عدى اللخمي جد المناذرة ومؤسس دولتهم ، وقد عاشت حتى سنة ٦٣٢ م اى حتى غزو المسلمين للعراق وكانت الحيرة (عاصمة هذه الدولة في عهد التنوخين اللخمين) من المدن الكبرى وقد ضعف شأنها بعد احتلال المسلمين للعراق وسقوط دولة المناذرة ثم انشأهم الكوفة واتخاذها قاعدة لجندهم ، وعلى انقاضها بنيت قرية « الجعارة » في ايامنا هذه وهي على ١٧ كيلومترا من شمالي الكوفة ، والى الجنوب الشرقي من مدينة النجف الحاضرة . وتبعد عن بغداد نحو ١١٦ ميلا وعن المدائن (١٣٦ ميلا)

ولقد دخلت دولة الحيرة في حمي الاكاسرة سنة ٢٢٦ للميلاد باتفاق عقد بين جذيمة الابرش وارديشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية وقاهر ملوك الطوائف في ايران . وظلت مقيمة على الولاء لهم حتى جاء الاسلام فاكسحها واكتسحهم ، وادالها وادالهم ، ويرى الباحث في تاريخ هذه الدولة ان ملوكها كانوا يتمتعون باستقلال ادارى واسع النطاق وانهم كانوا مطلقي التصرف في شؤونهم الداخلية وشؤون العرب التابعين لهم فلا يتدخل الفرس الا عند الضرورة ، وكانوا يكتفون من ملوكها بما يظهرونه من اخلاص ، ويستقبلونهم بالحفاوة والتكريم حينما يزورون المداين ، ويستنصرونهم في حروبهم على الروم وقد ادوا لهم خدمات جليلة ليس هنا موضع الافاضة في الكلام عنها ، كما كانوا يعتمدون عليهم في رد عادية العربان من الجنوب فلا يهاجمون البلدان ولا يزعجون الناس

ومع ان المؤرخين الذين عنوا بتدوين تاريخ هذه الدولة ودرس علاقاتها السياسية والادارية قد اهملوا الكلام على حدودها الجغرافية الا ان المفهوم لنا من تضاعيف أقوالهم ان حدودها كانت على التقريب كما يلي :

من الجنوب حدود الدولة السعودية الحاضرة فقد كانت نجد (اليمامة وكندة)

تمتع باستقلال تام وطالما قاتلت المناذرة وازعجتهم وحكم الحيرة بعض ابنائها زمنا غير قصير

من الشمال المنطقة الممتدة على ضفاف الفرات من الحيرة حتى جنوبي الانبار ، ويلوح لنا ان الانبار نفسها كانت تتبع المداين مباشرة ، اما هيت فقد كانت بدون شك من اعمال المداين ولم يك للمناذرة اى صلة بها

من الشرق : بابل ولا تزال انقاضها قائمة وهى بين دجلة والفرات وتبعد بابل نحو ٨ كيلو مترات عن مدينة الحلة اليوم وهى الى شمالها من الغرب : بادية الشام

تلك هى حدود تقريبية لدولة المناذرة فى العراق وكانت ضيقة الرقعة من الشمال والشرق ومنتسعة فى الجنوب والغرب حيث صحراء العرب الواسعة

وهذا جدول باسماء ملوكها وتاريخ جلوسهم استقيناها من افضل المصادر التاريخية

اسم الملك	مدة حكمه
عمرو بن عدى بن نصر	من سنة ٢٦٨ الى سنة ٢٨٨ م
امرؤ القيس بن عمرو	» » ٢٨٨ » » ٣٢٨
عمرو بن امرىء القيس	» » ٣٢٨ » » ٣٧٧
اوس بن قلام	» » ٣٧٧ » » ٣٨٢
امرؤ القيس بن عمرو الثانى	» » ٣٨٢ » » ٤٠٣
النعمان الاعور بن امرىء القيس	» » ٤٠٣ » » ٤٣١
المنذر بن النعمان بن امرىء القيس	» » ٤٣١ » » ٤٣٧
الاسود بن المنذر بن النعمان	» » ٤٣٧ » » ٤٩٣
المنذر بن المنذر بن النعمان	» » ٤٩٣ » » ٥٠٠
النعمان بن الاسود	» » ٥٠٠ » » ٥٠٤
علقمة ابو يعفر	» » ٥٠٤ » » ٥٠٧

اسم الملك	مدة حكمه
امرؤ القيس بن النعمان	من سنة ٥٠٧ الى سنة ٥١٤
المنذر بن امرئ القيس بن ماء السماء	» » ٥١٤ » » ٥٦٣
عمرو بن هند مضرط الحجارة بن المنذر	» » ٥٦٣ » » ٥٧٨
ابن ماء السماء	
قابوس بن المنذر	» » ٥٧٨ » » ٥٨٢
المنذر بن المنذر بن ماء السماء	» » ٥٨٢ » » ٥٨٥
النعمان بن المنذر ابو قابوس	» » ٥٨٥ » » ٦١٣
اياس بن قبيصة الطائى	» » ٦١٣ » » ٦١٨
زاديه	» » ٦١٨ » » ٦٢٨
المنذر بن النعمان المغرور	» » ٦٢٨ » » ٦٣٢

الفرس وعرب الشمال

وما كان عرب الشمال او عرب الجزيرة من تغلب واياذ يتمتعون بشيء من الاستقلال الداخلى الذى كان يتمتع به اخوانهم وجيرانهم سكان الجنوب بل كانوا يخضعون للداين مباشرة ، مع احتفاظهم بنظام القبيلة وبالعادات والاخلاق العربية ، وكان الفرس يجبون الضرائب منهم ويخندونهم فى جيشهم ويعتمدون عليهم فى حروبهم مع الروم

الدبوانه العربى فى المداين

وكان فى بلاط كسرى ديوان خاص للشؤون العربيه ينظر فى امور العرب وقضاياهم وعن اشهر بين الذين تولوه عدى بن زيد واخوه ابى فقد ارسلهما قابوس ابن المنذر ليكونا فى خاصة كسرى ويتوليا الكتابة والترجمة ، وكان هنالك غيرهما

ايضا وكان الفرس يعتمدون على هؤلاء في كل ماله علاقة بامور العرب ويستشيرونهم ولا يقدمون على اجراء امر من الامور من دون اطلاعهم
ولم تك حالة العراق في اواخر عهد الدولة الساسانية على ما يرام ففشت الشيوعية والاحاد في ربوعه وكثرت الاضطرابات الداخلية بسبب الحروب المستمرة والحرب
مهما تكن اسبابها وغايتها مهلكة للبلاد ، متعبة للشعب ولذلك لم يلبث المسلمون ان
تغلبوا عليها حينما هاجموا فقد تضافرت عليها العوامل الطبيعية والقوى المادية (قوة
المسلمين) فاودت بها وقضت عليها

مجلس سوري الصحابة يقرر مهاجمة فارس

يقول بعض المؤرخين الاسلاميين انه لما نضجت فكرة غزو الروم والفرس في ذهن ابي بكر واعتقد ان مصلحة الاسلام والمسلمين هي في مهاجمة حدود هاتين الدولتين واثارة حرب عليهما ، دعا اقطاب الدولة الجديدة وجود الصحابة واعيانهم الى اجتماع عقده للبحث والمناقشة ، لانه لم يشأ ان ينفرد بالامر وحده ، ولا ان يأخذ تبعة على عاتقه ، فلما اجتمعوا بسط لهم مشروعه القائم على مهاجمة الدولتين واستأذنتهم في تنفيذه وبسط لهم ما ينطوى عليه من فوائد فاستصوبوه واقروه ودعوا له بالتوفيق والنجاح . وقال على بن ابي طالب وكان من الذين حضروا مجلس الاستشارة :

« ارى انك مبارك الامر ، ميمون النقيبة ، فانك ان سرت اليهم او بعثت اليهم نصرت ان شاء الله »

ولم يتردد ابو بكر حينما نال هذا « التفويض » في اصدار الامر الى كبير قواد جيشه في اليمامة بان يتجه نحو العراق . فقد اجمع المؤرخون انه كتب اليه في اوائل السنة الثانية عشرة يأمره بان يقصد العراق ويبدأ بالهجوم على ثغر الابله (لاتزال قائمة حتى اليوم ويسمونها جبلة بتشديد اللام وهي قرب الزبير وطولول البصرة القديمة . وتقع في منتهى الخليج الفارسي من جهة العراق . ولم تك مدينة البصرة الحاضرة قد اسست وقد اسسها السامون بعد ذلك كما لا يخفى)

واصدر ابو بكر في الوقت نفسه امرا الى عياض بن غنم بان يهاجم شمالي العراق ويبدأ بالميصخ (واطله مصيخ بهراء وهو ماء بالشام كما جاء في ياقوت غير معروف في الوقت الحاضر) واذا صح هذا فمعناه ان عياض سار الى العراق من المدينة بطريق

الجوف على ان يقصد منها الى الجزيرة لانه لم يكن بين القواد الاحد عشر الذين اتدبوا لقتال اهل الردة أى انه لم يكن فى نجد مع جيوش المسلمين ليقل انه تلقى الامر كما تلقاه خالد ، فسار الى الجوف على ان يقصد منها شالى العراق وينقض على الفرس فى الوقت الذى يهاجمهم فيه خالد من الجنوب . ولئن رافق التوفيق حملة خالد فهدت للمسلمين فتح العراق وفارس وكان على يدها انشاء هذا الملك الاسلامى الضخم فى اواسط آسيا ، فقد تخلف التوفيق عن حملة عياض فاجتمعت عليها عربان الجوف وبادية الشام وحالت دون تقدمها فاضطرت ان تستنجد بخالد فاسرع اليها من الانبار وهو مكان فى جوار الفلوجة وتبعد عن بغداد ٦٥ كيلو مترا للغرب وانقذها وقتك بالذين اجتمعوا عليها وفرق مجموعهم وقواهم . فانضمت على اثر ذلك الى حملته وقاوتت معه ، واخر عدم نجاحها فتح الجزيرة فلم تخضع للمسلمين الا بعد فتح المداين كما سيأتى تفصيلا

خالد بن الوليد

هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم بن يقظة بن مرة ابن كعب بن لؤى بن غالب ، ابو سليمان وقيل ابو الوليد القرشى المخزومى وامه عصماء (لبابة الصغرى) بنت الحارث بن حزن بن بجيرة بن الهزيم بن روية بن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة الهلالية ، وهي اخت ميمونة زوج الرسول ، واخت لبابة الكبرى ، زوج العباس بن عبد المطلب ، عمه

كان ابوه الوليد بن المغيرة سيدا من سادات قريش ، وجوادا من اجوادها ، وكان يلقب بالوحيد ، وقيل انه كان يلقب بالعدل ، لانه كان يكسو الكعبة من ماله سنة ، وتكسوها قريش سنة اخرى

وورث خالد عن والده « القبة » وكانوا يضربونها ليجمعوا فيها ما يجهزون به الجيش ، من لباس ومأكل وميرة ، وكانت له اعنة الخيل ايضا فكان المقدم على خيل قريش (قائد الفرسان)

واسلم خالد بعد الحديبية ، ولما مال الى الاسلام ، قدم الى المدينة هو وعمرو بن العاص وطاحه بن ابى طلحة العبدري فلما رآهم الرسول قال لاصحابه « رمتكم مكة بافلاذ كبدها »

وروى الواقدي عن الحارث بن هشام فى سبب اسلامه ما يأتى منقولاً عن لسانه قال :

« لما اراد الله بي من الخير ما اراد ، قذف فى قلبى حب الاسلام ، وحضرنى رشدى وقلت قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد فليس موطن اشهد الا وانصرف وانى ارى فى نفسى انى موضع فى غير شىء وان محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله

الى الحديدية خرجت في خيل للمشركين ، فلقيت رسول الله في اصحابه بعسفان ،
فقتم بازائه وتعرضت له ، فصلى باصحابه الظهر اماما فهمنا ان تغير عليه ، ثم لم يعزم لنا
وكان فيه خيرة ، فاطلع على ما في انفسنا من المهجوم به فصلى باصحابه صلاة الخوف ،
فوقع ذلك منى موقعا وقت الرجل ممنوع ؛ وافترقنا وعدل عن سنن خيلنا فاخذ
ذات اليمين

فاما صالح قريشا بالحديبية ودافعه قريش بالراح ، قلت في نفسي أى شىء
بقى ؟ اين المذهب ؟ الى النجاشى فقد اتبع محمدا واصحابه آمنون عنده ، فاخرج الى
هرقل فاخرج من ديني الى نصرانية او يهودية ، فاقيم في عجم او اقيم في دارى
فيمن بقى . وبينما انا على ذلك اذ دخل رسول الله في عمرة القضية وتغييت فلم اشهد
دخوله ، وكان اخى الوليد قد دخل مع النبي في تلك العمرة فطلبني فلم يجدني فكتب
الى كتابا فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد . فانى لم ار اعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك ،
ومثل الاسلام يجبهله احد ، وقد سألتى رسول الله ﷺ عنك فقال اين خالد ؟ فقلت يأتى
الله به فقال مامثله يجبهل الاسلام ، ولو كان يجعل نكايته وحده مع المسلمين على
المشركين كان خيرا له ، ولتقدمناه على غيره ، فاستدرك يا اخى ماقد فاتك من مواطن
صالحه »

ولما جاءنى كتابه ، نشطت للخروج وزادنى رغبة في الاسلام ، وسرتنى مقالة
رسول الله ثم رأيت في النوم ، كأنى في بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلاد خضراء واسعة
فقلت ان هذه الرؤيا حق ، فاما قدمت المدينة قلت لأذكرها الى ابى بكر فذكرتها
فقال هو مخرجك الذى هداك للاسلام والضيق الذى كنت فيه الشرك

فاما اجمعت الخروج الى رسول الله قلت من اصحاب اليه فلقيت صفوان بن امية
فقلت اما ترى يا ابا وهب ؟ اما ترى مانحن فيه ؟ انما نحن اكلة رأس ، وقد ظهر محمد
على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعنا فان شرف محمد شرف لنا فانى على اشد

الاباء وقال لو لم يبق غيرى من قریش ما اتبعته ابدا فافترقنا فقلت هذا رجل موتور
يضرب وترا قتل ابوه واخوه بيدر

ثم لقيت عكرمة بن ابى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان . فقال لى مثل
ما قاله فقلت فاطو ما ذكرت على قال لا اذكره . وخرجت الى منزلى فامرت براحتلى
تخرج الى ان التى عثمان بن ابى طلحة . فقلت ان هذا لى لصديق فلو ذكرت له ما
اريد ، ثم تذكرت ما قتل من آباءه فكرهت ان اذكره ثم قلت ما على وانا راحل من
ساعتى ؟ فذكرت له ما صار الامر عليه . وقلت انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لوصب
عليه ذنوب من ماء خرج ، وقلت له نحوا مما قلت لصاحبه فأسرع بالاجابة ، وقال :
لقد غدوت اليوم وانا اريد ان اغدو وهذه راحلتى بفتح مناخه وانفقنا ان سبقنى اقام
وان سبقته اقت عليه

وادلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بياجج (مكان على طريق المدينة
يبعد عن مكة ١٢ كيلومترا) فغدونا حتى انتهينا الى الهدمة فوجدنا عمرو بن العاص بها
فقال مرحبا بالقوم

- وبك

- اين مسيركم ؟

- ما اخرجك ؟

- فما الذى اخرجكم ؟

- الدخول فى الاسلام واتباع محمد

- ذاك الذى اقدمنى

فاصطحبنا جميعا حتى قدمنا المدينة ، فانحنا بظاهر الحرة ركابنا واخبر بنا رسول
الله فسر بنا ، فلبست من صالح ثيابى . ثم عمدت الى رسول الله فلقينى اخى فقال ان
رسول الله اخبر بقدمك فسر به وهو ينتظركم ، فاسرعت بالمشى فطلعت فما زال يتسم
الى حتى وقفت فسامت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق فقلت انى اشهد ان
لا اله الا الله وانك رسول الله ، فقال : الحمد لله الذى هداك

– قد رأيت ما كنت اشهد من تلك المواطن عليك معاندا عن الحق فادع الله

ان يغفرها لى

– الاسلام يجب ما قبله

– على ذلك يارسول الله

– اللهم اغفر لخالد كل ما اوضع فيه من صد عن سبيلك

وتقدم عمرو و عثمان فبايعا رسول الله ، وكان قدومنا في شهر صفر من سنة

ثمان ، فوالله ما كان رسول الله يوم اسامت يعدل بي احدا من اصحابه فيما حزبه «

وشهد خالد فتح مكة وما بعده من المشاهد وابلى احسن بلاء في العراق والشام

وسياتى وصف ذلك كله ، ومات على فراشه بجمص في سنة ٢١ للهجرة

ولما حضرته الوفاة بكى وقال «لقد حضرت كذوكذا زحفا وما في جسدى شبر

الا وفيه ضربة بسيف او رمية بسهم او طعنة رمح وها انا اموت على فراشى حتف

أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت اعين الجبناء «

ومما يؤثر عن خالد قوله وهو على فراش الموت: «لقد طلبت القتل في مكانه ، فلم

يقدر لى الا ان اموت على فراشى وما من عملى شىء ارجى عندى بعد لاله الا الله من

ليالة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين بتها وانا مترس والسماء تنهل على وانا

انتظر الصبح حتى اغير على الكفار فعليكم بالجهاد «

واوصى بان يجعل سلاحه وفرسه عدة فى سبيل الله . ومات وهو فى الستين

ووصفه النبي بانه سيف من سيوف الله

اعمال المسلمين العسكرية في جنوب العراق

لم يشأ خالد حينما اقترب من ثغر الابله (البصرة القديمة) ان يهاجمها غدرا، وان ينزل سيف النقمة على رؤوس سكانها ، بل كتب كتابا الى هرمز ، عامل كسرى في ذلك الثغر الفارسي الكبير ، يخبره فيه بين الدخول في الاسلام او دفع الجزية او الاستعداد للحرب ، وهى الخطة التى اتبعها المسلمون فى جميع حروبهم قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من خالد بن الوليد الى هرمز

« اما بعد فاسلم تسلم او اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرب بالجزية والا فلا

تؤمن الا نفسك فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

واعد خالد عدته للحرب على اثر ارسال هذا الكتاب ، لانه ما كان يجهل

الجواب ، وقدم جيشه الى ثلاثة اقسام فسار كل فريق من ناحية وواعدهم الاجتماع

بالحفير وهو موضع ماء على ستة كيلومترات من البصرة على طريق البحرين ، ولما

تلقى هرمز الكتاب خرج بقواه للقائهم . ومعنى ذلك انه اراد ان يكون مهاجما لامدافعا

فلا يحصره المسلمون فى داخل مدينته ، وكتب الى كسرى بما حدث وبما فعله . وبلغه

فى الطريق ان العرب اتعدوا الاجتماع فى الحفير فقصدها وابعثها قبل ان يباغوها فاحتل

ماءها وعبأ جيشه استعدادا للقائهم . وعرف خالد بوصول قوى الفرس الى الحفير

فتحول عنها الى « كاظمة » بقرب البصرة وهى احدى الكواظم (مدن قديمة) بينها

وبين البصرة نحو ١٢ كيلومترا

المعركة الاولى بين العرب والفرس

واتصل بهرمزان العرب احتشدوا في كاظمة فسار اليهم على الفور وفيها التقى الجيشان . وكانت المرة الاولى التي التقى فيها العرب بالفرس في الاسلام وكان كل من خالد وهرمز في مقدمة جيشه فتبارزا فقتل خالد مبارزه وشتت جيشه فكان اول نصر ناله المسلمون على الفرس في الاسلام فشجعهم وقوى عزائمهم ونشطهم . على ان بعض المؤرخين يقول ان اللقاء الاول كان في الحفير لا في كاظمة

المعركة الثانية

وواصل خالد زحفه نحو الشمال فعرف ان الفرس جهزوا جيشا للقائه بقيادة قارن بن قريانس وان هذا - وقد كان قادما لنجدة هرمز - توقف في المذار (وهو على بعد ٩٦ ميلا من شمالي البصرة قرب قلعة صالح في لواء العاراة في الوقت الحاضر ويبعد عن المدائن ٢٤٠ ميلا الى الجنوب) فاسرع خالد للقائه واشتبك الجيشان واقتلا قتالا شديدا انتهى بفوز خالد وتغلبه على الفرس فانهمزوا بعد ما قتل منهم عددا كبيرا وعبروا دجلة من ضفته الغربية الى الشرقية فلم يتمكن المسلمون من اللحاق بهم ومطاردتهم لقلة وسائل المواصلات لديهم

المعركة الثالثة

وأعد الفرس جيشا ثالثا على جناح السرعة للقاء العرب غادر المدائن فلم ينتظر خالد وصوله بل زحف اليه على جاري عادته - بعد ما قام في المذار قوة لحفظ خط رجعتة - فالتقى الجيشان في الوجبة (شمالي المذار) - ويقولون انها مدينة واسط التي بناها الحجاج وهي تبعد عن مدينة الحى اليوم سبعة اميال - فصدم الفرس صدمة عنيفة وكان قد قسم جيشه الى ثلاث اقسام ولم يلبث ان هزمهم واتصر عليهم وقتل في هذه

المعركة كثيرون من نصارى العرب من قبائل بكر بن وائل وقد جندهم الفرس لقتال ابناء جلدتهم

الفرس يعبؤون بهيما رابعا

وعبأ الفرس جيشا رابعا قاده بهيمن جاذويه قائد الجيش الثالث وقد احتشدها الجيش في اليس من قرى الانبار قرب (الفلوجة) فسار خالد اليهم على جارى عادته وهزمهم وهكذا سحق في مدة قصيرة اربعة جيوش للفرس

دمية والفرات

والباحث في خطط خالد العسكرية والاساليب التي اتبعها في قتال الفرس بالعراق والطرق التي سلكها يتبين له انه اتبع دجلة في زحفه من الجنوب الى الشمال ، ويجرى دجلة من الشمال الى الجنوب ويشق المداين (عاصمة الفرس يومئذ) واسمها بالفارسية طيسفون وهي مبنية على ضفة دجلة اليسرى وتقابلها سلوقيه على الضفة اليمنى وتبعدان ٢٠ ميلا عن بغداد جنوبا

ويقترن نهر الفرات في سيره الى الجنوب بدجلة ويؤلفان عند اجتماعهما شط العرب في القرنة ، من الاقتران (اقتران دجلة بالفرات) ويتصل بخليج فارس فالحيط الهندى كما لا يخفى . ولئن لم يتغير مجرى هذين النهرين الكبيرين في المناطق العليا الا ان مجراهما في جنوبى العراق ووسطه قد تغير تغيرا كبيرا في مناطق شتى . ولا سيما في المكان الذى يجتمعان فيه

وكان القسم الاكبر من دجلة يتبع مجرى نهر العراف في عهد الساسانيين وفي ابتداء الفتح الاسلامى ويصب قليل منه في المجرى الذى يمر بمدينة العمارة الآن ، وكان يلتقى بالفرات في جواز القرنة . اما ماء شط الفرات فكان يصب في البطائح ، ثم يجرى نحو الشرق فيصب في شط العرب ، وكان هنالك رافد يصل حتى جوار المذار

وكان نهر الفرات يجري على فرعين في العهد الساساني فرع بابل (شط الحلة الآن) وفرع الكوفة (شط الهندية الآن) وكانا يلتقيان قرب السماوة في الجنوب ويصبان في البطائح ويتصلان ببحيرات صغيرة صالحة للملاحة تنتهي بشط العرب وتربط المداين بنخليج فارس

السواد

وكانوا يطلقون اسم السواد على القسم الممتد من اول حدود العراق الجنوبية حتى سامراء وهيت فيشمل البصرة والحلة والديوانية والعمارة وكر بلاء والنجف والكوفة ، ويقال انها سميت سوادا لاشتباك شجر النخيل فيها فكان القادم الى العراق يرى من بعد سوادا فسميت به . اما الجزيرة فتشمل المنطقة الممتدة ، من شمالي سامراء حتى شمالي الموصل على مجرى دجلة وشمالي هيت على مجرى الفرات

الفرس ينقلون مبراه القتال

ورأى الفرس بعد ما هزمهم خالد الهزائم المتتابعة على دجلة ان ينقلوا ميدان القتال الى منطقة الفرات فيبعدوا الخطر عن عاصمتهم ، فآخذوا يحشدون جيشا جديدا في « اليس » قرب الانبار (والانبار بجوار الفلوجة اوهى نفسها وتبعد عن بغداد ٦٥ كيلومترا وهى الى غربيها وتقع على ضفة الفرات الشرقية) وبلغ خالد احتشادهم فطار اليهم على جناح نعامه ، لانه انما كان يطارد الجيش الفارسي نفسه ويسعى لضعافه وتمزيق شمله وضره بالضربة القاضية ، ومتى ادرك ذلك، استسامت اليه البلاد وانقادت فالهم هو تمزيق جيوش العدو لا احتلال مدنه فانه لا يحجم ان ينقض على عدوه عند سوح القرص ويتغلب عليه ويخرجه من بلاده ما دامت قواد سليمة

وقاد بهمن جاذويه الفرس في اليس ، كما قادهم من قبل في الوجلة ، ولم يستطع ثباتا امام خالد حينما دارت رحى الحرب فولى الادبار وارتد بفلوله الى المداين وهكذا سيطر المسلمون على المنطقة الممتدة من جنوبي الانبار حتى شط العرب ، كما كانوا يسيطرون على المنطقة الممتدة من جنوبي الوجلة حتى البصرة ايضا اى انهم امتلكوا السواد كله تقريبا

فتح الحيرة

وصلت اخبار انتصار خالد في اليس الى مرزبان الحيرة (القائد الفارسي فيها ، وكانوا يلقبون كل قائد فارسي بهذا اللقب كما كانوا يلقبون قواد الروم بلقب بطريق وهي تعادل كلمة جنرال عند الاوربيين في عصرنا) وتقع الحيرة جنوبي الانبار وبينهما نحو ٩٠ - ٩٢ ميلا وعرف ان خالدا لا بد مدركه فتجهز وأعد معدات الحصار وجمع الجند والقوى وأرسل قوة بقيادة ولده للكشف والاستطلاع . وكان من التدابير التي عمد اليها تفجيرها الانهار الآخذة من الفرات فقل ماؤه فرست السفن على الطين ووقفت عن السير وكان خالد يعتمد عليها في نقل جيشه في زحفه من اليس الى الحيرة والظاهر انها مما غنمه من الفرس

وسار خالد على الفور الى الحيرة لمنازلة الفرس فنزل قرب قصر الخورتق ويقع شرقي الحيرة في الطريق بينها وبين النجف ، وهو من قصورها المشهورة وكان على نهر يسمى باسمه وهو على ميل منها ، فنزل وضرب خيامه استعدادا للنضال وكان ملك الحيرة يومئذ المنذر الخامس بن النعمان الثالث وقد تبوأ الملك سنة ٦٢٨ والظاهر انه لم يكن له من الامر شيء فقد تولى القائد الفارسي (المرزبان) في اول الامر الدفاع عن العاصمة وحاول صد المسلمين عنها . ولما ظهر عجزه وادرك انه لا قبل له بلقائهم توأرى بقواته وراء الاسوار وتحصن مع الذين تحصنوا من اهلها ونفذ خالد تعليمات ابي بكر فأرسل الى اهل الحيرة رسولا ابلاغهم اقتراحاته

المعروفة وخيرهم بين واحدة من ثلاث فاما الاسلام واما الجزية واما الحرب وامهلهم ٣٤ ساعة ليختاروا واحدة منها . ولما انقضى الموعد المضروب ولم يرد جوابهم امر بالهجوم على المدينة ومضايقتها فنادى القيسيون والرهبان : يا اهل القصور ما يقتلنا غيركم . وتظاهر غيرهم من العامة طلبا للصالح فلم ير الرؤساء والزعماء بدا من الاستسلام فطلبوا الى خالد ان يكف الحرب عنهم واخبروه انهم قبلوا المطلب الثانى وهو الجزية وانهم سيدفعونها فورا

اول جزية يقبضها المسلمون

وهكذا دخلت الحيرة (عاصمة المناذرة) فى حوزة المسلمين وقضى على نفوذ الفرس فى بلاد المناذرة وهذه صورة عهد خالد لأهل الحيرة :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة : ان خليفة رسول الله ﷺ ابا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه امرنى ان اسير بعد منصرفى من اهل اليمامة الى اهل العراق من العرب والعجم و بان ادعوهم الى الله جل ثناؤه والى رسوله عليه السلام ، وابشرهم بالجنة ، وانذرهم من النار فان اجابوا فلهم ما للمسلمين ، وعليهم ما على المسلمين وانى انتهيت الى الحيرة ، فخرج الى اياس بن قبيصة الطائى فى اناس من اهل الحيرة من رؤسائهم ، وانى دعوتهم الى الله والى رسوله فأبوا ان يجيبوا فعرضت عليهم الجزية او الحرب ، فقالوا : لاحاجة لنا بحربك ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من اهل الكتاب فى اعطاء الجزية وانى نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل ، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانه الف رجل ، فاخرجتهم من العدة . فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف فصالحونى على ستين الفا وشرطت عليه ان عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على اهل التوراة والانجيل ان لا يخالفوا ، ولا يعينوا كافرين على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوه على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه ان اخذه اشد ما اخذه على نبي من عهد او ميثاق او ذمة ، وان خانفوا

فلا ذمة لهم ولا امان وان هم حفظوا ذلك ووعوه وادوه الى المسلمين فلهم ما للعاهد. وعلينا المنع لهم ، فان فتح الله علينا فهم على ذمتهم لهم بذلك عهد الله وميثاقه اشد ما اخذ على نبي من عهد او ميثاق ، وعليهم مثل ذلك لا يخالفوا ، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، او اصابته آفة من الآفات ، او كان غنيا فافتقر ، وصار اهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ، ما اقام بدار الهجرة ودار الاسلام ، فان خرجوا الى غير دار الهجرة ودار الاسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم ، وأيما عبد من عبيدهم اسلم اقيم في اسواق المسلمين فبيع بأعلى ما يقدر عليهم في غير وكس ولا تعجيل ، ودفع ثمنه الى صاحبه ، ولهم كل ما لبسوا من الزى الا زى الحرب ، من غير ان يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ، وإيما رجل منهم وجد عليه شيء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه الى بيت مال المسلمين ، عمالهم منهم ، فان طلبوا عوننا من المسلمين اعينوا به ، ومؤنة القواد من بيت مال المسلمين »

وقبض خالد من اهل الحيرة ٩٠ الف درهم وهي اول جزية يقبضها المسلمون واهدوا له هدايا امره ابو بكر بان يعدها من الجزية ففعل

خالد يستقر بالحيرة

واستقر خالد بالحيرة وانشأ فيها حكومة اسلامية واخذ يعمل لنشر نفوذ الاسلام في منطقة الفرات وكان صالوبا بن نسطون صاحب قس الناطف وهو موضع على الفرات الشرقي قرب الكوفة و بينهما نحو ٢٠ كيلو مترا - اول من صالح الفاتحين من امراء البلاد المجاورة وهذا نص كتاب خالد له :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من خالد بن الوليد لصالوبا بن نسطون وقومه انى اعاهدكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد سوى ما على بانقيا وباروسا جميعا على عشرة آلاف.

دينار سوى الجزية القوي على قدر قوته والمقل على قدر اقلاله في كل سنة وانك قد
نقبت على قومك وان قومك رضوا بك وقد قبلت ومن معي من الساميين ورضيت
ورضى قومك فلك الذمة والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم »

مهارد ينذر كسرى وقواد الفرسى

وارسل خالد من مقامه بالحيرة الكتاب الآتى الى كسرى يكرر فيه دعوته له
بالدخول فى الاسلام ويهدده بالزحف عليه وتدمير ملكه اذا لم يقبل وهذا كتابه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد الى ملوك فارس

اما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ووهن كيدكم وفرق كلمتكم ولو لم يفعل ذلك
بكم لكان شرا لكم فادخلوا فى امرنا ندعكم وارضكم ونجوزكم الى غيركم والا كان
ذلك واتم كارهون على غلب على ايدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة »

وارسل الكتاب الآتى من الحيرة الى مرازبة (قادة) الجيش الفارسى قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس

الحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، واوهن بأسكم ، وسلب اموالكم
وازال عزكم ، فاذا اتاكم كتابى هذا فابعثوا الى بالرهن واعتقدوا منا الذمة ، واجيبوا
الى الجزية والا فوالله الذى لا اله الا هو لأسيرن اليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون
الحياة ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا

ولم يتلق جوابا لا من الملك ولا من هيئة القواد ، وبدلا من ان ينزل هؤلاء
على امره ويحجبوا دعوته انصرفوا الى حشد قواهم وتنظيم شؤونهم الداخلية
وازالة ما بينهم من ضغائن وخلافات ومنافسات لاريب فى انها سهلت مهمة خالد
كثيرا وساعدته على نيل اوطاره وبديهى ان فوز الساميين على الفرس
فى المعارك التى نازلوهم فيها وتغلبهم عليهم - وقد حكموا العرب وسادوهم مدة

خمسة قرون تقريباً (٢٢٦ - ٦٣٢ م) ما عدا فترات قصيرة - من الحوادث الخطيرة التي لا يستهان بها والمرّة الوحيدة التي انتصر فيها العرب على الفرس هي يوم ذى قار (ماء لبكر بن وائل قرب الكوفة يقع بينها وبين واسط اى بين الفرات ودجلة) فقد قاتل بنو شيبان قوى الفرس والعرب الموالية لهم وتغلبوا عليها وهزموهم بفضل انضمام قبيلة اباد الى بنى شيبان وكانوا يقاتلون في صفوف الفرس حين ابتداء المعركة ويقال انها حدثت في نفس السنة التي حدثت فيها معركة بدر الكبرى والراجح انها كانت بين سنة ٦١٣ و ٦١٨ ولما بلغ الرسول خبرها قال (هذا اول يوم اتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا)

مخططة عسكرية همدانية لخالد

ورأى خالد بعد ما فتح الحيرة واستقر فيها واخضع جنوبى العراق ان يلحق بحمّة عياض بن غنم - وقد ذكرنا من قبل ان ابا بكر وجهها لغزو شمالى العراق فى نفس الوقت الذى امر فيه خالد بان يغزو من الجنوب ، وقد رمى من توجيه هاتين الحملتين فى وقت واحد الى تعاونهما فى الفتح فتسير كل حملة من ناحية وتجتمعان فى الوسط وتعملان متحدتين وفى ذلك قضاء على الدولة الفارسية وفناء لها ، ولم يصحب التوفيق حملة الشمال فلم تعمل عملاً يذكر فاستقر قرار خالد ان يسير اليها ثم يزحف بها من الشمال الى الجنوب وينفذ ما امر به الخليفة ولو تم ذلك لسهل مهمة المسلمين فقد كانت للفرس معقل وحصون فى هذه المنطقة كالحضر والاخضر والحراب وهى قصورا وهى حصون معروفة واطلاها شاخصة الى اليوم ، تحول دون اجراء الحركات العسكرية بسهولة

وولى خالد القعقاع بن عمرو الحيرة وغادرها الى الشمال للاجتماع بعياض ، فسلك طريق الانبار - وكانت لا تزال بيد الفرس - لانه لم يهاجمها بعد معركة اليبس وهى فى شمالها بل اتجه الى الجنوب فوصل الحيرة كما تقدم . وبلغ قائد الانبار خروجهم فتهباً لقتاله ، وحشد الجيوش للقائه ، وامر خالد رماة المسلمين حين بلغ

الانبار وشاهد اهلها وقد تحصنوا وراء الاسوار بان يرموهم بنبالهم ، ثم امر مشاته
بالمهجوم عليها

ورأى قائد الحامية انه لا قبل له بالمقاومة فصالحه على ان يسامه المدينة وعلى ان
ينجو ومن معه بارواحهم وتركوا له الاموال والمتاع ونفذت هذه الشروط وتسلم
المسلمون الحصون وعين خالد الزبرقان بن بدر قائدا لها

وعلم المسلمون وهم في الانبار (الفلوجة) ان الفرس والعرب المنتصرة يتجمعون
في (عين التمر^(١)) موضع على مسافة ستة اميال من شفانا و٥٢ ميلا من كربلا بقيادة
مهران بن بهرام ، وانهم حشدوا لهم قوى كبيرة ، فزحف الى لقاءهم على جارى عادته
ليضربهم قبل ان يتموا تجمعهم ورتب جيشه وعبأ استعدادا للنضال والكفاح فلا
يؤخذ على غرة

وقال عقبة بن ابى عقبة - وكان يقود جموع العرب المنتصرة من تغلب وايد
وغيرها وقد اجتمعت في عين التمر - لقائد الفرس : ان العرب اعرف بقتال العرب
فدعنى وخالدا فاننا له

— افعل ما بدالك

— اذن ساخرج للقاءه واهاجمه قبل ان يهاجمنا

— لا مانع

وخرج عقبة بمن تبعه من جموع العرب للقاء خالد ولزم قائد الفرس مكانه
انتظارا لنتيجة المعركة

ومكن انقسام جيش الفرس على هذا المنوال وتشتت قواهم خالدا من التغلب
عليهم فلم يلبث ان انشب محالبه في جيش العرب واخذ قائدهم (عقبة) اسيرا .
فرجع قومه الى عين التمر ينادون ويلا وثبورا فاخاف ذلك الفرس وامات القوة

(١) كانت من المدن المعروفة في عهد المناذرة وهى على طريق القوافل بين
الشام والعراق وقد دمرت الآن وعفت آثارها ويقال انها كانت بالقرب من ناحية
شفانا (من اعمال لواء كربلاء) وغربي الكوفة

الادبية في صدورهم فغادر معظمهم الحصن وفي مقدمتهم قائدهم من دون ان ينتظروا وصول المساميين وهكذا نال خالد فوزا كبيرا في هذا الميدان بسوء تصرف القائد الفارسي ، فلو استبقى قواه كلها ونظم صفوفه لاستطاع منازلة خالد وعرقلة حركاته العسكرية على الاقل

وبلغ خالد بعد ذلك عين التمر فحضر الحصار عليها ولم يلبث ان دخلها عنوة وقتل من فيها وسبي نساءها واهلها فسيطر بذلك على طريق القوافل الجنوبي بين العراق والشام وقضى على كل نفوذ للفرس في هذه الناحية

مصدر حملة الشمال

لئن اغفل مؤرخو الاسلام العسكريون الكلام عن حملة عياض ولم يعنوا بتدوين اخبارها - والواقع انها لم تعمل عملاً يذكر - فالمفهوم من امرها انها بعد ما غادرت المدينة ووصلت الى الجوف (دومة الجندل) في طريقها الى شمالي العراق كما رجحنا ذلك من قبل وقفت فيه لقتال نصارى العرب الذين تصدوا لها بالاتفاق مع اكيدر صاحب الجوف والظاهر انه نقض عهد المسامين مع انه دخل في طاعتهم على يد خالد في اثناء غزوة تبوك كما سيأتي في المجلد الثاني

ولما تبين عياض عجزه عن شق طريق حملته والتقدم الى شمالي العراق ولما كان خالد اقرب اليه من المدينة كتب اليه يستقدمه اليه فيشتركان في العمل فوصله الكتاب وهو في عين التمر . ولا يخفى ان هذه الفكرة خطرت في بال خالد قبل ان تخطر في بال عياض ولا ادل على ذلك من وصول رسول هذا اليه وهو في طريقه للقاءه

افتتاح الجوف واستسلام العرب

وواصل خالد زحفه الى دومة الجندل وكان عياض لا يزال في اطرافها وهو يطاول العرب انتظاراً لوصول خالد فلما عرف قادة هؤلاء بوصولهم اشار عليهم اكيدر صاحب الجوف بالاستسلام اليه ومصالحته على الشروط التي يقترحها لانه لا قبل لهم بمقاومته والوقوف في وجهه وقال لهم مانصه « انا اعلم الناس بخالد لا احد ايمن طائراً منه ، ولا اصمد في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم ابداً قلاوا او كثروا الا انهزموا عنه فاطيعوني وصالحو القوم » فصرخوا بنصحه عرض الحائط ولم يستمعوا اليه فقال

لهم حينما رأى اصرارهم على القتال: «شأنكم ومآثر يدون» وانفصل عنهم برجاله وهكذا تفرقوا واختلفوا وانقسموا قبل ان يروا وجه خالد وقبل ان يصل اليهم . فتكرر في الجوف ما وقع في عين التمر

وواصل خالد تقدمه حتى بلغ الجوف فنزل عندها وكان فيها الجودى بن ربيعة ومن معه من رؤساء قبائل الاطراف (قبائل الشام لا قبائل الحجاز) التي انضمت اليه لقتال المسلمين بتحريض الروم واغرائهم - فهاجمهم واشتركت الحملتان في قتال القوم وهزموهم ولم ينج منهم الا بنو كلب حلفاء بنى تميم فقد اجارهم عاصم بن عمرو التيمي و بهذا خضع الجوف للمسلمين وملكوه و بذلك صاروا يسيطرون على طريق القوافل الشمالى فى الصحراء

الحرب فى شمال العراق

قفل خالد الى الحيرة مع قوى عياض بن غنم ، بعد ما ادب بعض قبائل الشام وضربهم ضربة شديدة ، ولم يذهب الى فلسطين والاردن للاشتراك فى الاعمال العسكرية التى كانت تعمل فيها ، لانه تلقى وهو فى الجوف اخبارا بان الفرس يتجمعون لقتاله ويبعثون القوى لنزاله

وسير بعد وصوله الى الحيرة سريتين الاولى الى الحنافس - اسم لارض قرب الانبار كانت تقام فيه للعرب سوق - فاوقت بمن كان فيها من رجال العدو وهزمتهم واحتلتها كما ارسل سرية اخرى الى الحصيد (موقع فى اطراف العراق من جهة الجزيرة) فهزمت العدو واحتلته

وقصد خالد بعد ذلك المصيخ فى شمالى العراق (مجهول الآن) فدارت بينه وبين الفرس معارك انضم فيها العرب من نصارى الشام الى العرب من نصارى العراق وقتلوا

المسلمين جنبا الى جنب مع الفرس والروم و ربما كانت هي المرة الوحيدة التي يتحد فيها الاعداء القدماء ويتعاونون فقد ادركوا ان انتصار المسلمين مؤذن بقاء الامبراطوريتين على السواء . وانتهت المعارك التي دارت في هذا الميدان بانتصار المسلمين وهزيمة المتحالفين

خالد في ميدان الشام

وتلقى خالد بعد منصرفه من الشمال كتابا من ابي بكر يوجهه فيه الى قتال الروم في الشام ومشاركة المسلمين في نضالهم وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

من ابي بكر الى خالد بن الوليد

سرحتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا واشجوا ، واياك ان تعود مثل ما فعلت (١) فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك ، فليهنك ابا سليمان النية والحظوة ، فآتم يتمم الله لك ، ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، واياك ان تدل بعمل فان الله له المن وهو ولى الجزاء »

وغادر الحيرة على الفور مع عشرة آلاف مقاتل وهم نصف جيش العراق وذلك في شهر صفر سنة ١٣ وسار سيرا حثيثا فادرك المسلمين وهم على وشك الدخول في معركة اليرموك فقادهم وادارها بكفاءة نادرة ففاز فوزا مبينا وتم على يده فتح الشام كما تم فتح جنوبي العراق وقد فصلنا ذلك تفصيلا وافيا في المجلد الثانى واسمه « حروب الاسلام والامبراطورية الرومية »

اعمال خليفته خالد

وخلقه على قيادة جند العراق المثنى بن ابي حارثة الشيبانى مع عشرة آلاف من

(١) قصد خالد مكة وهو منصرف من الفراض الى الحيرة فشهد الحج سنة ١٣ وادى الفريضة ثم عاد الى الحيرة من دون ان يستأذن ابا بكر فنهاه عن العودة لمثلها :

الجنود واتصل بهذا ان الفرس يجمعون الجيوش لقتاله وانهم حشدوا حشدا كبيرا في بابل (قرب الحلة وشرقي الحيرة) فسار اليهم وقاتلهم وهزمهم وطاردهم حتى قرب اندائن ثم عاد الى الحيرة .

واتصل بالقائد الجديد ان الفرس يجمعون جموعا عظيمة ، وابطأت عليه اخبار ابي بكر فرأى ان يذهب بنفسه الى المدينة للاجتماع به وبسط الحالة على مسامعه والاتفاق معه على خطة ينفذها - وبين المدينة والحيرة نحو ٩٥٠ كيلومترا ويسلك الحاج العراقي هذه الطريق في الوقت الحاضر فيسير من النجف قرب الحيرة الى المدينة بطريق حائل - فبلغ المدينة وابو بكر في مرضه الاخير ، وكان قد استخلف في الحيرة بشير بن الحنافة

ابوبكر يوصى بفتح فارس

قابل الثنى ابا بكر ووصف له الحالة واح بارسال قوى كبيرة لاتمام فتح فارس والقضاء على ملك الالكاسرة واقترح ان يستعان بمن اظهر توبته وندمه من اهل الردة - وكان ابو بكر امر قواد جيشه بان لا يستعينوا باحد منهم و بان لا يجندوهم فى صفوفهم - واقترح اقتراحات اخرى تدور كلها حول تعزيز الجيش العربى فى العراق ، فقد كانت قوى المسلمين الكبرى محشودة يومئذ فى الشام لمنازلة الروم وكانت خطة ابى بكر تقوم على اتخاذ خطة الهجوم فى ميدان الشام (الميدان الشمالى) واتزاعها من الروم نهائيا ثم الرجوع الى فارس وانجاز امرها وما كانوا يخشون منها بعد ما فتحوا جانبا كبيرا من بلادها وضربوا الفرس ضربات افقدتهم الرشد وزلزلتهم زلزالا شديدا

فلما سمع ابو بكر منه ما سمع ووعى اقتراحاته دعا بعمر بن الخطاب الخليفة العتيد - واوصاه بان يحشد القوى ويسيرها على الفور مع الثنى لقتال الفرس و بان يرجع خالدا ومن معه الى العراق متى تم فتح الشام وقال له مانصه :

« استمع يا عمر ما اقول لك ثم اعمل به : انى لارجوان اموت من يومى هذا . فان انا مت فلا تسمين حتى تندب الناس مع الثنى ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن امر دينكم ووصية ربكم . وقد رأيتنى توفى رسول الله وما ضعفت، ولم يصب الخلق بمثله . وبالله لو انى عن امر الله او امر رسول الله لخذلنا ولعاقبنا فاضطربت المدينة نارا . وان فتح الله على امراء الشام فاردد اصحاب خالدا الى العراق فانهم اهله وولادة امره وجنده واهل الضراوة بهم والجرأة عليهم »

عمر بنفذ وصية ابي بدار

ويكمل فتح العراق وايران

مات ابو بكر ليومه وخلفه في امارة المؤمنين عمر بن الخطاب صاحبه ووزيره ومستشاره ، وما كاد ينتهي من دفنه حتى بدأ بتنفيذ وصيته فاتتدب المسلمين للجهاد ودعاهم الى التطوع في قتال الفرس وبين لهم العاجل والآجل من فوائده ومما قاله في خطبته وهي الاولى بعد بيعته بالخلافة قال :

« ايها المسلمون

« ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه اهله الا بذلك .

اين الكبراء المهاجرون عن موعود الله

« سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب ان يورثكموها فانه قال

ليظهره على الدين كله والله مظهره ومعزه وناصره ، ومولى اهله موارث الامم ، اين

عباد الله الصالحون ؟ »

المتى بخطب

وخطب في هذا الاجتماع ايضا المتى بن حارثة الشيباني قائد جيش الحيرة فايد

عمر في دعوته وحض الناس على الخروج معه لقتال الفرس وهون امرهم ومما قاله :

« ايها المسلمون

« لا يعظمن عليكم امر الفرس فاننا قد تبجحنا ريف فارس وغلبناهم على

خير شق السواد ، وشاطرناهم ، ولننا من قبلنا عليهم . ولها ان شاء الله ما بعدها »

قائد هدير لجيش العراق

وكان ابو عبيد بن مسعود الثقفي اول من لبى الدعوة وتطوع للجهاد فى جيش العراق فولاه عمر القيادة العامة لهذا الجيش بدلا من خالد لانه سبق اخوانه من المهاجرين والانصار فى تلبية داعى الجهاد واوصاه الوصية الآتية : وهى اول وصية يوصى بها قائدا من قواده - قال :

«اسمع من اصحاب رسول الله واشركهم فى الامر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكث الذى يعرف الفرصة والكف »
وسار ابو عبيد من حينه الى الحيرة مع الجند الذى جهزله وتشمّر لحرب الفرس وكانوا قد احكموا امورهم ونظموا شؤنهم وحشدوا القوى الكبرى لقتال العرب

عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى من بنى عدى بن كعب بن لؤى
وامه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة ولد لثلاث عشرة
سنة خلت من ميلاد الرسول ، وكانت اليه السفارة فى الجاهلية ، فكانت قريش تبعته
سفيرا اذا وقع بينهم وبين احد خلاف ، او نافرهم منافر ، او فاخرهم مفاخر
وكان فى ابتداء امره شديد الوطأة على الاسلام والمسلمين ، مقاوما لهم ، ثم اسلم
فى السنة السادسة للبعثة ، فاعتز المسلمون به وهو المسلم الاربعون ، فقد سبقه ٣٩
رجلا وامرأة الى الاسلام

وقص عمر خبر اسلامه على النوال الآتى فقال :

« كنت من اشد الناس على رسول الله فىنا أنا فى يوم شديد الحر بالهجرة
فى بعض طرق مكة ، لقينى رجل من قريش فقال اين تذهب يا ابن الخطاب . انت
تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الامر فى بيتك
ن وما ذاك

– لقد اسامت اختك (واسمها فاطمة وقد اسامت مع زوجها سعيد بن زيد)
فرجعت مغضبا

وكان رسول الله يجمع الرجل والرجلين اذا اساما عند الرجل به قوة فيكونان
معه ويصيان من طعامه . وكان قد ضم الى زوج اختى رجلين فجت حتى قرعت
الباب فقيل من هذا ؟

– ابن الخطاب

فاما سمعوا صوتى – وكانوا جلوسا يقرؤن فى صحيفة معهم – تبادلوا واختفوا ،

وتركوا اونسوا الصحيفة من ايديهم . وقامت المرأة ففتحت لى فقلت يا عدوة نفسها
بلغنى انك صبأت (اسامت)

قال وارفع شيئا فى يدى فاضربها به فسال الدم فلما رأته بكت ثم قالت يا ابن
الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد اسامت

فدخلت وانا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب فى ناحية البيت
فقلت ما هذا الكتاب اعطنيه

– لا اعطيك ، لست من اهله . انت لاتغتسل من الجنابة ، ولا تتطهر وهذا
لايمسه الا المطهرون

ولم ازل بها حتى اعطتنيه فاذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة
من يدى ثم رجعت الى نفسى فاذا فيها « سبح لله ما فى السموات والارض وهو العزيز
الحكيم » وما وصلت الى قوله « ان كنتم مؤمنين » قلت اشهد ان لا اله الا الله واشهد
ان محمدا رسول الله نخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشارا بما سمعوه منى وحمدوا
الله عز وجل . ثم قالوا ابشريا ابن الخطاب فان رسول الله دعا يوم الاثنين بقوله : اللهم
اعز الاسلام باحد الرجلين : اما عمرو بن هشام واما عمر بن الخطاب ، وانا لارجو ان
تكون دعوة رسول الله لك فابشر

ولما عرفوا منى الصدق سألتهم ان يخبرونى بمكان رسول الله فقالوا هو فى بيت
فى اسفل الصفا وصفوه فخرجت حتى قرعت الباب فقبل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب ،
فما اجترأ احد منهم ان يفتح لما يعرفونه من شدتى على رسول الله ولانهم لم يعلموا
باسلامى

فقال رسول الله افتحوا له فان يرد الله به خيرا يهده ، ففتحوا لى واخذ
رجلان بعضدى حتى دنوت منه فقال ارسلوه فارسلونى فجلست بين يديه فاخذ بجمع
قيصى فجدبنى اليه ثم قال اسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده . فقلت اشهد ان لا اله الا الله
وانك رسول الله ، فكبر المسامون تكبيرة سمعت بطرق مكة

وسماه الرسول الفاروق لانه فرق فى اسلامه بين الحق والباطل
بويح بالخلافة على اثر موت ابى بكر يوم ٢٣ جمادى الثانية سنة ١٣ وطمعن
يوم الاربعاء ٢٦ ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة ٢٤ ، طعنه
ابو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة وهو فارسى الاصل ، بسكين مسمومة ذات حدين
فقال الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الاسلام وكانت خلافته ١٠ سنين
وخمسة اشهر و ٢١ يوما

استئناف القتال في ميدان العراق

اعمال ابي عمير العسكرية

لم تكن الضربة التي ضربها خالد الفرس - حينما كان في ميدان العراق - قاتلة وليس بالسهل القضاء على دولة عظيمة كدولتهم ، لها من الموارد الكبرى والصادر الكثيرة وسعة الاراضى ووفرة الجند وتنوع السلاح ما يجعلها في مقدمة دول الشرق فقد قاتلت الروم، اعظم دول ذلك العصر سنين طويلة ونازلتهم في معارك عديدة وكانت الحرب بينهما سجالا فيوما ينتصر هؤلاء ويوما هؤلاء ، وكان الفرس قد اكتسحوا بلاد الشام وتوغلوا في الاناضول شمالا توغلهم في مصر جنوبا

ولقد هزت انتصارات خالد وفتوحاته في جنوبي العراق وشماله واشتتته شمل القوى العديدة التي ارسلت لقتاله ، الامبراطورية الفارسية هذا وزلزلتها زلزالا ، ونهبت عقلاء فارس الى الخطر الذي يهددهم وحفزتهم الى اتخاذ شتى التدابير لاتقاء الكارثة وتوشك ان تنقض على رؤوسهم فتقضى على ملكهم وتجعلهم تبعاً للعرب بعد ما كان العرب تبعاً لهم

وكان في مقدمة التدابير التي دبروها انهم وحدوا صفوفهم في الداخل واختاروا ازرميدخت بنت كسرى ابرويز ملكة لهم وبايعوها على السمع والطاعة والانقياد فاخترت رستم قائدا عاما للجيش الفارسى ومنحته سلطة واسعة واطلقت يده اطلاقا تاما في قتال المسلمين وفي اتخاذ ما يراه لازما من التدابير فبدأ فحشد قوات عظيمة في النارق (وهو موضع قرب الكوفة نزله المسلمون في اول ورودهم العراق) ولا يبعد

عن الحيرة اكثر من ١٥ كيلومترا ومعنى ذلك انه جمع جموعه على مقربة من قاعدة المسلمين الحربية لتهديدهم فلا يسيرون اليه كما كان خالد يفعل مع جيوشهم الاخرى ولا يخرجون للقائه

واتصل رستم سرا بزعماء البلاد التي فتحها المسلمون وكتابهم وحرصهم على الثورة والاتقااض فلقيت دعوته قبولا من بعض هؤلاء وكانوا يعتقدون انه لا بد من رجوع الفرس وفوزهم على العرب في النهاية فمالوا اليه ونصروه وأخذوا يتظاهرون ضد الفاتحين فتبيلل الموقف واضطرب

ولم يخف على قواد المسلمين امر عدوهم وما كانوا يجهلون تدابيرهم في السر وما يعده من عدد ولا ادل على ذلك من رجوع خالد على جناح السرعة الى الحيرة بعد ما خاض معارك الجوف وانتصر فيها ثم سفر المثنى خليفته الى العاصمة واجتماعه بالخليفتين (الجديد والقديم) وابلاغه ايها ما يدبره الفرس وما يفعلونه والحاحه بطلب القوى والجند وارسال ابى عبيد ومن معه

ابوعبيد بهاهم الفرس

وصل ابو عبيد الى الحيرة ومعه المثنى وبعض الصحابة والجند وقد قدموا للجهاد في سبيل الله فاقام فيها اياما درس فيها الحالة عن كذب واحاط بالموقف وعرف ما يحتاج الى معرفته من امر عدوه وارسل العيون لجأته باخباره فقرر أن يبدأ العمل على الفور وان يكون مهاجلا مدافعا ، وقد سار المسلمون على خطة الهجوم منذ نزولهم العراق فعادت عليهم باجزل الفوائد ، فجمع القوى والرجال وخرج اليهم في الخمارق فاشتبك الجيشان وكتب الفوز لابى عبيد فكان اول فوز احرز في هذا الميدان وكانت مقدمة طيبة شجعتة على متابعة النضال وبعثته على الاستهانة بامر اعدائه وجموعهم

ويقول المؤرخون ان اعرابيا من ربيعة اسر جابان (قائد الفرس في الخمارق)

يعد انهزام جيشه قال له انكم معشر العرب اهل وفاء فهل لك ان تؤمنني ؟

— نعم

— خذني الى ملككم حتى يكون ذلك بعلم منه

— لا بأس

وقاد العربي قائد الفرس الى ابي عبيد واخبره بما وقع له معه وانه امنه فاجاره

على اجارته

وحاول بعض رجال ربيعة - حينما علموا ان المؤمن هو قائد الفرس ان يحملوا

ابا عبيد على نقض ما ابرمه وقالوا له انه الرئيس والزعيم وانه يجدر بهم الا يتركوه

فأجبههم وماذا تروني فاعلأ به معاشر ربيعة

— تعيد النظر في امره

— معاذ الله ان افعل ذلك . ايؤمنه صاحبكم واقتله ؟ كلا ! كلا ! مالزم بعض

المسلمين فقد لزمهم كلهم

واطلق سراح القائد الفارسي

اول انتصار الفرس على المسلمين

وواصل ابو عبيد مطاردة الفرس وقد لجأوا الى خط الدفاع الثاني وكانوا اعدوه

في كسكر

وكان يقود جندهم في هذا الحظ المرزبان نرس ولديه قوة لا يستهان بها اعدوها

رستم لتكون بمثابة احتياطي لجيش الخمارق

والتقى ابو عبيد بنرس ومن معه فقاتلهم وهزمهم واستولى على معسكرهم فدان

له جنوبي العراق ورأى سكان السواد ان كفة المسلمين هي الراجحة فسكنوا واستقروا

وامر رستم بتعبئة جيش جديد بقيادة بهمن جازويه - وهو قائد الجيش

الفارسي الرابع الذي هزمه خالد بن الوليد في اليس وسلبه راية الفرس الكبرى

(درفش كايان) ويقال ان طولها كان ١٢ مترا وعرضها خمسة امتار ونصف وانها

صنعت من جلد النمر - وامره بان يعجل في لقاء المساميين وقتالهم
وتجمع الجيش الفارسي الجديد في البرج والعاقول وهما موضعان وقيل ديران
على ضفة الفرات الغربية يبعدان عن بغداد نحو ٩٠ كيلومترا - وكان المسلمون يومئذ
على الضفة الشرقية

فسار ابو عبيد اليه حتى نزل المروحة (موضع على شاطئ الفرات الغربي قرب
الكوفة بينهما مرحلتان) ومعنى ذلك ان الفرس عادوا فنقلوا ميدان القتال الى
منطقة الحيرة ليعبدو الخطر عن عاصمتهم وان بهمن جازويه (قائد الفرس الجديد)
يحاول ان يكون مهاجما لا مدافعا فيشغل العرب بالدفاع عن قاعدتهم في الحيرة فلا
يواصلون زحفهم نحو الشمال

وكتب بهمن الى ابي عبيد وكان نهر الفرات يفصل بينهما : الفرس على الضفة
الغربية والعرب على الضفة الشرقية يسأله هل تعبرون الينا ام نعبر اليكم ؟
فجمع كبار قواده يسألهم رأيهم وهل يطلب الى الفرس ان يعبروا اليه ام
يعبر اليهم هو ويباشر القتال ويكون البادئ في الهجوم كما هي عادة المساميين في
جميع حروبهم فأشاروا عليه بان يترك الفرس يعبرون اليه فعارضهم في ذلك لانه ادرك
ان الأخذ برأيهم خروج على تقاليد المساميين العسكرية وأصر على ان يكون هو العابر
ولما كان هو القائد الأعلى وله الكلمة العليا نفذت كلمته وتقرر ان يكون المسلمون هم
العابرين . وعبروا بعد ذلك ودارت رحى القتال واشتبك الفريقان في معركة عنيفة
كان ابو عبيد نفسه من ضحاياها فاستشهد في آخر النهار فاضطرب جيش
المساميين لفقده وارتد الى الجسر الذي اقامه في الصباح ليعبر عليه فادركه
رجل من ثقيف فكسره فازداد اضطراب المساميين فأطمع ذلك الفرس فهجموا عليهم
يقتلون ويضربون فرموا بانفسهم في نهر الفرات . وتولى المثني امر القيادة بعد
مقتل ابي عبيد فصمد للفرس ثم اعاد الجسر فعب عليه المسلمون وتجمعوا بعد ذلك في

المروحة وهي على مرحلتين من الكوفة كما اسلفنا وقد فقد منهم في تلك المعركة نحو
اربعة آلاف بين قتيل وجريح وغريق وكانت نكبة شديدة نكبوا بها
وتلك هي المعركة الوحيدة التي انتصر فيها الفرس على العرب في حروب العراق
كلها بتصرف ابي عبيد واصراره على العبور خلافا لما اشار به اصحابه

عمر يعلمه التبعة العامة

ويعين قائدا عاما جديدا

عاد المثنى بمن بقى معه الى الحيرة وكتب الى عمر بما وقع وألح عليه بارسال النجدات والقوى فأمده بما كان عنده من رجال فعاد اليه نشاطه ، ولما علم بمسير بنى بجيلة اليه من الحجاز كتب اليهم بأن يقابلوه على نهر البويب (كان يأخذ من الفرات قرب الكوفة) وخرج للقاء الجيش الفارسى الجديد الذى سيره رستم بقيادة المرزبان مهران

ولما التقى الجمعان على نهر البويب ارسل قائد الفرس الى المثنى يخبره بين ان يعبر هو او يعبر المسامون فأجابه بان يعبر هو ، وكان المثنى ممن شهد يوم المروحة ولم يك قد نسيه

وعبر الفرس النهر فتلقاهم المسامون وكانوا قد نظموا صفوفهم واحكموا مواقعهم ودارت بين الفريقين معركة يقول الرواة انها أشد المعارك التى دارت فى حروب العراق هولا فقد استبسل فيها الفريقان وكانت الغلبة فيها للعرب . وبادر المثنى الى الجسر حينما بدأ الفرس بالفرار فكسره وقطع عليهم خط رجعتهم فرمى بعضهم بنفسه فى النهر وتفرق الآخرون شذر مذر . وقدرت خسارة الفرس فى هذه المعركة بعشرات الالوف وتعد من المعارك الكبرى وقد وطدت نفوذ المساميين فى جنوبى العراق وعجلت بالقضاء على دولة الفرس

وهال اقطاب دولة المداين انكسار جيشهم وتشتت قواهم فكاتبوا المدن والامصار وعملوا بجهد ونشاط عظيمين لحشد جيش جديد كبير ، كما بثوا الدعاة

والمبشرين بين سكان المدن والبلاد التي اخضعها المسلمون ليحملوهم على شق عصا الطاعة والانتفاض فيشغلوهم عنهم

وعرف المثنى ما يدسه الفرس في السر والجهر فأبلغه الى الخليفة في المدينة - فجاءه الجواب وكان قد بلغ ذى قار في جنده سائرا نحو المداين ، يأمره بالانسحاب من بين ظهرائى الفرس والرجوع الى خط الحدود الاصلية والتفرق في المياه التي تلى حدود بلاد العرب ، فلا يؤخذ المسلمون على غرة ولا يهزموا ، وذلك ريثما ترد القوى الجديدة التي بدأ بحشدتها ، فنفذ امره وجلوا عن البلاد التي فتحوها وعادوا الى مناطق الحدود من دون حادث يذكر

وغنى عن البيان ان انسحاب المسلمين من هذه الاراضى لم يكن عن ضعف او وهن وانما هو تطبيق لحطة حربية جديدة اراد الخليفة تنفيذها على يد قائد جديد يختاره ، فقد عرف ان امر الفرس لا ينتهى على يد بضعة آلاف من الجند يعملون في منطقة صغيرة محدودة فأراد ان يرميهم بجيوش جرارة ولما كان جمع هذه الجيوش وتجهيزها وتسييرها ليس بالهين - وما كانت المواصلات في ذلك العهد كما هى اليوم - فقد امر جنده المنتشر في السواد بالتراجع الى حدود الصحراء فيكونون في مأمن من الغارات ، وعلى قدم الاستعداد للاشتراك في الحركات العسكرية الكبرى عند ما يأتى اوانها ويظل زمانها

التعبئة العامة عند المسلمين

وبدأ عمر ينفذ خطته الجديدة فأعلن التعبئة العامة في بلاد العرب كلها وكتب الى عماله وموظفيه يقول لهم « لاتدعوا احدا له سلاح او فرس او نجدة الا ارسلتموه الى بالعجل » فجاء الناس من جميع الاطراف ، ماعدا القبائل النازلة على الطريق بين الحيرة والمدينة فقد انضم من كانت منازلها ادنى منها الى الحيرة لجيش المثنى اما الاقرب الى المدينة فقد اقبلوا اليها

وغادر عمر المدينة على رأس القوى الكبرى التي حشدتها ، وقد كتم امر الغاية من

التعبئة الجديدة عن كل انسان ، ولما بلغ صدا وهو ماء شرقي المدينة ويبعد عنها ٥ كيلو مترات نزل ونادى الصلاة جامعة ، وتلك كانت عادة امراء المسلمين في الصدر الاول فكانوا اذا ما ارادوا ابلاغ قومهم امرا نادوا الصلاة جامعة فيجتمع المسلمون في المسجد فيخطبهم الخليفة او الامير ويقول لهم ما يريد ان يقوله ويناقشهم في المشروع الذي اعتمزم تنفيذه اذا كان هنالك مشروع فاما ان يقروه واما ان يعدلوه او يرفضوه ، وتلك هي الشورى الصحيحة

واستشار عمر الناس بعد الصلاة فيما يفعل وابلغهم انه يرغب في انجاز امر فارس ، وسألهم رأيهم في الزحف عليها ، وهل يقرون خطته ام لا . فقالوا له سر بنا اليهم ، فنحن على استعداد للقاءهم فقال لهم استعدوا واعدوا، اى كونوا على اهبة وارسل عمر بعد ختام الاجتماع ، فدعا وجوه الصحابة واهل الرأي ، ونسبهم الآن رجال الدولة واقطابها ، فدار البحث على الخطة الجديدة التي تتبع وهل يسير الخليفة بالذات لقتال الفرس ام يتدب غيره فانفقوا على ان يبقى في المدينة يصرف الامور . ويعي القوي ويتدب صحابيا فيوليه القيادة العليا فاذا وفق وفاز فهو المقصود والا اتدب غيره

وما كاد الاجتماع ينتهي حتى ارسل فدعا الناس الى الصلاة لابلاغهم ما اتفق عليه اهل الرأي وخطبهم خطبة بليغة حدد فيها العلاقات بين الخليفة والرعايا فقال :

« اما بعد ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام اهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخوانا ، والمسامون فيما بينهم كالجسد الواحد لا يخالو منه شيء من شيء اصاب غيره ، وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا امرهم شورى بينهم وبين ذوى رأى منهم ، فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا له تبعاً ، ومن قام بهذا الامر تبع لأولى رأيهم ما رأوا له ورضوا به »

و بينا المسامون في شوراھم (برلمانھم) وصل الى الخليفة كتاب من سعد بن
 ابى وقاص وكان عامه على صدقات هوازن مع الف من اهل النجدة اختارھم
 ل حرب الفرس فقال بعض المسامين لعمر لقد وجدته

- من

- الاسد عاديا

- من هو

- سعد فابعث له

فأقر رأیهم واختاره للقيادة العامة على حرب العراق وجھز له ثلاثة آلاف من

اليمانين علاوة على الف هوازن

سعد بن ابى وقاص

هو سعد بن ابى وقاص واسمه مالك بن وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن لؤى بن غالب بن فهر بن النضر بن كنانة القرشى الزهرى ، وكنيته ابو اسحاق ، وامه حمنة بنت سفيان بن امية بن عبد شمس

كان رابع اربعة دخلوا فى الاسلام فقد اسلم على يد ابى بكر وعمره ١٧ سنة . وكانت صناعته برى النبال وقد روت عائشة ابنته حديث اسلامه كما سمعته منه قال : « رأيت فى المنام قبل ان اسلم بثلاث كأتى فى ظلمة ببحر لا ابصر شيئا اذ اضاء لى قمر فاتبعته ، فكأتى انظر الى من سبقنى الى ذلك القمر فانظر الى زيد بن حارثة والى على ابن ابى طالب والى ابى بكر وكأتى اسألهم متى اتهمتم الى ههنا قالوا الساعة

» وبلغنى ان رسول الله ﷺ يدعو الى الاسلام مستخفيا فلقيته فى شعب جباد وقد صلى العصر فاسلمت فما تقدمنى احد الا وهم اى تردد

« فلما اسلمت - وكنت رجلا برا بامى - قالت يا سعد ما هذا الدين الذى احدث؟ تصد عن دينك اولا آكل ولا اشرب حتى اموت فتعير بى . فقلت لا تفعلى يا امت فانا لا ادع دينى

«ومكثت يوما وليلة لا تأكل فاصبحت وقد جهدت فقلت والله لو كانت لك النفس ، فخرجت نفسها نفسها ما تركت دينى هذا لشيء ، فلما رات ذلك اكلت وشربت فانزل الله هذه الآية : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

وسعد بن ابى وقاص اول من اراق دما فى سبيل الاسلام . وبيان ذلك ان

نفرا من قريش ، ظهروا للمسلمين ، وكانوا يصلون مستخفين في شعب من شعاب مكة ، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم فاقتلوا فضرب سعد رجلا من قريش بلحى (فك) حمل فشجه ، فسال دمه فكان اول دم اريق في سبيل الاسلام وهو من العشرة المبشرين بالجنة ، شهد مع النبي المشاهد كلها وقاد بعض السرايا ، وكان يحمل يوم فتح مكة احدى رايات المهاجرين الثلاث ، وقيل انه رمى يوم احد الف سهم ، وجمع له الرسول اياه وامه يومئذ اذ قال له : ارم فداك ابي وامى ، ارم ايها الغلام الخرور (القوى)

ولما استشار عمر بن الخطاب الصحابة فيمن يوليه قيادة الجيش الذى ارسل للحرب الفرس ، اشاروا عليه بسعد وقالوا انه الاسد عاديا ، فسلم القيادة العامة وحارب الفرس فى القادسية فهزموهم واستولى على عاصمتهم وامتاز سعد بصدق الرواية والحديث ، وكان يرضن بالرواية خوف التحريف ، ولما نشب الخلاف بين على ومعاوية اعتزل السياسة (القننة) واقام فى منزله بالعقيق بالمدينة وامر بان لا يخبروه بشىء حتى يجتمع الناس على امام . ومما يؤثر عنه قوله : - حينما جاءه نبأ مقتل عثمان بن عفان واشتداد القننة - ما بكيت فى الدهر الا ثلاثة ايام : يوم توفى رسول الله ﷺ ، ويوم قتل عثمان . واليوم ابكى على الحق فعلى الحق السلام .

ولما دخل على معاوية بعد استقرار الامر قال له : السلام عليك ايها الملك فضحك معاوية وقال : ما كان عليك لو قلت يا امير المؤمنين ؟

- اتقولها جزلان ضاحكا ؟ والله ما احب انى وليتها بما وليتها به

ولما حضرته الوفاة دعا بخلق جبة له من صوف فقال كفونى فيها لانى لقيت المشركين يوم بدر وهى على وانما كنت اخبؤها لهذا . ومات سنة ٥٥ للهجرة . وكان ابن بضع وسبعين سنة ، وهو آخر العشرة الكرام . وترك ثروة حسنة قدرت بربع مليون درهم

في طريق القادسية

استعداد العرب واستعداد الفرس

لما قلد عمر سعدا قيادة جيش العراق اوصاه الوصية الآتية قال :

« ياسعد بنى وهيب ، لا يغرنك من الله ان قيل خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن ، فان الله ليس بينه وبين احد نسب الاطاعته ، فالتناس شريفهم ووضعهم في ذات الله سواء : الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذى رأيت النبي ﷺ منذ بعث الى ان فارقتا فالزمه فانه الامر

« هذه وصيتي اياك ان تركتها ورغبت عنها حبط عمالك وكننت من

الخاسرين »

ولما ازعم الرحيل جاء لوداع عمر فقال له :

« انى قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على امر شديد كرية

لا يخلص منه الا بالحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عدة

عتادا ، فعناد الخير الصبر ، فالصبر الصبر على ما اصابك او نابتك تجمع لك خشية الله

« واعلم ان خشية الله تجتمع افي امرين : في طاعته وفي اجتناب معصيته ، وانما

اطاعه من اطاعه لبغض الدنيا وحب الآخرة ، وعصاه من عصاه لحب الدنيا وبغض

الآخرة

« وللقلوب احقائق ينشئها الله انشاء ، منها السر ومنها العلانية . فاما العلانية فان

يكون حامده وذامه في الحق سواء . واما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على

لسانه وبمحببة الناس فلا تزهد في التحبب فان النيين قد سألوا محبتهم وان الله اذا احب عبدا حببه واذا بغض عبدا بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في امرك »

وغادر سعد المدينة الى العراق يقود أربعة آلاف مقاتل ، ثلاثة آلاف من اهل اليمن والالف من اهل الحجاز وفيهم عدد من السراة والزعماء والفرسان والصناديد ، امثال عمرو بن معدى كرب على منججح ويزيد بن الحارث الصدائي وبشر بن عبد الله الهلالي ، وشيعهم عمر الى الاحوص في شرقي المدينة ، وخطبهم ايضا خطبة امرهم فيها بالعدل والرحمة واللين ، وان ينهوا شؤونهم اليه وقال لهم :

«ان الله تعالى ضرب لكم الامثال وصرح لكم القول ليحيي به القلوب ، فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله ، من علم شيئا فليعمل به . وان للعدل امارات وتباشير ، فاما الامارات : فالحياء والسخاء واللين . واما التباشير فالرحمة ، وقد جعل الله لكل امر بابا ، ويسر لكل باب مقاما ، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد . والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والاستعداد له بتقديم الاعمال ، والزهد اخذ الحق من كل احد قبله حق ، وتأدية الحق الى كل احد له حق . ولا تصانع في ذلك احداوا كتف بما يكفيك من الكفاف ، فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء

«انى بينكم وبين الله وليس بيني وبينه احد ، وان الله قد الزمنى برفع الدعاء عنه ، فانها شكاتكم لي ، فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذله الحق غير متصنع »

تعليمات عسكرية

تلك هي وصايا عمر الادارية ومواعظه الدينية ونصائحه الحكيمة ، وقد اودعها ثلاث خطب خطبها في ثلاث مناسبات . اما تعليماته العسكرية فهذا مجملها :

١ - امره بأن يقصد زرود (هي رمال بين القلبية والحزيمية على الطريق بين المدينة والكوفة وتبعد عن هذه نحو ٥٠ كيلومترا) و ينزل فيها

امره بان لايفادرها حتى تتلاحق به القوى ، وتم التعبئة ويتلقى امرا

نعي المثنى ووصيته

المثنى بن حارثة الشيباني قائد الحيرة ، الى سعد بن ابى وقاص وهو فى متأرا من جراحه . ولما ادرك هذا انه لن يجتمع بالقائد الجديد كتب ضمنه خلاصة ما وفق اليه من اختبارات فى حروبه الطويلة مع الفرس :
 وينتفع ، وقال له :

الفرس على حدود ارضهم على ادنى حجر من ارض العرب وادنى مدر .
 جم ، فان يظهر الله المساعين عليهم فلهم ما وراءهم ، وان تكن الاخرى
 ثم يكونون أعلم بسبيلهم واجراً على ارضهم الى ان يرد الكرة الله لهم «

الى شراف

سعد الزحف بجيوشه بعد ما اتم التعبئة ، وقد ضمت نخبة رجال الاسلام
 دفيها الخليفة كل ما استطاع حشده من قوى ، قاصدا القادسية فبلغ شراف
 نظم قواته استعدادا لحوض المعركة الفاصلة الكبرى

تعليمات عسكرية جديدة

راف تلقى تعليمات جديدة من عمر يأمره فيها بما يأتى :
 ن يعشر الناس اى ان يجعل على كل عشرة رئيسا يقودهم وينقادون اليه
 . النظام متبعا حتى الآن فى الجيوش الحديثة ويسمون العشرة فى التركية
 ، الاصطلاح العسكرى العربى (حظيرة) ورئيسها عريف ويسميه الترك
 « وترجمتها رئيس عشرة

٢ - ان يقسمهم الى كتائب تؤلف من العشرات. وهذا اساس في تعبئة الجيوش ويسمونه في الاصطلاح العسكري الحديث « الجزء الاصغر » في الجيش

٣ - ان يولى رؤساء المسلمين القيادة على الكتائب بعد تقسيمها وتعبئتها وقال عمر لسعد في تعليماته - و بعد ان يتم تنظيم الجيش على هذا المنوال و بعد ان يعرف كل جندي عريفه، وكل عريف قائده، وكل كتيبة رئيسها وتنتهي من التعبئة سير كتائبك وهي على اتم نظام، وواعدها الاجتماع في القادسية؛ وقد اختارها عمر قاعدة لجيش المسلمين في هذه المرحلة وهي على سيف البادية لا يفصل بينها وبين الصحراء فاصل وبينها وبين الحيرة بضعة كيلو مترات من جهة الشرق . وهذا نص كتابه :

« اما بعد فسر من شراف بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على امرك كله . واعلم انك تقدم على امة عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة ، وبأسهم شديد ، وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحور فيوضه ودآئه الا ان توفقوا غيضا من فيض

« واذا لقيتم القوم او واحدا منهم فابدؤهم الشد والضرب ، واياكم والمنظرة لمجموعهم ولا يخذعنكم فانهم خدعة مكررة وامرهم غير امركم الا ان تجادوهم «واذا انتهيت الى القادسية - والقادسية باب فارس في الجاهلية ، وهي اجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الاصل وهو منزل رغب خصب رحيب دونه قناطر وانهار تمتعة ، فتكون مسالحك على اتقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجرع بينهما

« ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فانهم اذا احسوك انقضتكم، رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم، وخدمهم وجدهم، فان اتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ، ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم، ثم لا يجتمع لكم مثلهم ابدا، الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم ، وان تكن الاخرى كان الحجر في ادباركم ، فانصرقم من ادنى مدرة من ارضهم الى ادنى حجر من ارضكم ، وكنتم عليها اجراً ، وبها اعلم ، وكانوا عنها اجبن ، وبها اجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة عليهم

استعداد الفرس

نشط الفرس في خلال الفترة الممتدة بين ارتداد الجيش الاسلامي الى حدود الصحراء وبين قدوم سعد نشاطا عظيما فحشدوا كل ما استطاعوا حشده من قوى لانهم ادركوا انهم على ابواب معركة فاصلة فاما ان ينتصروا على المسلمين ويستردوا نفوذهم وكرامتهم ، واما ان يفوز العرب فتدور الدائرة عليهم ويندر ملكهم ويقدر مؤرخو الاسلام الاقدمون القوى التي حشدها الفرس في القادسية بمائة وعشرين الفا من الجند تولى قيادتها رستم اكبر قوادهم واعظم رجالهم ، فغادر المدائن الى الحيرة حينما جاءتهم الاخبار بمسير سعد من المدينة وباستعداد العرب واستقر رستم في الحيرة واتخذها مقرا له واقام مراكز على طول الطريق من الحيرة الى المدائن تنقل اخبار جيشه الى الملك يزدجرد بالتفصيل وتطلعه على الحوادث في ابانها فلا يخفى عليه امرها، ولا يفوته شئ منها، وفعل المسلمون فعلهم ايضا فكانت الرسل تغدو بين القادسية والمدينة بلا انقطاع وكان سعد يطلع الخليفة على معظم ما يحدث له ولا يقطع في الامور الجسام بدون استشارته واخذ موافقته مقدما . وما كان العرب يجهلون خطورة العمل الذي اقدموا عليه وما يحيط بهم من مصاعب وعقبات ولذلك جمعوا كل ما استطاعوا جمعه من القوى واتخذوا شتى التدابير التي اعتقدوا انها تضمن لهم الفوز في معركة عظيمة يتوقف عليها مستقبل دولتهم وغادر رستم الحيرة الى العقيق حينما علم بدنو المسلمين وعكف يعد المعدات للمعركة الفاصلة

المسلمون يعملون لحقهم الدم

مفاوضات المدائن

لم يشأ العرب ان يحملوا تبعة اراقة الدم ، ولا ان يقدموا على اضرار نار حرب ضروس قبل ان ينذروا الفرس ويبشروهم ويدعوهم الى الدخول في الاسلام اودفع الجزية والخضوع للدولة العربية الجديدة عملاً بخطتهم المأثورة وتنفيذاً لاوامر الخليفة

وقد سمر الى كسرى

وعملاً بتعليقات الخليفة (١) الف سعد وفدا من امراء جيشه وعيونه وهم النعمان ابن مقرن وبسر بن ابي رهم وحملة بن حوية الكنانى وحنظلة بن الربيع التميمى وفرات بن حيان العجيلى وعدى بن سهيل والمغيرة بن زرارة بن النباش وعطارد بن حاجب والاشعث بن قيس بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدى كرب والمغيرة بن شعبة والمعنى بن حارثة ، فغادروا المعسكر الى المدائن لمقابلة يزجرد ودعوته الى الاسلام لئلا يكون له حجة على المسلمين

ورأس الوفد النعمان بن مقرن ، واحسن الفرس استقباله حين وصوله الى

(١) هذا نص ما كتبه عمر الى سعد بهذا الشأن : « استعن بالله وتوكل عليه وابعث الى ملك الفرس رجالا من اهل المناظرة والجلد يدعونهم فان الله جاعل دعاءهم بوهينا لهم »

عاصمتهم ، وقابله الملك يزجرد ، وهو محاط بوزرائه واقطاب دولته ، بعد ما عقد مجلسا
اتفقوا فيه على الاجوبة التي يجيبون بها

وسأل يزجرد النعمان بواسطة الترجمان قائلا :

- ما الذي جاء بكم الى بلادنا وحملكم على مهاجمتنا ؟ الاجل اننا تشاغلنا عنكم
اجترأتم علينا وتجمعتم لقتالنا ؟

- ان الله رحمننا فارسل الينا رسولا يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ووعدنا على
اجابته خير الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة الا وقار به منها فرقة وتباعد عنه منها فرقة .
ثم امر ان يتدعى الى من خالفه من العرب فبدأنا بهم فادخلوا معه على وجهين مكره
عليه فاغضب ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعنا فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من
العداوة والضيق . ثم امرنا ان نتدعى بمن يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف فنحن
ندعوكم الى ديننا وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح ، فان أيتيم فأمر من الشر هو
اهون من آخر شر منه وهو الجزية تؤدوها لنا فان أيتيم فالمناجزة (الحرب) . وان
أجبتكم الى ديننا خلقنا فيكم كتاب الله وقنا ، على ان تحكموا باحكامه ونرجع عنكم
وشأنكم وان بذلتكم الجزية قبلنا ومنعناكم والا قاتلناكم

- انى لا اعرف على وجه الارض امة اسوأ حالا من العرب ولا اقل عددا منها
وقد نوكل بكم قوى الضواحي فيكفوننا شأنكم . وانى انصحكم بالكف عن محاربة
فارس ومنازلتها او الوقوف في وجهها . واذا كان الجهد قد دعاكم فرضنا اكم قوتا الى
خصبكم واكرمنا وجوهكم وكسوناكم وماكنا عليكم ملكا يرفق بكم
ورد المغيرة بن زرارة الاسدى عضو الوفد على كسرى فقال :

ايها الملك : ان هؤلاء رؤوس العرب وجوههم وهم اشراف وانما يكرم
الاشراف الاشراف ويعظم حقوق الاشراف الاشراف وتفخم الاشراف الاشراف وليس
كل ما ارسلوا لك به جمعوه لك ولا كل ما تكلمت به اجابوك عليه . وقد احسنوا ولا
يحسن بمثلهم الا ذلك لجاو بنى لا كون الذى ابغلك ويشهدون على ذلك

ان ما ذكرته من سوء حال العرب صحيح فما كان احد اسوأ منا حالاً .
واما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات
واما المنازل فهي ظهر الارض . لانلبس الا ما غزلنا من اوبار الابل واشعار الغنم . ديننا
ان يقتل بعضنا بعضاً ويغير بعضنا على بعض وان كان احدنا ليدفن ابنته حية كراهية
ان تأكل من طعامنا

نعم تلك كانت حالتنا حتى بعث الله فينا رجلاً معروفاً نعرف نسبه ونعرف
وجهه ومولده فأرضه خير من ارضنا وحسبه خير من احسابنا وبيته اعظم بيوتنا
وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه خيرنا في الحال التي كان فيها ، اصدقنا واحامنا
فدعانا الى امر فلم يجه احد قبل ترب كان له؛ وكان الخليفة من بعده فقال وقتلنا وصدق
وكذبنا وزاد ونقصنا فلم يقل شيئاً الا كان فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه
فصار فيما بيننا وبين رب العالمين ، فما قال لنا فهو قول الله وما امرنا فهو امر الله

قال لنا ان ربكم يقول انى انا الله وحدى لا شريك لى كنت اذ لم يكن شىء
وكل شىء هالك الا وجهى وانا خلقت كل شىء والى مصير كل شىء وان رحمتى
ادرکتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التي بها انجيكم بعد الموت من
عذابى ولأحلكم دارى ، دار السلام . فنشهد عليه انه جاء بالحق من عند الحق . وقال
من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه
مما تمنعون عنه انفسكم ومن أبى فقاتلوه فأنا الحكم بينكم فمن قتل منكم ادخلته جنتى
ومن بقى منكم اعقبته النصر على من ناوأه فاختر ان شئت الجزية عن يد وانت صاغر
وان شئت فالسيف او تسلم فتنجى نفسك

كسرى يطرد الوفد

فاستاء الملك مما سمعه وقال : لولا ان الرسل لا تقتل لقتلتكم . وقطع

المفاوضات معهم وامر بان يوضع على عاتق اعظمتهم حمل من تراب ويساق حتى يخرج
من المداين وقال لهم :

لا كلام لكم عندي ، ارجعوا الى قائدكم وابلغوه اني مرسل اليه رستم حتى
يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية وينكل بكم وبه . ثم اعيدكم الى بلادكم
حتى اشغلكم في انفسكم

وغادر الوفد المداين بعد ما حمل عاصم بصفته اعظم رجال الوفد شأننا كيس
التراب حتى اتى راحلته فحمله عليها وجاء به الى القادسية

مفاوضات جديدة بين سعد ورستم

لم تقترن مفاوضات المدائن بنتيجة وعاد الوفد العربي الى معسكر سعد يقص ما حدث ، ويعلن انه لم يبق مناص من الحرب ، بعد ما رفض الفرس اقتراحات الساميين وابو اجابة مطلب من مطالبهم

واتصل برستم ماجرى وعرف ان المفاوضات انقطعت وانه لا بد من الحرب ، ويقال في بعض الروايات انه كان في المدائن حين وصول الوفد وانه شهد مقابلته ، ولما كان من القائلين بوجوب الاتفاق مع العرب وعقد صلح معهم على منوال يصون به كرامة امته ، فقد ارسل الى زهرة بن الحوية من سادات تميم وكان يعرفه من قبل ، فناء فاقترح عليه ان يتوسط لعقد صلح وقال له فيما قاله :

كنتم لنا اخوة وكنا نحن اليكم ونحفظكم فلماذا تغيرتم علينا الآن ؟

- ليس امرنا الآن كما كان في السابق . انا لم نأتكم لطلب الدنيا ، ان طلبتنا وهمنا الآخرة ، وقد كنا كما ذكرت الى ان بعث الله فينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه ، فقال لرسوله انى سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم ، واجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه احد الا ذل ، ولا يعتصم به احد الا عز

- وما هو ؟

- اما عموده الذى لا يصلح الا به فهو شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا

رسول الله

- واى شىء ايضا

- اخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله؟ والناس بنو آدم وحواء اخوه

لاب وام

- ما احسن هذا . ثم قال رستم

ارأيت ان اجبت الى هذا ومعى قومي كيف يكون امركم هل ترجعون الى

بلادكم؟

- اى والله نرجع الى بلادنا

- لقد صدقتنى

- نحن خير الناس

واقتت هذه المقابلة على غير نتيجة مادية تذكر ، بيد ان رستم احب ان يسمع

كبار حاشيته من العرب ماسمعه هو فأرسل الى سعد يطلب اليه ان يبعث اليه رجلا يكلمه و يباحثه. فأراد هذا ان يوفد اليه وفدا فاعترض احد رجاله وقال : متى نأتهم

جميعا يروا انا احتفلنا بهم فلا نزدهم على رجل واحد فارسله اليهم

وارسل سعد المعترض نفسه واسمه ربعي بن عامر فسار على فرسه حتى مخيم

رستم فنزل ودخل خيمته ودنا منه وجلس على الارض ولم يشأ ان يجلس على

البسط والتمارق

اقوال ربعي

ودعا رستم كبار رجاله لشهود هذه الجلسة وسأله بحضورهم عما جاء بهم فكرر

اقوال الذين سبقوه وقال لهم لا بد لكم من اختيار واحدة من ثلاث فاما الاسلام واما

الجزية واما الحرب

- هل انت سيد قومك؟

- كلا ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض يجيز اعلاهم على

ادناهم

واستمهل رستم ربعيا ثلاثة ايام وصرفه الى اخوانه

هزيفة به حصه عند رستم

وارسل رستم الى سعد في الغداة يطلب اليه ايفاد ربي فأرسل اليه حذيفة بن
حصن فأقبل على فرسه حتى وقف امام الخيم فزل فسأله لماذا لم يجيء ربي
- ان اميرنا يجب ان يعدل بيننا في الشدة والرخاء
ودارت بينهما « محادثات » كرر فيها هذا اقوال الذين سبقوه فصرفه رستم

المغيرة به سبعة عند رستم

وعملا بطلب رستم ارسل سعد اليه المغيرة بن سبعة فجاءه حتى الخيم ،
ودخل على رستم وحوله هيئة اركان حربه وقواده فأقبل حتى جلس معه على
سريره فوثب عليه الفرس وانزلوه عنه فقال لهم :
« قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا ارى اسفه منكم . انا معشر العرب
لايستعبد بعضنا بعضا فظننت انكم تواسون قومكم كما تتواسى ، فكان احسن من الذى
صنعمود معى ان تجربونى ان بعضكم ارباب بعض ، فان هذا الامر لا يستقيم فيكم
ولا يصنعه احد. وانى لم آتكم ولكن دعوتونى ، اليوم علمت انكم مغلوبون، وان
ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول »

اقوال الفردوسى في الشاهنامه

ووصف الفردوسى في الشاهنامه مدار من مفاوضات بين سعد ورستم في
القادسية ووصفا لم تقف على مايشابهه في ما اطلعنا عليه من اقوال مؤرخى العرب
فاقتبسناه زيادة في الفائدة ولانه المصدر الفارسى الوحيد الذى عثرنا عليه قال :
« وارسل رستم من مقامه في القادسية الى سعد كتابا كتبه على الحرير الابيض
وشحنه بالوعد والوعيد وجعل عنوانه من رستم بن هرمزد الى سعد بن ابى وقاص

وافتحه بحمد الله والثناء عليه ثم الدعاء ليزدجرد صاحب التاج والتخت ثم قال :
« اعلمنى أنت من دينك ، ورسمك وآيتك ، واخبرنى من سلطانك ، وبمن اعتضادك
واعتمادك ، فقد جئت فى عسكر حفاة عراة بلا ثقل ولا رحل ، ولا فيل ، ولا تخت ،
ثم بلغ بكم الامر من شربكم اللبن الابل ، واكلكم ضباب القيعان الى تمنى اسرة ملوك
يران ، فاقبل الى خدمة الملك حتى ترى من اذا تبسم وهب اثمان جميع رؤوس العرب
ولا ينقص ذلك كنزه شيئاً وهو الذى على بابه من السباع الضوارى المعامة والجوارح
اثنا عشر الفا بطواق الذهب واقراطه ، وتزيد نفقاتهم لسنة واحدة على جميع حاصل
بلاد العرب » واخذ فى كتابه يرفع امر العجم بالملابس والمفارش ، ويضع قدر العرب
بالمطاعم والمكاسب ، ولا يعرف ان المجد وراء ذلك

ثم قال الفردوسى « وحمل فيروز بن سابور احد امراء رستم الكتاب الى
سعد فى جماعة من امثال الفرس ، فى الملابس الخسروانية ، والمناطق المرصعة ، والاسلحة
المحلاة بالذهب فاستقبلهم واكرمهم ثم انزلهم فى منزله ، وطرح رداءه تحت فيروز ،
واعترى اليه عن رثانة اللبوس والبسوط وقال : انا قوم لا نعول الا على الصفاح والرماح
ولا نقول بالديباح والحريز ، والمسك والعنبر ، ولا نفتخر بالمطعم والمشرب ثم سمع
رسالته وقرأ كتابه . فكتب الجواب وافتتح الكتاب بيسم الله الرحمن الرحيم والصلاة
على محمد خاتم الرسل والهادى الى اقوم السبل الذى هو خيرة الخلق ، والصادع بالحق ،
النبي الهاشمى ، المبعوث الى الجنى والآدمى ، وشحنه بالوعد والوعيد ومواعظ القرآن
الحميد ، وسائر ما يرجع بالتعظيم لله والتمجيد ، والتقديس والتوحيد ، ووصف الجنة
ونعيمها وذكر بعض ما فيها من الحور العين ، والماء العين ، وشجرة طوبى ، وجنات
الفردوس الاعلى ثم وصف السعير ، والعذاب والزمهرير ثم قال وان تبع ملككم هذا النبي
الظاهر وزين بقبول رسالته الباطن والظاهر ، فملك الدارين له مسلم ، وهو على التاج
والتخت مقرر محكم ، وكان رسول الله له شافعا مشفعا . ثم قال ما باله يستعظم هكذا
امر تاجه وتخته ويعجب بسواره وطوقه ، ويزهى بماله وملابسه ، الا يعلم ان شعرة

واحدة من حورية خير من جميع ذلك ؟ ولم يربط قلبه بدنيا لا تساوى عند العاقل
شربة ماء ، فان اتم اتباعتم الامر واسلمتم فالجنة مأواكم ، وان ايتم وحر بتم فالجحيم
مشواكم فاعلموني بما عنه آراؤكم »

« وارسل سعد كتابه مع المغيرة بن شعبه فاقبل متقلدا سيفه حتى قرب من مخيم
رستم فاعلم بوصوله ، فاحتفل به وجلس في سرادق وحضر عنده ستون نفسا من
اكابر ايران في الاطواق والاقراط والمداسات الذهبية ، فاذن للرسول في الدخول عليه
فدخل حاملا سيفه وعليه ثوب ممزق الازديال ، فما وطىء تلك البسط ولا داسها برجله ،
بل سار على التراب رهوا رهوا لا يلتفت الى احد حتى قرب من رستم فقال ان قبلت
الدين فعليك السلام ، فعظمت تحيته على رستم فاعرض بوجهه وتلوى على نفسه . ثم
تناول منه الكتاب ، ولما قرأه قال ما اقول لسعد وشكايى من طالع لى نحس ؟
ولكن الموت تحت ظلال السيوف احب الى من حياة فى ذل ، ورد المغيرة وعزم على
القتال (١) »

(١) يجب ملاحظة ان هذا الكتاب منقول عن الفارسية وانه لا اثر له فى كتب
التاريخ العربية وغيرها ، وهو مما تفرد به الفردوسى ولعله تخيله فكتبه

١٨

قبل المعركة

كانت زيارة المغيرة لمخيم رستم ومحدثه له ، آخر محادثة دارت بين قواد العرب وقواد الفرس فقد رفض هؤلاء رفضا باتا قبول ما عرضه السامون من مقترحات فانقطعت بذلك المفاوضات السياسية ولم يبق امام الفريقين سوى السيف يحتكمان اليه بعد ما بذل قادة العرب جهدهم لحقن الدم واجتناب الحرب وكانت الرسل في خلال ذلك تغدو وتروح بين رستم والمدائن ، وكان يزدجرد يلح على قائد جيشه في ان يسرع بالحملة على العرب وانجاز امرهم ، وان لا يدع لهم وقتا طويلا ، للاجتماع والاحتشاد ، وكان هذا يطاول ويحاول ، املا في أن يصل الى حل سمي معقول مع العرب يرضيهم ويحل مشكلتهم ، لانه كان يوجس خوفا من الاشتباك معهم كما كان يتشاءم من المصير الذي تصير اليه بلاده اذا هزم وفشل

رواية الفردوسي

ومما يؤيد ذلك مارواه الفردوسي في الشاهنامه فقد ذكر ان رستم كان منجما وانه كتب قبل المعركة الفاصلة الى اخيه فرخ زاد كتابا مشحونا بالاسف والحزن ، يذكر فيه « انى نظرت في اسرار الكواكب واستشفت استار العواقب فرأيت بيت ملك الساسانية خاليا ، ورسم سلطانهم عافيا ، واتفتت الشمس والقمر والزهرة في طالع العرب ، فلن يروا سوى الخير والعلاء ، واما من جانبنا فقد صار الميزان خاليا فلسنا نرى غير العناء والشقاء ، ولقد امعنت النظر وبين ايدينا امر عظيم ، وخطب جسيم والاولى ان اؤثر السكوت وافوض الامر الى مالك الملك والملكوت

« والرسل تختلف بيننا وبينهم وهم يلتمسون ان تقاسمهم الارض فيكون لهم ما وراء الفرات (؟) ويكون لنا ما دونه وان نفتح لهم الطريق الى السوق يدخلون اليها ويتسوقون

» ثم انه يجرى كل يوم وقعة يهلك فيها خلق من الايرانيين والذين معي منهم قوم مغترون بشجاعتهم ورجولتهم ووفرة عددهم وعددهم ، ومستصغرون امر العدو القادر ولا يدرون سر الفلك الدائر ، فاذا وقفت على كتابي هذا فاجمع اموالك وخزائنك ، وخيلك ورجلك ، وانرض الى اذربيجان ، واعتصم بتلك البلاد .
واشرح لأمي حالي وسلها الدعاء ، فاني واصحابي في عناء وتعب وهم واسف وانا اعلم اني لا اسلم بالآخرة من هذه الوقعة »

والمؤرخون الاسلاميون مجمعون تقريبا على تأييد رواية الفردوسي عن تشاءم رستم وعن رغبته في الاتفاق مع الساميين ، ويقولون انه سعى كثيرا لاقناع قومه بالتساهل معهم فابوا واصروا على الحرب، وما ذلك الا لانهم كانوا يستهينون بامر العرب ويرون ان في امكانهم التغلب عليهم وطردهم بدون كبير صعوبة والظاهر ان رستم ما كان يشاطرهم هذا الرأي ولكنه لم يربدا من مجاراتهم ومسايرتهم فأقدم على خوض الحرب مكرها

الوفود والغاية من ارسالها

وعلى كل فان تعدد ارسال وفود الساميين الى الفرس كان من التدابير الصائبة الحكيمة التي ساعدت الساميين على التفوق والفوز ، فقد تعرفوا امر عدوهم ودرسوا حالته النفسية وسبروا غوره واطلعوا على كثير من عوراته واسراره ، ولمعرفة هذه الشؤون - في حالة كتلك الحالة ، فوائد عظيمة لا يدركها الا الذين عانوا الحروب وخاضوها وقادوا الجيوش ونازلوا الاقيال

ولهذه الوفود مهمة اخرى في نظرنا فقد كانت واسطة لنشر الدعوة الاسلامية بين خاصة الفرس وعامتهم ، فاستقبال الملك لوفد العرب ومادار بينه وبينهم من

حوار ، لا بد ان ينتشر ويعم ، فيؤثر في النفوس ويجعل الفرس يحسبون حساب العرب ويهابونهم ، ويقولون انهم لو لم يكونوا اقوياء وواثقين من فوزهم لما ركبوا هذا المركب ، ولما جاءوا يهددون ملكنا في عقرداره ، وفي وسط قصره ، وبين رجال دولته، وقواد جيشه ، فتخور عزائمهم وتضعف قواهم الادبية ، وعلى هذه القوى المعول في الحرب فهى من اعظم القوى وافضلها وما فاز العرب الابهة

ويجب ايضا ان ننوه بالموقف الخطير الذى وقفه المغيرة بن شعبة فى مجلس رستم والكلمات التى خاطبه بها وقد تضمنت طعنا شديدا فى نظام الفرس الاجتماعى فقد اثرت ولا شك فى نفوس رجاله الحاضرين فى الجلسة وانتشرت بواسطتهم بين العامة يضاف الى هذا ما كان يصف به رجال الوفود حين انقلابهم الى قومهم الفرس ، فقد كانوا يسهبون فى احاديثهم عن تحاذلهم وانقسامهم فيضرمون نار الحماسة فى الصدور ويهونون شأن العدو فيزيدون القوى الادبية فى صدور اخوانهم قوة وضرا

١٩ المعركة الكبرى

استنفد المسلمون الوسائل السلمية وحاولوا اجتناب الحرب وسفك الدم وحمل
الفرس على التسليم باحد المطالبين المعروفين ، ولما لم تجد هذه الوسائل نفعا ، لم تبق
سوى الحرب فتشمروا لها واستعدوا لحوض غمرتها

فاصدر سعد الاوامر الى قواد جيشه بان يكونوا على قدم الاستعداد للعمل ، وبان
يرتبوا صفوفهم ويهتوا زحوفهم ويضرموا الحماسة في صدور الناس ، وكان فصحاء
العرب وخطبائهم في الجيش يخطبون الناس ويحثونهم على الصبر والثبات
ويبينون لهم اجر الجهاد في سبيل الله وما اعد الله للجاهدين من اجر عظيم وجزاء
كبير . ولما انتظمت الصفوف وتم التعبئة أذن المؤذن فضلى الناس صلاة الظهر وهم
على تعبئتهم ، ولما انتهت الصلاة بدأ سعد تكبيراته بعد ما اتفق مع قواد جيشه على
ان تكون الرابعة ايذانا بابتداء القتال (١)

وكبر التكبيرة الثالثة والانظار مشرّبة اليه والقلوب خافقة فبرز اهل النجدات
فأنشبو القتال مع الفرس وحمل المسلمون حملة عامة حينما كبر التكبيرة الرابعة وهي
علامة الهجوم العام

واستمر القتال من الظهر حتى انقضاء الهزيع الاول من الليل فوقف
رحاه وعاد الفريقان الى مضاربهم ويسمى العرب هذا اليوم يوم « ارمات »
ويعترفون بان كفة الفرس رجحت فيه على كفتهم ، فقد اجفلت في ابتداء القتال

(١) جاء في بعض الروايات انه ارسل ينذر رستم انذارا نهائيا قبل المعركة طالبا

التسليم فاجيب بالرفض

خيلهم من الفيأة التي كانت في جيش هؤلاء فنفرت ولم يقوا أصحابها على ردها فعاقبتهم وعرقلت حركاتهم بيد ان الرماة من المسلمين سدوا جانبا من النقص اذ انصرفوا الى مطاردة ركاب الفيأة فقتلوا عددا منهم فشردت وعادت الى اماكنها فخفف ذلك عن خيانة المسلمين بعض ما كانوا يلقونه منها

واعمل المسلمون الفكرة حينما وقفت رحي القتال لابتكار طريقة تقيهم من اذى الفيأة وكانت كثيرة عند الفرس وكانوا يعززون بها ويعولون عليها ويرون انها ستيلهم النصر ، والظاهر انها المرة الاولى التي يلقون بها العرب فلم يسبق ان جاءوا بها ولعل اعتقادهم بانها المعركة الفاصلة حملهم على اقتيادها املا في أن ينصروا بها لان العرب لم يألفوا لقاءها ولا حروبها كما ان الخيل بطبيعتها تنفر منها وتتجنب لقاءها والوقوف امامها

وجاء المسلمون بالابل وجللوها وبرقعوها حتى صار لها شكل غريب وانزلوها الى الميدان في اليوم الثاني خافتها الفيأة لانها لم تألفها ونفرت منها فلقى اصحابها عناء كبيرا منها واتي المسلمون خطرها وشرها

وصول نجمات صم الشام

وعملا بأوامر الخليفة عمر بن الخطاب غادر هشام بن عتبة بن ابي وقاص ميدان القتال في الشام على رأس جند الحيرة الذي ارسل بأمر ابي بكر للاشتراك في قتال الروم وعدده عشرة آلاف مقاتل ، ليكون عوناً للمسلمين في نضالهم ، فوصل الى القادسية في يومها الثاني فاشتدت بوصوله عزائم المسلمين

ودارت رحي القتال عند الظهر وبعد ما نقلوا الجرحى واساموهم الى النساء للعناية بهم ودفنوا القتلى ، وادار سعد المعركة في هذا اليوم كما ادارها امس من شرفة قصره ، فقد كان مصابا بدمامل في جسمه لا يقوى معها على الركوب فكان يتمدد في الشرفة ويطل منها على ميدان القتال ويصدر اوامره بأوراق صغيرة يلقيها الى خالد بن عرفة

وكان الى جنب القائد العام فيبلغها هذا الى القواد للعمل بها ومعنى ذلك ان خالد كان يقوم بوظيفة رئيس اركان الحرب لهذا الجيش العظيم

واستبسل المسلمون في القتال هذا اليوم استبسلهم امس وحملوا على الفرس حماسة صادقة واشتدت عزائمهم بوصول اخوانهم من الشام وكان هؤلاء ملوئين حماسة وغيره واتق المسلمون خطر الفيلة بالابل التي اعدوها ، وقد امتد القتال في اليوم الثاني حتى نصف الليل ويسمونه يوم اغواث لان الغوث جاءهم فيه من الشام . وافترق الجيشان وكفة المسلمين هي الراجحة فنشطهم ذلك وشدت عزائمهم فأيقنوا بقرب النصر والظفر واخذوا اهبتهم لليوم الثالث وهو يوم عماس

واستؤنف القتال ضحى الغد وحمل العرب وهم يرجون ان ينهوا امر الفرس في يومهم فقابلهم هؤلاء بحماسة مثلها واستقبلوا ايضا لانهم ادركوا ان انهزامهم مؤذن بفنائهم . وظهر الرجحان في كفة المسلمين من ابتداء النهار حينما تطوع اثنان من ارباب النجدات فصوبار محيما الى عيني فيل فدخلا فيهما ففر وطرح سائسه فضر به احدهما بالسيف فوقع على الارض ثم نهض وما زال يجري حتى وثب في العتيق فتتابعت وراءه الفيلة ولم يقوا اصحابها على ردها فأوقعت الذعر والاضطراب في صفوف الفرس فأطمع ذلك العرب فاندفعوا في الحملة عليهم واقبل الليل والمعركة دائرة بشدة لم يعهد لها مثيل وكلا الخصمين يلح في القتال ويرجو الفوز والنصر واستمرت الليل بطوله واصبح الصباح ولم يغمض لأحد جفن ولم يسترح ساعة . ويسمون هذه الليلة ليلة الهدير

وقام الخطباء في جيش المسلمين في الصباح يحضونهم على الثبات ويقولون لهم ان يوارق النصر والفوز قد لاحت وانها ساعة ثم تنصرون فشددوا الحملة على جناحي الفرس وصدقوا في الهجوم فلم يطق رجالها صبرا فتهقروا عند الظهر وثبت القلب وكان فيه رستم وعلى رأسه راية فارس الكبرى فأصدر سعد امرا بأن تشترك قوى المسلمين كلها في الحملة عليه فهجموا هجمة شديدة فاضطرب جيش الفرس وزلزل . وقصد اصحاب النجدات (الفدائيون) سراق رستم فبلغوه فحاول الفرار

حينما شعر بوصولهم فلاحق به هلال بن علفة فقبض عليه وقتله ثم صعد على سريره ونادى قائلاً: « لقد قتلت رستم ورب الكعبة » فهلل المسامون وكبروا واندفعوا في حملتهم فولى الذين بقوا من الفرس في الميدان الادبار وتهافت المقرنون بالسلاسل في المعتيق

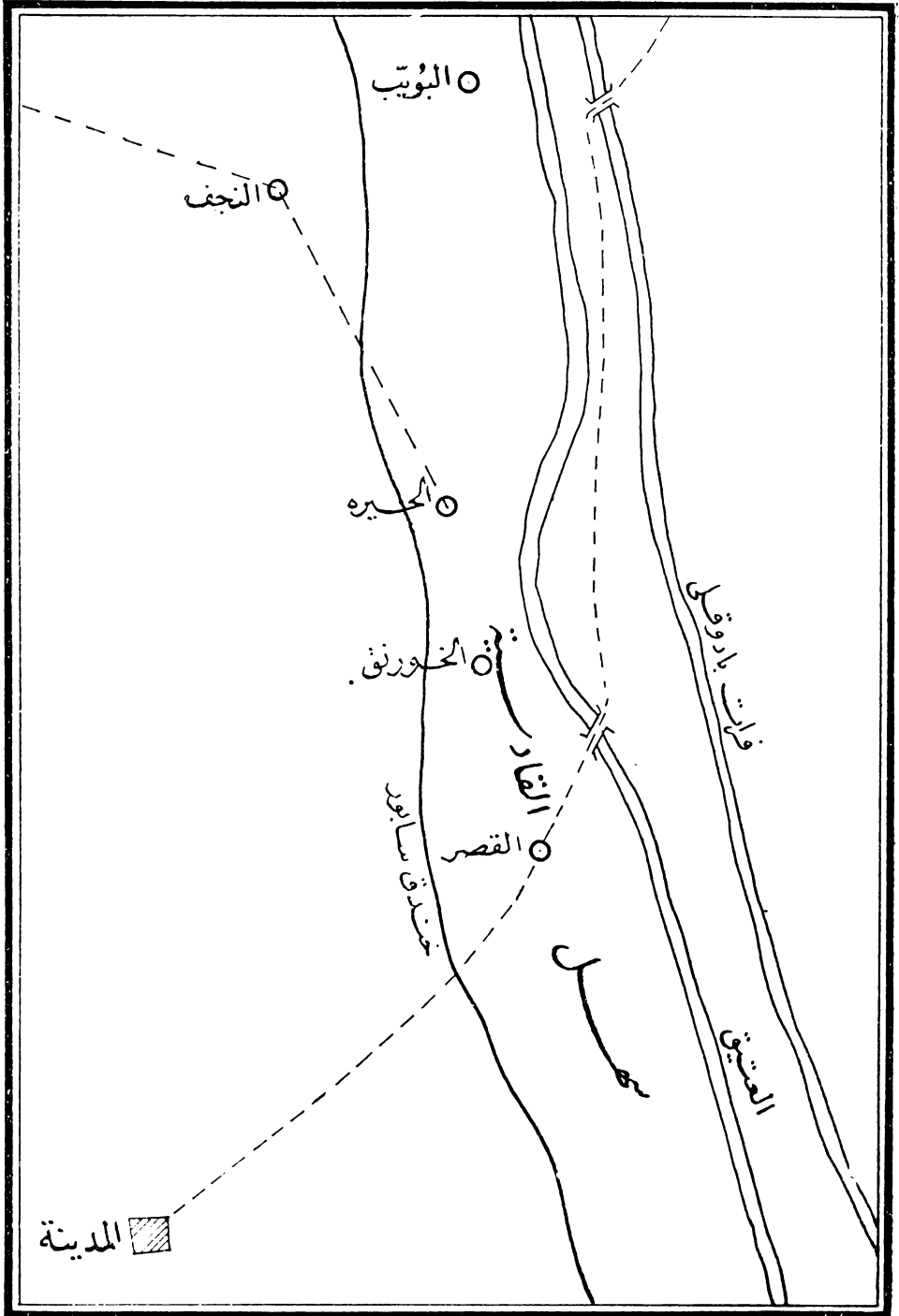
وغنم ضرار بن الخطاب « درفش كايان » راية الفرس فعوض منها ثلاثين الفا ونفل سعد سلب رستم لقاتله

واتدب سعد القعقاع وشرحبيل بن السمط وزهرة بن الحوية التميمي لمطاردة الفارين فأمعنوا فيهم قتلا واسرا واستأمن منهم كثير ون قدر قتلى المساميين في القادسية بسبعة آلاف وخمسمائة اما قتلى الفرس فأكثر وأعظم ، وغنم المسامون غنائم عظيمة اقتسموها بينهم بعد ما استخرجوا لبيت المال نصيبه

المؤرخون والمهركة

وقد اجمع المؤرخون الاسلاميون على ان معارك القادسية وقد استمرت نحو ٦٠ ساعة منها ٣٠ بدون انقطاع ، كانت من اعظم المعارك التي شهدها المسامون في حروبهم ، سواء في داخل الجزيرة ام في خارجها ، فقد استقتل فيها الفرس وحاربوا حروب الابطال لانهم شعروا بما وراء الانكسار من ذل وهوان وحشدوا لهف كل ما استطاعوا حشده من قوى ومعدات وجند وخيل وسلاح وفيلة ، وحفروا الخنادق وانشأوا الخطوط ، وماعدات فارس - وهي الدولة العظيمة الكبيرة - بقليلة ، وخصوصا بالنسبة للعرب وما كانوا يملكون في تلك الايام من المعدات والوسائل المادية ما يكاد يذكر في جانب قوى الفرس ، فضلا عن ان النسبة العددية لم تكن متعادلة ، جيش رستم في القادسية ما كان يقل عن مئة الف في حين ان جيش سعد ما كان يزيد عن اربعين الفا على ا كبر تقدير ٣٠ الفا منهم كانوا مع سعد وعشرة آلاف جاءوا من الشام

القادسيّة



وصف الفردوسى لمعركة القادسية

و يصف الفردوسى معركة القادسية بالوصف الآتى :

« نشبت الحرب بين الفريقين ثلاثة ايام ، وثقلت على الايرانيين اسلحتهم حتى كادت تحترق اجسادهم تحت الدروع ، وتذوب افئدتهم بين احناء الضلوع ، وغلبهم العطش حتى عصبت اشداقهم ، وغارت احداقهم . وبلغ بهم وبدوا بهم الامر ان اكلوا الطين والتراب المبلول ، فلما رأى رستم ذلك بارز سعدا فغلبه سعد وضربه على رأسه ضربة فشطت منه بيضته ، وانفلقت هامته فضربه ضربة ثانية نزلت من عاتقه الى صدره فهلك رستم . وانهزم الفرس فتبعهم المسلمون فقتلوا بعضهم ومات من العطش بعضهم »

هذا ما رواه الفردوسى عن معركة القادسية وهو يختلف عما رواه مؤرخو العرب وعمما اتفقت عليه جميع المصادر ، فالكل مجمعون على ان سعدا كان طريق الفراه يوم القادسية بسبب دماطل فى اليته منعه عن الركوب وانه كان يدير حركة القتال من شرفة قصره ولا تقل هذه الرواية فى غرابتها عن روايته الاولى وهى ان المسلمين عرضوا بان يكون لهم الفراه وما وراءه وان يكون للفراه مادونه فالمسلمون ما جاءوا ايران للمساومة على اقتسام الاراضى وافتتاح الاسواق ، بل جاءوا لغير ذلك وفى كتاب سعد الى رستم واقوال وفد النعمان ليزدجرد ما يعنى عن الافاضة وما اردنا من نقل ما نقلنا عن الشاهنامه الا المقارنة بين اقوال المصادر العربية واقوال المصادر الايرانية وان لم تكن الشاهنامه من الكتب التى يعول على روايتها تاريخيا

كيف ابلغ خبر الفوز الى المدينة

كان اهل المدينة ينتظرون بفارغ الصبر ورود اخبار القادسية و يتشوقون لمعرفة ما انتهى اليه امر الفرس ، وكان الخليفة يخرج كل يوم الى خارج العاصمة ويسير كيلو مترات على الطريق الشرقى يتنسم الاخبار، ويسال الركبان ويقضى ساعات في الانتظار لا يكاد يقرله قرار لانشغال فكره بما يدور في القادسية من معارك يتوقف على نتائجها ، الى حد كبير استقرار الاسلام وثباته لاني جزيرة العرب وحدها بل في العالم كله

ولقي عمر رسول سعد الى العاصمة ، على الطريق خارج المدينة ، فسأله عن امر القادسية وعمما لديه من اخبار المساميين فقال له وهو مجد في السير على ناقته انهم انتصروا ، ولم يقف لمحدثته لأنه كان يود الوصول الى المدينة مسرعا ليلبغ البشرى الى الخليفة ويسامه رسالة سعد ، وما كان يدري ان الذي يكلمه هو الخليفة نفسه . وكان قد خرج على جاري عادته في ذلك الصباح يتندم الاخبار وكان يومها في قلق فكري واضطراب نفسي ، فقد ازعجه انقطاع الاخبار وما كان لدى سعد ما يكتبه اليه في اثناء الموقعة ، فاما اتم الله له النصر ارسل اليه رسولا وامره بان يعجل في السير فالتقى به على النوال الذي وصفناه ، ولم يك مع هذا احد من الخدم بل كان يسير لوحده كاحد عامة المساميين

وجد الرسول بالسير على ناقته ، وعمر يجري وراءه على رجليه ، وهو يكرر عليه الاسئلة ويستزيده ايضا عن القادسية وما جرى فيها وقد اطمأن قليلا بما سمعه منه حتى دخلا المدينة ومشيا في الاسواق فسلم الناس على عمر بامارة المؤمنين فاستوقف ذلك نظر الرسول فالتفت اليه وقال له :

— لماذا لم تعرفني عافاك الله بنفسك وتقول لي انك امير المؤمنين فاسلمك

الكتاب؟

— لا عليك يا اخي

ثم تناول الكتاب منه ، وكان الناس قد التفوا حولها واقبلوا من كل جانب

لسماع اخبار جيشهم ففضه عمر وتلاه عليهم وهذا نصه :

« اما بعد فان الله نصرنا على اهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من اهل

دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها

فلم ينفعهم الله بذلك بل سلبهموه ونقله عنهم الى المسلمين واتبعهم المسلمون على الانهار

وعلى طعون الآجام وفي الفجاج واصيب من المسلمين رجال (وهنا سرد اسماءهم)

ثم قال « واصيب غيرهم لا نعلمهم الله بهم عالم كانوا يدوون بالقرآن اذا جن

عليهم الليل وهم آساد الناس لا يشبههم الاسود ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا

بفضل الشهادة اذ لم تكتب لهم »

وكان يوم وصول خبر الانتصار يوم سرور في المدينة ففرح الناس وابتهجوا

٢١

فتح المدائمه

عكف سعد بعد انتصاره العظيم في القادسية على تنظيم امور البلاد التي استسلمت اليه ودخلت في طاعته ، فقد دان له سواد العراق غربه وجنوبه وشرقه ، ولجأ الفرس الى المدائن^(١) عاصمتهم واقاموا فيها يجمعون فلهم

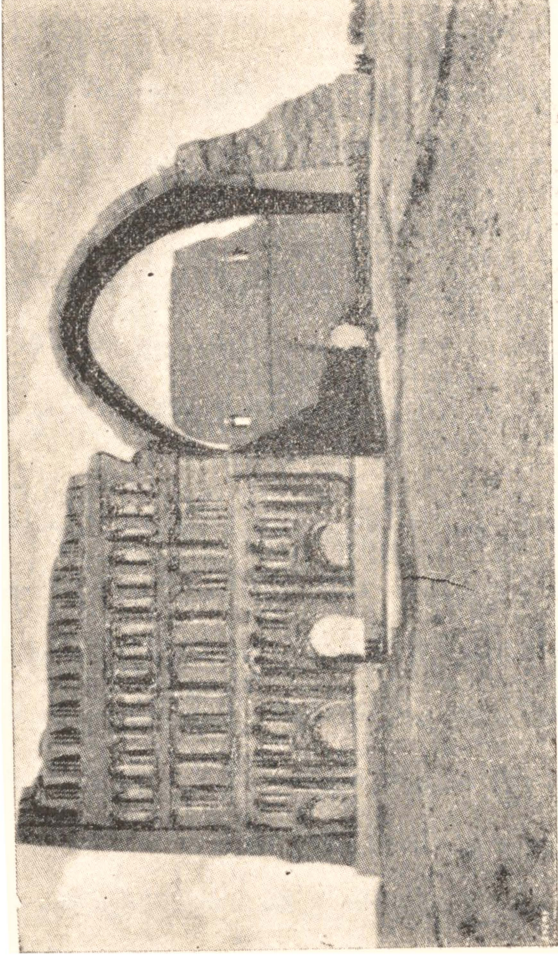
ودارت في خلال هذه المدة مكاتبات بين الخليفة والقائد العام لتقرير الخطة التي تتبع في معاملة اهل السواد (فلاحى العراق) ولا سيما الذين نقضوا منهم عهد الساميين ومالأوا الفرس في حربهم الاخيرة وانهت المكاتبات بصدور امر الخليفة بعد ما استشار رجال شورا بالرجوع الى عهود الساميين القديمة (عهود خالد بن الوليد) باعتبار ان اهل السواد بانضمامهم الى الفرس كانوا مجبرين وانذار الذين جاؤا منهم فمن عاد الى ارضه واقام فيها فله الذمة وللساميين الجزية ومن لم يعد فأرضه غنيمة للساميين فعاد أكثرهم

وتلقى سعد - وهو في القادسية امر عمر - بأن يزحف الى المدائن وتبعد عن القادسية نحو ١٣٠ ميلا الى الشمال فزحف بعد شهرين من القادسية اى بعد

(١) ذكر مؤرخو العرب ان المدائن سبع مدن لم يعد ياقوت سوى اسماء خمسة منها وهي : المدينة العتيقة (طيسفون) ومدينة اسباير وهي اعظمها وتقع في جنوبي المدينة الاولى وبقربها روميه ، وفي الضفة المقابلة بهر سير وهي محرفة عن كلمة بهير اردشير وفي جنوبها مدينة ساباط كسرى وهي محرفة عن بلاسى اباد

ويقول ياقوت ان ايوان كسرى كان في اقسام مدينة اسباير وكان القصر

الابيض من اقسام المدينة العتيقة



بقايا ايوان كسرى في المدائن (قرب بغداد)

ما ارتاح الناس من متاعبها واهوالها . وقاد الطلائع زهرة بن الحوية فالتقى في برس « مكان بين القادسية والحلة » بقوات للفرس بقيادة الهرمزان وهو من كبار قوادهم ويعادل رستم في الرتبة وكانت لهما الزعامة العسكرية في ايام يزيدجرد ، فهزمها فارتدوا الى بابل (شمالي الحلة) وتبعد عن القادسية نحو ٣٩ ميلا وكانوا قد اعدوا فيها خط دفاع وحصنوها فقصدهم سعد وهزمهم

وانقسمت فلول الفرس بعد معركة بابل فصار قسم منهم الى الاهواز اى انه اتجه نحو الجنوب وسار قسم آخر الى الشمال فلاحق بالمداين وكان الملك فيها ، وسار القسم الثالث نحو الشرق فليجأ الى نهاوند

ونزل سعد في بابل وقضى فيها اياما ثم سير المقدمة الى المداين اذ لم يبق للفرس قوات في هذا الميدان يحسب حسابها فوصل الى بهر سير وهي على ضفة دجلة اليمنى امام المداين العليا وتقوم غربى دجلة . ومعنى ذلك ان المسلمين ساروا في تقدمهم الى المداين غربى دجلة

وخندق الفرس في بهر سير (سلوقية) وكانت لديهم قوات كبيرة وتحصنوا في داخلها فضرب سعد الحصار عليها ونزل حولها . ولما رأى الفرس انه لا قبل لهم بمقاومته عبروا الى الضفة الاخرى وقطعوا الجسر فاحتلها سعد بعد حصار دام شهرين واتخذها قاعدة له واخذ يعد المعدات للعبور من مخاضة دله عليها اهل البلاد . ولما تمت المعدات عبر الجند تحت حماية الرماة بدون عناء ولم يشعر سكان طيسفون الا وقد طلعت عليهم خيل المسلمين فذعروا واستسلم اكثرهم وانهزم الباقون

وكان الملك يزيدجرد في مقدمة الفارين فقصد حلوان (قرب قصر شيرين على الحدود بين العراق وايران في الوقت الحاضر) وكانت مدينة كبيرة عامرة خربت في بعض القرن الثامن ، مع رجال دولته واهله ، فدخل سعد المداين وقصد القصر الابيض (ايوان كسرى) ونزله وكان يتلو قوله تعالى ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونِ

وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْفَ كَذَلِكَ وَأُورِثْنَاهَا قَوْمًا
آخِرِينَ ﴿١﴾ وصلى فيه صلاة الفتح واتخذ مسجدا

رواية الفردوسى عنه المتناول المدايمه

وتختلف رواية الفردوسى عن رواية المصادر العربية ، فهو يقول ان المسمين
واصلوا الزحف بعد القادسية ليل نهار حتى وصلوا الى بغداد وكان فيها يزدجرد
فغادرها الى خراسان وهذا ما قاله : وركب المسلمون صهوات النصر راكضين ليلا
ونهارا فى عسكر كالسيل (الليل) حتى نزلوا بغداد (ولم تك بغداد قد بنيت فى تلك
الايام) فعبر فرخ زاد اخورستم المقتول دجلة وتبعته عساكر المدينة فلقبهم المسلمون فى
الكرخ (دجلة الغربية) وجرت بينهم موقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير من الفرس ،
وجرح منهم خلق آخرون . فانصرف فرخ زاد ودخل على يزدجرد . وقال : « لا تقم
بهذه المدينة فقد اصبحت هاهنا وحيدا وحوالك من العدو مائة الف فاخرج الى
خراسان حتى تجتمع عليك العساكر هناك فغلا يزدجرد بأصحابه وفاوضهم فيما اشار به
فرخ زاد فاستصوبوا رايه فتردد فى ذلك ثم صمم العزم على السير وقال الاصبوب ان
نسير الى خراسان فان لنا فيها جماعة من المماليك واذا وصلت هناك لاحالة يأتينا رسل
الحاقان ، واكابر الصين فتجربى بيننا وبينه المصاهرة ونعتضد به ثم نشغل بنكاية
العدو وايضا فان صاحب مرو المسمى ماهوية يمدنا ويؤثر معاضدتنا ومظاهرتنا فانه كان
من رعاة خيلنا

« ولما اصبح من الغد خرج من بغداد وأخذ فى طريق خراسان فتبعه اهل
المدينة يبكون ويضجون ، فوقف ساعة وودعهم ، وكان ذلك آخر عهده بهم ،
وسار يواصل السير بالسرى الى ان وصل الى الرى فأقام بها اياما حتى استراح وأراح
فارتحل منها وسار الى بست وكتب كتابا الى ماهوية يذكر له ماجرى عليه وعلى

عساكره في قتال المسامين ويقول له انى اذا وصلت الى نيسابور ولا اقيم فيها اكثر
من اسبوع وساقدم مرو فأعد واستعد وطير بهذا الكتاب راكبا الى مرو وكتب
ايضا الى والى طوس والى سائر ولاة البلاد المتاخمة لها يعلمهم بحاله ويأمرهم بالاجتماع
والاحتشاد

٢٢

جلولاء

ولى عمر بن الخطاب سعدا المداين وما غلب عليه من ملك الا كاسرة وامره بأن يمضى فى قتالهم . وكان قوادهم وجندهم قد انتهوا الى جلولاء (قزلباط فى الوقت الحاضر) وهى من اعمال لواء دىالى - شرقى بغداد - تبعد عن بغداد ٩٦ ميلا بسكة الحديد الى الشرق وتبعد عن جنوبى خانقين ١٤ ميلا على الطريق السلطانى (الجادة الكبرى) بين العراق وكرمشاد وفارس وهى طريق القوافل فى القديم والحديث

وقزلباط او جلولاء على نهر يسمى باسمها ويتفرع عن دىالى وهى تقريبا فى منتهى السهل الممتد من شرقى المداين حتى غربى سلسلة جبال حمرين آخر حدود العراق الشرقية فى الوقت الحاضر ، واول حدود ايران . ومعنى ذلك ان قواد الفرس اختاروا للقتال فى المرحلة الجديدة اما كن تصلح للدفاع من الوجهة العسكرية فحشدوا قواهم فى سفح جبال حمرين

ولا يخفى ان العرب كانوا من ابتداء هجومهم على الابله حتى واقعة المذار فالخيرة فالقادية فلمداين يقاتلون فى ارض سهلية لاجبال فيها ولا عوارض طبيعية مما سهل مهمتهم العسكرية كثيرا ، فانتقال ميدان القتال من السهل الى الجبل لا يخلو من صعوبة بالاجمال ، وكان الفرس يعلقون آمالا كبيرة على هذه الناحية لان العرب لم يألفوا الحرب فى الجبال

وكتب سعد الى عمر بن الخطاب باحتشاد الفرس فى جلولاء وانشأهم الخنادق فأبلغه بان يجهز عليهم حملة بقيادة هشام بن عتبة وهو قائد النجدة التى جاءت من الشام يوم القادية فغادر هذا المداين فى شهر صفر سنة ١٥ يقود اثنى عشر الف مقاتل حتى

بلغ جلولاء (قزلباط) فحاصرها ، فصمدت حاميتها للمسلمين وقاتلتهم قتال المستميت وقضى المسلمون شهرين حولها وهم في نضال عنيف فلم ينالوا منها منالا ولما طال عليهم المطال عقد امراءهم جلسة عسكرية قرروا فيها القيام بهجوم عام واحتلالها بأية طريقة كانت . وعملا بما تقرر صدر الامر للجيش بان يكون على قدم الاستعداد للهجوم وعين القعقاع بن عمرو وقائدا له ، فباشر القتال وحمل المسلمون حملة صاقة على الفرس فاقتحموا الخندق وغلبوا عليه ففر الفرس الى الجبال ، فتعقبهم القعقاع حتى حدود قصر شيرين الحالية لان اوامر عمر العسكرية الى سعد كانت تقضى بالوقوف عند حدود السهول الشرقية للعراق وعدم الزحف في الجبال ، وتعد هذه الجبال الفاصل الطبيعي بين العراق ذى السهول الفسيحة وبين غرب ايران ويؤثر عن عمر قوله في هذا الصدد « وددت لو ان بين السواد (العراق) وبين الجبل (جبال حمرين) سدا لا يخلصون (اى الفرس) الينا ولا نخلص اليهم ، حسبنا من الرف السواد ، انى آثرت سلامة المسلمين على الانفال والغنائم »

الاعمال العسكرية في الشمال

علم سعد وهو في مقامه بالمداين ان الفرس جمعوا قوات جديدة في تكريت (بلدة معروفة في العراق) وهي على ضفة دجلة اليمنى تبعد عن بغداد الحالية ١٠٩ اميال وعن شمالي المداين ١٢٩ ميلا وعن جنوبي الموصل ١٦٠ وكانت قلعة حصينة بناها الروم مدة تغلبهم على العراق على ما ذكره جغرافيو العرب ، فسير عليهم حملة بقيادة عبد الله بن المعتم فتحصنوا في القلعة ومعهم عدد كبير من عرب الديرة (اباد وتغلب والنجر) وتنزل في ديار الجزيرة قرب تكريت ، فحاصروهم ودارت بين الفريقين ٢٤ معركة من دون جدوى ، واتصل عبد الله بن المعتم بزعماء العرب المحاربين في جيش فارس واقنعهم بالانضمام اليه ووعدهم بالعمو والامان فمالوا اليه واتفق معهم على ان يحملوا على الفرس من ورائهم حينما يسمعون تكبير الجيش . ونفذ هؤلاء الخطة فكبروا حين كبر المسامون فظن الفرس انهم هوجموا من الورا فأقبلوا على ابواب الحصن للخروج فأخذتهم سيوف المسامين وفتكت بهم واستولى هؤلاء على الحصن واقاموا فيه حامية منهم

وارسل سعد حملة ثالثة من المداين قادها ضرار بن الخطاب لفتح كورة ماسبذان (نرجح انها منطقة لواء كركوك في الوقت الحاضر) وهي ايضا في سفح جبل حميرين الى الشرق الشمالي من المداين فاحتلها . فكان ذلك خاتمة حروب الفرس في العراق ، فقد ارتدوا بعد هذه المعارك الى الغرب وتحصنوا في الجبال الفاصلة بين ايران والعراق (جبال حميرين) فاتتهى بارتدادهم الدور الثاني من ادوار حروب الاسلام

والامبراطورية الفارسية . وقد تم في خلاله انتصار سعد على جيش فارس الاكبر في القادسية واحتلال المداين والمناطق المجاورة لها في الشرق والشمال والجنوب ، وبذلك اصبح المسلمون يسيطرون على العراق العربي كله ، ولا يستثنى منه سوى الموصل وقد فتحت بعد ذلك

الاهواز

يظهر من سياق الحوادث ، ومما رواه المؤرخون ان ثغر الابله - ويسمونه الآن جبلة بتشديد اللام ، وكان ثغرا عظيما للفرس في زاوية الخليج الفارسي - عاد الى ايدي الفرس حينما جلا المسلمون عن الاماكن التي احتلوها في جنوبي العراق ، استعدادا لمعركة القادسية الكبرى

ولما تم للمسلمين النصر في هذا الميدان ، وهزم الفرس ، وتقلص نفوذهم عن جنوبي العراق امر عمر سعدا ، وكان في القادسية ، بان يسير قوة الى الابله لاحتلالها ليحول دون وصول مدد للفرس من ناحيتها ، حفظا لحظ رجعة الجيش من جهة الجنوب ، وكان الفرس في الاهواز

وسار عتبة بن غزوان بجيشه حتى بلغ الابله فاخطط مدينة البصرة الحاضرة وانشأها وانزل فيها الجند والقوى ، وكان ذلك سنة ١٤ واتخذها المسلمون عاصمة لجندهم في منطقة الاهواز والخليج الفارسي . ثم عادوا في سنة ١٧ فأنشأوا الكوفة بأمر الخليفة عمر واتخذوها قاعدة لجيشهم في منطقة الفرات ودجلة وهي على مسافة ٦٠ ميلا من الخيرة وقضت عليها تدريجيا

وكتب عتبة الى عمر بن الهرمزان وهو من كبار قادة الفرس وصنو رستم وكان ينزل الاهواز (مقاطعة خوزستان او عربستان الايرانية كما تسمى في الوقت الحاضر وعاصمتها قصبه الحمرة الواقعة شرقي شط العرب) يغير من وقت الى آخر على البصرة ويزعج المسلمين ويستأذنه في قتاله فأذن له وكتب الى سعد بأن يمدد بجند من عنده فأمدده واشترك مع جند البصرة ، وكان مستقلا عن جند الكوفة وما عرف العرب مبدأ (الوحدة الادارية) في تاريخ حكمهم فكان لكل بلد من بلدانهم عامل

مستقل في الغالب لا يتصل بعمال البلدان المجاورة بل يكاتب الخليفة مباشرة ويتلقى اوامره وتعليماته وكان الامير او العامل هو قائد الجند والحاكم السياسي وكان لهم في العراق والجزيرة وخليج فارس بعد ما تموا فتوحها اربع وحدات ادارية

١ - الكوفة وكانت تشمل منطقة بغداد الحاضرة او منطقة دجلة و بعض مناطق الفرات

٢ - البصرة وكانت تشمل منطقة البصرة الحاضرة والاهواز

٣ - البحرين ومقرها في البحرين وتشمل منطقة الخليج

٤ - الجزيرة وكانت تتبع عمل الكوفة في اول الامر ثم انفصلت عنها

الهرمزانية في الميراث

وحمل عتبة بجنده وجند الكوفة على الفرس فلقوه بين مناذر ونهر تيرى فهزمهم حتى جاز شاطئ نهر دجيل الجنوبي فصار حدا بين الساميين والفرس في الجنوب وكان العرب يطلقون اسم نهر الدجيل على نهر الكارون

ثم صالح الهرمزان الساميين على مقاطعة الاهواز كلها ما عدا ما أخذوه عنوة وكانت مناذر ونهر تيرى من بنادر البصرة . وتجدد الخلاف بين الساميين والهرمزان فكتب عتبة الى الخليفة يستأذنه في حربه فأذن له وارسل اليه النجيدات فنازله عند جسر سوق الاهواز وهزمه فسار الى (رامهرمز) شرقي الاهواز واستولى السامون على معظم اجزاء هذه المقاطعة

وعاد الهرمزان بعد قليل الى حرب الساميين فكتب عمر الى عتبة امير البصرة بأن يرسل اليه وفدا يتألف من عشرة ليحقق معهم في البواغث التي تبعت الهرمزان على الثورة والاتفاض - لما تبادر الى ذهنه وهو انه لو لم يكن مظلوما لما ثار ولما لقي من الناس تأييدا وتعظيلا - فأرسل اليه الوفد فلما دخل عليه ، وجه الكلام الى الاخنف بن قيس « سيد بنى تميم » وكان في الوفد وقال له اصدقني القول هل ثار اهل الذمة لظلم نزل بهم ام لغير ذلك ؟

– لقد ناروا لغير مظامة والناس على ماتحب

– انصرفوا اذن الى رحالكم « اى عودوا على الفور ولا تتوقفوا »

فعاد الوفد وكتب عمر الى عتبة يقول له :

« اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم

او بغى فانكم انما ادركتم بالله ما ادركتم على عهد عاهدكم عليه ، وقد تقدم اليكم

فما اخذ عليكم فافوفوا بعهد الله وقوموا على امره يكن لكم عوناً وناصراً »

واستأنف الهرمزان غاراته على المسلمين وعاد الى نقض عهدهم وأمدّه بزجرد

بقوات كبيرة جندها من داخلية ايران ، فاجتمع الفرس في عدد كبير في الاهواز

لقتال المسلمين ، وبلغ امير البصرة وهو يومئذ ابو موسى الاشعري ما يعده هؤلاء

فكتب الى عمر فأمر هذا سعدا بأن يرسل حملة قوية بقيادة النعمان بن مقرن

كما كتب الى ابى موسى بأن يرسل جندا يقوده سهل بن عدى وولى القيادة العليا لهذه

الحملة – حملة جنوبي فارس – ابو سبرة بن ابى رهم

واتجه الجيشان – جيش البصرة وجيش الكوفة – الى الاهواز فالتقيا

بالهرمزان فى رامهرمز وقد خرج بجموعه لقتالهم فنازلوه وهزموه فانسحب الى تستر

فلحقه الكوفيون بقيادة النعمان وحاصروا تستر ثم وافاهم جند البصرة فاتحدا

واستبسلا فى القتال ودارت بينهما ٨٠ معركة فى خلال شهر واحد فاز المسلمون

فى ختامها واستولوا على تستر واستسلم الهرمزان اليهم مشترطاً عليهم ان يفصل عمر

فى امره

وارسل ابو سبرة قائد الحملة العام الى جنوبي فارس الهرمزان مع وفد من

وجوه المسلمين الى المدينة فاما وصلوا اليها ودخلوا المسجد وجدوا عمر نائماً على الارض

ودرته « كراباجه » معلقة فى يده

وجلس رجال الوفد فى انتظار يقظته ، فسألهم الهرمزان وكان لا يعرفه

– اين عمر ؟

– هذا هو النائم على الارض

- ابن حرسه وحجابه وخدمه وحشمه ؟
- لاحرس ولا حجاب ولا خدم له ، بل هو الذى يخدم ارامل المسلمين وايتامهم
- يجب ان يكون نبيا
- ليس بنبي ولكنه يعمل عمل الانبياء
- واستيقظ عمر بعد ذلك فقدموا له الهرمزان قائلين انه ملك الاهواز فقال له :
- كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة امر الله
- كنا واياكم فى الجاهلية وكان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم ، فاما
- كان معكم غلبتمونا
- انما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا
- ثم قال له
- ما عنذك وما حجتك فى انتفاضك مرة بعد اخرى ؟
- اخاف ان تقتلنى قبل ان اخبرك
- لا تخف
- اريد ماء
- فأمر عمر ان يؤتى له بماء فجاءوه به فى قدح غليظ فاما رآه قال لو مت عطشنا لم
- اشرب منه
- فأمر عمر ان يؤتى له بالماء فى غيره فجاءوا باناء يرضاه فادركته الرعدة وارتجفت
- يداه وقل اخاف ان اقتل وانا اشرب
- لا بأس عليك حتى تشرب
- وأ كفاً الهرمزان الماء على الارض حينما سمع كلمة عمر ، فامر هذا بأن يؤتى له
- بالماء ثانية وقال لهم لا تجمعوا عليه بين الموت والعطش ، فأبى ان يشرب وقال لا حاجة
- لى به وانما اردت ان استأمن
- انى قاتلك
- لقد امنتنى

– كلا

وتدخل الحاضرون واشتركوا في المناقشة ، وقال انس بن مالك وكان حاضرا

– لقد صدق يا امير المؤمنين فقد امنته

وايد هذا الرأي الباكون وقالوا للخليفة لقد امنته حتى يشرب فضحك عمر

حينئذ وقال للهرمزان :

– لقد اردت ان تخدعنى وانا والله لا انخدع الا مسلم فاسلم فذلك خير لك ،

فاسلم ففرض له مالا فى بيت المال وانزله فى جواره بالمدينة

عمر بحث عنه اسباب الانتفاض

واغتم عمر وصول الاحنف بن قيس فى جملة الوفد الذى سحّب الهرمزان الى

المدينة وسأله عن اسباب انتفاض اهل الاهواز وكثرة الفتن بينهم فقال له :

« نهيتنا عن التوسع فى البلاد وامرنا بالاعتصار على ما فى ايدينا ، وملكهم ،

لا يزال حيا بين اظهرهم ، ولا يزالون يساجلوننا مادام حيا بينهم ، ولم يجتمع ملكان

قط ولا بد لاحدهما ان يخرج صاحبه . وقد رأيت انا لم تأخذ شيئا بعد شئ الابانبعاثهم ،

وملكهم هو الذى يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فنهاجمهم فى بلادهم حتى

نزياه عن فارس ونخرجه من مملكته وعز امته »

٢٥

اصطخر

كانت البحرين في مقدمة الاقطار التي خضعت للمسلمين في خليج فارس ودخلت في طاعتهم ، ومع ان بعض قبائلها ارتد ، في ابان حركة الردة ، (انظر ص ٢٣٦) الا ان العلاء بن الحضرمي مالبت ان قضى على هذه الحركة بمساعدة بعض قبائلها الاخرى وقبض على زمامها

ولما غزا المسلمون العراق ونالوا ما نالوه من نصر عظيم ، وافتتحوا المدن والعواصم ، اراد العلاء بن الحضرمي ، عامل البحرين ان يساهم في الغزو ، وان يهاجم الفرس بحرا ، وذلك بان يسير من ضفة الخليج الغربية الى ضفته الشرقية ، وهي مأهولة بالفرس وكانت هنالك مقاطعة اصطخر ، فيحتلها وينال نفع فتحها ، ويؤدي خدمة لوطنه وقومه

وحيث ان عمر ما كان يأذن لاحد بركوب البحر عملا بالقاعدة التي وضعها وهي انه لا يريد ان يفصل بينه وبين المسلمين فاصل ، وحيث ان استأذانه في غزو اصطخر بحرا معناه عدم الرغبة في الغزو لانه سيجيب بالرفض فقد اعد العلاء قوة قالوا ان عددها باع ١٢ الف مقاتل وهياً السفن اللازمة لنقلها ثم خرج بها للقتال من دون ان يحصل على تصريح من الخليفة بذلك

وصمد الفرس لاهل البحرين حينما جاء وهم وحلوا بينهم وبين الرجوع الى سفنهم فاستبسل العرب في القتال وشقوا لهم طريقا في اتجاه البصرة برا بعد ما استحال عليهم الرجوع الى مدينتهم بحرا فقطع الفرس خط رجعتهم وشددوا في مضايقتهم

ووصلت الاخبار الى المدينة وعرف عمر بما فعله العلاء وبما اصاب المسلمين على

يده ففصله عن عمله فورا وامره بان يلحق بجيش سعد وينضم اليه ، كما اصدر امرا الى عتبة بن غزوان عامل البصرة بان يسير بالناس الى انقاذ اخوانهم فالتدب منهم ١٢ الف مقاتل ساروا بقيادة ابي سبرة بن ابي رهم فسلك طريق الساحل حتى ادرك اهل البحرين فانقذهم وجاء بهم الى البصرة ومنها رجعوا الى مدينتهم

يطلق العرب اسم الجزيرة على الجزء الشمالى من الاراضى الواقعة بين الفرات ودجلة ، وتسمى ايضا جزيرة اقور او اشور وكانت ربيعة فى العهد الفارسى ، تنزل جنوبها وعاصمتها نصيبين ، وتنزلها اليوم قبيلة شمر ، كما كانت مضر تنزل فى غربها ، وكانت ديارها تمتد على ضفة الفرات الغربية وكانت الرقة عاصمة لها

وكانت مقاطعة ديار بكر (تتبع تركيا فى الوقت الحاضر) تعد من مقاطعات الجزيرة وتقع فى القسم الاعلى بين دجلة والفرات ، وكانت الجزيرة كلها خاضعة للساسانيين فى العراق وكانت تتصل بحدود الروم الشرقية (حدود سورية)

وكان لكل من الدولتين قوى عسكرية كبيرة فى هذه المنطقة ، منطقة الحدود فلما انتهى المسلمون من فتح جنوبى العراق - وكانوا لا يزالون فى حرب مع الروم فى الشام - امر عمر سعدا بان يجهز حملة لفتح الجزيرة وكان يرمى من ذلك الى غرضين :

اولهما : التخفيف عن جيش المسلمين فى الشام وحمل الروم على ارسال قوى الى حدودهم الشرقية للدفاع عنها ، ثانيا ضم هذه البلاد العظيمة وهى مأهولة بعدد غير قليل من العرب الى المملكة الاسلامية والقضاء على البقية الباقية من النفوذ الفارسى فى شمالى العراق والاتصال بالشام فتتوحد اجزاء المملكة الاسلامية ويتصل العراق بالشام وبالبحر احمر اتصالا مباشرا

وعملا باوامر الخليفة وتعليماته جهز جيش الكوفة ثلاث حملات لافتتاح الجزيرة : فاد الحملة الاولى سهيل بن عدى ووجهت لفتح الرقة (عاصمة مضر)

وقاد الحملة الثانية عبد الله بن عتبان ووجهت لفتح نصيبين (عاصمة ربيعة)

وقاد الحملة الثالثة عقبة بن الوليد ووجهت لاختراع الاجزاء الاخرى

وعين عياض بن غنم وهو الذى اتدبه ابو بكر لغزو شمالى العراق يوم اتدب خالدًا لغزو جنوبيه فجاء حتى الجوف وفيها التقى بالروم فاستنجد بخالد ثم انضم اليه (انظر ص ٢٧٠) قائدا عاما لهذه القوى الحبرته فى شؤون هذه البلاد ، فقد سبق له ان جاسها

فوز عياض

وقصد عياض الرها (اورفة اليوم وهى من ممتلكات تركيا) فحاصرها فصالحه اهلها على الجزية وكان أكثرهم من النصارى ثم قصد حران وهى واقعة فى شمالى الرقة وفى جوارها ينبع نهر البلخ من عدة عيون ووديان صغيرة فصالحه اهلها على الجزية ايضا ثم قصد نصيبين (وهى اليوم من ممتلكات تركيا) وتقع على حافة جبل طور عابدين الجنوبية وفيها منتهى سكة حديد بغداد وتبعد عن الموصل نحو ١٦٠ ميلا ففتحها ثم فتح ديار بكر

وابى عرب الجزيرة الاشتباك فى حروب مع الساميين لانهم ادركوا ان لاطاقة لهم بهم فاوغلوا فى ارض الروم . واخيرا وبعد مراسلات تم الاتفاق بينهم وبين السلطنة الاسلامية على ان يعفوا من الخراج مقابل دفعهم الصدقات المفروضة مضاعفة لانهم بنفرون من ذكر كلمة الخراج وعاد العرب الى بلدانهم وقاموا على زراعتها

وكان سعد قد وجه بعد افتتاحه المداين حملة بقيادة عمر بن مالاك لافتح قرقيساء وكانت واقعة على ضفة الفرات الغربية فى شمالى ملتقى نهر الخابور بالفرات فافتتحها واقرا اهلها على الجزية كما افتتح فى مسيره « هيت » وهى مدينة قديمة واقعة على ضفة الفرات اليمنى ولا تزال على حالها ، وهى فى شمالى الفلوجة وتبعد عنها ٥٦ ميلا

اكتناح ايران

ظل النضال بين العرب والفرس حتى اواخر سنة ١٧ للهجرة مقتصرًا على المنطقة الواقعة غربى جبل حمرين وجنوبيه وتشمل الاراضى العراقية العربية ومقاطعتى الاهواز واصطخر فى الجنوب وكان هنالك ثلاثة ميادين يتقاتل فيها الفريقان :

١ - ميدان الاهواز - البصرة (الميدان الجنوبى)

٢ - ميدان المداين - جبال حمرين (الميدان الشرقى)

٣ - ميدان الجزيرة - ارمينية (الميدان الشمالى)

ولقد بسطنا فى ماتقدم رأى الخليفة عمر بن الخطاب فى قضية « التوسع » وقلنا انه كان يقول بوجوب الاكتفاء بالمنطقة الممتدة من سفح جبل حمرين الشرقية حتى الفرات وهى المنطقة السهلية العظيمة التى تقوم فيها دولة العراق الحاضرة ، وترك الايرانيين وشأنهم وراء الجبل اى فى شرقيه ، لانه الحد الطبيعى الفاصل بين هذين الافليمين ، ومما يؤثر عنه قوله « وددت لو ان بين السواد والجبل سدا فلا يخلصون الينا (اى الفرس) ولا نخلص اليهم ، حسبنا من الريف السواد »

وكان الخليفة لائى يصدر الاوامر الى قواد جيشه بالاقتصار على ما بأيديهم وبعدم التوسع فى الفتح ويحظر عليهم الا يغال فى الجبال ، فلا يستهدفون للمخاطر فى بلاد جبلية وعرة ، لا يكادون يعرفون عنها شيئًا ، بعكس العراق فقد كانوا يعرفونه لانه كان مشوى لكثير من القبائل العربية النازلة على الفرات وعلى دجلة وفى المنطقة الواسعة الممتدة بينهما

وعلم قادة الجيش الاسلامى فى « جلولاء » آخر الحدود العراقية الشرقية من

ناحية ايران ، بان يزجر حشد قوات عظيمة لقتالهم ، وانه يستنفر الناس ويجمعهم من هنا وهناك ، وانه يرجو ان ينتصر على العرب ويهزمهم ، فقالوا في كتابهم الى سعد (القائد العام للمنطقة) بان قعود العرب عن مهاجمة هؤلاء قد لا يخلو من اخطار وطلبوا منه ان يستصدر امرا من القيادة العليا بمنازلة الفرس وتمزيقهم قبل ان يستفحل شرهم ، وقبل ان ينتفض الناس على الحكم الجديد ، فقد ارسل هؤلاء رسلهم في البلاد يغرون الناس بالانتفاض على الفاتحين ومقاومتهم ويعدونهم النصر والتأييد ، ويقولون لهم ان امر العرب صائر الى الزوال وانه يجب عليهم ان يعملوا لانقاذ وطنهم واحياء قوميتهم

ولم يشأ سعد ان يبت في الامر بل كتب الى عمر يبسط الحالة ويستأذنه في لقاء الفرس وقتالهم - ويقول المؤرخون ان القوة التي حشدها يزجر ما كانت تقل عن ١٥٠ الف مقاتل - لانه ما كان يجهل ما قد يجره الايغال في بلاد ايران ، وفتح ميدان جديد في مناطق نائية ، واما كن قاصية ، من مخاطر يستهدف لها المسلمون ولم تك قواعد دولتهم الجديدة قد توطدت واستقرت

ودعا عمر مجلس شورى الصحابة الى الاجتماع فاجتمع فتكلم عن الموقف العسكرى في شرقى العراق وذكر ان الجيش بلغ في تقدمه سفح جبال حميرن ووقف عنده وقال ان يزجر جمع جموعا غفيرة في الجبل وانه يوشك ان ينقض على المسامين بجيشه العظيم وسألهم ان يثيروا عليه بما يرونه : هل يأذن للجيش المرابط على الحدود الجديدة بان يهاجمهم ويطاردهم وراء الجبل ام يلزم خطة الدفاع ؟

وبعد ماتكلم بعضهم وابدى واعاد خطب عثمان بن عفان فاقترح على الخليفة ان يكتب الى اهل الشام فيسيروا من شامهم والى اهل اليمن فيسيروا من يمنهم قال : ثم تسير انت باهل هذين الحرمين (الحجاز) الى المصرين (الكوفة والبصرة) فتلقى جموع المشركين بجمع المسامين فانك اذا سرت بمن معك ومن عندك ، قل في نفسك ماقد

تكثر من عدد القوم وكنت اعز جندا واكثر نفرا . ثم قال :

يا امير المؤمنين :

انك لاستتبقى من نفسك بعد العرب باقية ! ولا تتمتع من الدنيا بعزير ، ولا تكون منها بحريز ، ان هذا اليوم له مابعده من الايام ، فاشهد برأيك واعوانك ولا تغب عنه - اه

وتكلم على بن ابي طالب فاقترح اقتراحات عسكرية خطيرة الشأن نقض بها اقتراحات عثمان ومماقاله :

يا امير المؤمنين :

انك ان اشخصت اهل الشام (اي جيش الشام) من شامهم ، سارت الروم الى ذراريهم ، وان اشخصت اهل اليمن من يمنهم ، سارت الحبشة الى ذراريهم ، انك وان اشخصت من اهل هذه الارض (الحجاز) انتقضت عليك الارض من اطرافها واقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك اهم اليك مما بين يديك من العورات والعيالات اقرر هؤلاء في امصارهم واكتب الى اهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق :

١- فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم

٢ - ولتقم فرقة في اهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم

٣ - ولتسر فرقة الى اخوانهم بالكوفة مددا لهم

ان الاعاجم ان ينظروا اليك غدا قالوا هذا امير العرب واصل العرب ، فكان

هذا اشد لكهم ، وألبتهم على انفسهم

واما ما ذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكننا كنا

نقاتل بالنصر

ورد عمر على اقوال الخطباء والمتكلمين فقال :

اجل والله : لئن شخصت من البلد (الحجاز) لتنتقضن على الارض من اطرافها

واكنافها ، ولئن نظرت الى الاعاجم لايفارقن العرصة ، ولجيدنهم من لم يمدهم ، وليقولن

هذا اصل العرب ، فاذا اقتطعتموه اقتطعتم اصل العرب فاشيروا على برجل اوله ذلك الثغر
غدا واجعلوه عراقيا (اى من جيش العراق)

- انت افضل رأيا واحسن مقدرة وانت اعلم باهل العراق
- اما والله لاولين امرهم رجلا ليكونن لاول الاسنة اذا لقيها غدا
- من هو يا امير المؤمنين ؟
- النعمان بن مقرن المزني
- هولها

طاردت جيوش سعد الفرس المهزمين من المداين فأثخنت فيهم قتلا وجرحا ثم عادت الى قاعدتها الجديدة من دون ان تفكر في الاستيلاء على المراكز المنيعه في الشرق وتركتهم وشأنهم فجمعوا جموعهم في جلواء قزلباط (انظر وصفها في ص ٣٢٠) واستعدوا للغارة على العرب فوصلت اخبارهم الى سعد فارس لى القوى لقتالهم فكانت معركة جلواء الكبرى وقد انتهت بفشلهم وهزيمتهم فتسلقوا جبال حمرين وهى الجبال الفاصلة بين ايران والعراق فى الوقت الحاضر ، وان شئت فقل هى الحد الطبيعى بين بلاد العرب وبلاد ايران ، وربطوا فيها واخذوا يجمعون جموعهم فى اواسط هذه الجبال ، ويهدد المرباط فيها السهول المؤدية الى بغداد لانها بحكم وضعها الطبيعى مشرفة عليها ، فلم ير قادة الجيش العربى بدا من السير اليهم واجلائهم عن الجبال ودفع الخطر المحقق بالمداين ، فاستأذنوا الخليفة فلم يأذن لهم الا بعد ما جمع مجلس شورى الصحابة ونال اجازته

وعملا بالاوامر الصادرة من المدينة ، تحرك جيش الكوفة من مقره ، فجا الى المداين سالكا الطريق السلطانية القديمة المعروفة بينهما ومنها اتجه الى جلواء (قزلباط) ثم سار الى خاتقين وتبعد عن بغداد ١١٢ ميلا الى الشرق وتقوم على نهر الوند وبينها وبين قصر شيرين « وهى اول حدود الدولة الفارسية البهلوية فى الوقت الحاضر » بضعة عشر كيلو مترا فصعد فى الجبال من دون مقاومة مواصلا السير على الطريق السلطانى « الجادة الكبرى بين بغداد وخراسان » حتى بلغ نهاوند فى قلب هذه الجبال ، وكان الفرس قد احتشدوا فيها وحضنوها ، فنزل امامها وضرب مخيمه حولها ، فكانت اول جبال يخرقها العرب فى زحفهم الى ايران

وجبال حميرين تتكون من رواب رملية ترايية وهي فاحلة في الوقت الحاضر لا نبت فيها ولا ماء وهي سلسلة تحد منطقة جبال لورستان من الغرب ويتدىء فرعها الشمالى من شمالى مندلى الغربى ويقطع نهر ديباله - احد روافد دجبة في شمالى بغداد - بين قزلرباط « جلولا » ودلى عباس - مركز ناحية من لواء ديبالى في العراق وتقع على نهر الخالص الغربى - في خط مواز من وادى نفض درة ويحتاز شط العظيم في جوار دمبر قبو فيستمر في اتجاهه نحو الشمال الغربى وهناك يحتاز دجبة ويتصل بجبل مكحول وينتهى بنهر الثرار . ويؤلف فرع حميرين الشمالى . اما فرع جبل حميرين الجنوبى فيمتد من جنوبى مندلى ويقطع « آب شونكولا » في شرقى بدره وراء خط الحدود بين العراق وايران عبارة عن سلسلة جبال متوازية تمتد على اتجاه واحد من الغرب الى الشرق وتؤلف جبال لورستان المنيعه ولاغابات فيها الآن

اما قصر شيرين وهي اول مدينة على الحدود الايرانية في الوقت الحاضر ، فهى من المدن القديمة التاريخية وهي على نهر حلوان وقد سميت باسم القصر الذى بناه كسرى ابرويز لامراته شيرين ، ولا تزال اطلاله قائمة في شمال شرقى المدينة وكانت مدينة حلوان بقرها وقد خربت وبادت الآن

ويطلق الفرس على الجبل الواقع غربى قصر شيرين اسم « كوه باطاق » اى الجبل ذو الطاق وتقع نهاوند في داخل هذا الجبل في المنطقة الممتدة بين قصر شيرين وكرمشاد والمسافة بينهما نحو ١٠٠ كيلومتر وفي هذه المنطقة ايضا خرائب الدينور . وتبعد همدان عن كرمشاد وهي الى شرقها نحو ١٥٠ كيلومترا ومن همدان الى طهران الرى نغراسان

هذا وصف جغرافى موجز لحالة المنطقة الجبلية التى كان على الجيش العربى ان يعمل فى داخلها خلال المرحلة الجديدة . فقد كان عليه ان يصعد فى جبال حميرين ويحتاز مسافة واسعة لا يقل طولها من الغرب الى الشرق - وكان جيش العرب يسير فى

هذا الاتجاه اى من الغرب الى الشرق - نحو ١٠٠ كيلومتر ليبلغ نهاوند وهى
معروفة الآن وقد ضعف شأنها فى هذه الايام وحلت محلها كرمشاه فهى عاصمة هذا
الاقليم - اقليم غربى ايران - وهو من اعظم اقاليم هذه المملكة الزراعية واعظمها
شأنا

٢٩

نہاوند

كان قرار مجلس شوری الصحابة باكتساح ايران والایغال في اراضيها ومقاطعاتها من القرارات التاريخية الخطيرة في تحول الاسلام كما كان نتيجة طبيعية للموقف الجديد ، فلا مناص للعرب ، بعد اكتساح ما اكتسحوه من اراضى الفرس الغربية و بعد ما احتلوا عاصمتهم ، ونقضوا بنیان دولتهم ، من مطاردتهم في جبالهم وصياصيمهم واخراجهم منها اذا ارادوا الاحتفاظ بما احتلوه واستولوا عليه ، والا فلا يأمنون غارات يستهدفون لها واتفاضات تنتقض ، نخضمهم قوى يمتلك مصادر شتى من القوى المادية يرميهم بها اليوم بعد اليوم

وكانت الخطة العسكرية التي اقرها مجلس شوری الصحابة في اجتماعه واتفق على ان يتولى النعمان بن مقرن المزني^(١) تنفيذها تقوم على القواعد الآتية :

١ - يسير جيش الكوفة « كانت قاعدة العرب العسكرية في العراق الاوسط والشمالى كما كانت البصرة قاعدتهم في السواد وفي خليج فارس وجنوبى ايران » الى نهاوند ويباشر الاعمال العسكرية في المرحلة الجديدة بقيادة القائد الجديد

٢ - تسيير قوة من جيش البصرة الى جنوبى ايران لشغل الفرس في

(١) هو النعمان بن مقرن بن عائد بن سيحان ويتصل نسبه باد بن طابخة المزني « نسبة الى مزينة » من ولد عثمان بن عمرو ، « وتزل قبيلة مزينة جنوبى المدينة في المنطقة الواقعة بينها وبين مكة » . قدم المدينة في ٤٠٠ من قومه . وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له ، وكان يحمل لواء مزينة يوم فتح مكة ، واشترك في حملة فارس وشهد القادسية واشترك في جميع المعارك تقريبا ، وقتل يوم نهاوند

هذه المنطقة ومنعهم عن مساعدة جيش نهاوند وأنجاده ، واجراء ما يسمونه
« مظاهرات عسكرية »

٣ - يبدأ جيش الكوفة العمل حينما يتم احتشاده

تعليمات الخليفة الى القائد الجربير

وارسل الخليفة كتابا الى النعمان « القائد الجديد للحملة » - وكان يتولى خراج
كسكرك « لواء الكويت العراقي في الوقت الحاضر » و يقال ان هذا كتب في تلك الايام
الى الخليفة يرجوه ان يقيه من عمله هذا و ينتدبه لعمل عسكري لانه يكره الكسل
- أى ينقله من السلك المدني الى العسكري - يقول فيه :

« اتت الناس بنهاوند فقد وليتك حربهم وسر من وجهك ذلك حتى تأتى ماه
فانى قد كتبت الى اهل الكوفة « جيش الكوفة » ان يوافقك بها فاذا اجتمع لك
جنودك فسر الى الفيرزان « قائد الفرس العام في نهاوند » ومن تجمع اليه من
الاعاجم من اهل فارس وغيرهم ، واتصروا بالله واكثروا من قول لا حول ولا قوة
الا بالله »

تعليمات عسكرية اخرى

وارسل اليه تعليمات اخرى جاء فيها :

« ان معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية فادخلهم دون من هو دونهم في العلم
بالحرب واستعن بهم ، واشرب برأيهم وسل طليحة « هو طليحة الاسدى بطل معركة
بزاخة انظر ص ٢١٢ » وعمرا وعمرا « عمرو بن معدى كرب الزبيدى وعمرو بن ابى
سامى الغنوى » ولا تولهم شيئا »

الحملة تزحف

تقد النعمان القيادة العامة للحملة الجديدة وانصرف الى اعداد معدات المعركة الفاصلة التي تقرر ان يخوضها لتقرير مستقبل العراق وايران على السواء ، فقد كان انتصار العرب فيها مؤذنا بسقوط بلاد ايران في ايديهم كما ان انتصار الفرس - لو تم - ينمش آمالهم ، ويجدد نشاطهم ، فيواصلون الزحف غربا لاسترداد ما فقدوه واضاعوه وكان العرب يقدرون خطورة شأنها تقدير الفرس له ، وقد حشروا لها كل

قواهم وجمعهم وقرروا بذل كل ما يستطيعونه للانتصار فيها

وارسل عمر بن الخطاب قوة جديدة من اهل الحجاز الى النعمان قادها المغيرة بن شعبة وتواردت عليه النجيدات من كل جانب ، وحرص الذين لم يشهدوا القادسية ولم ينالوا نخر الاشتراك فيها على شهود نهاوند ولم تكن دونها شأنًا ، وكما مكنت تلك العرب من احتلال المداين والاستيلاء على العراق فقد مكنتهم هذه من الاستيلاء على ايران ، ولم تكن المعارك التي دارت بعدها سوى معارك موضعية لا تذكر في جانبها

طليحة الاسدي يقود المفرزة

ولما ازعم النعمان الزحف ، قدم على مقدمته طليحة الاسدي وامره ان يتقدم حتى نهاوند ليستطلع اخبار القوم ويرود الاماكن ، فقام هذا بمهمته على الوجه الاكمل وعاد يقول للنعمان انه ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه ، فليسر على بركة الله وعبأ النعمان جنده ، ويقول بعض المؤرخين انه كان يتألف من ٣٠ الف مقاتل ، فجعل على الجناح الايمن حذيفة بن اليمان وعلى الجناح الايسر سويد بن مقرن ، وولى المقدمة نعيم بن مقرن ، وولى المشاة القعقاع ، وقاد المؤخرة مجاشع بن مسعود ، وتولى هو قيادة القلب

المعركة الاولى

وواصل الجيش العربي مسيره فبلغ نهاوند من دون مقاومة ، وكان الفرس قد تحصنوا فيها ، فنزل حولها ، فخرجوا للقائه فدارت بينهم المعركة الاولى ، ولم تقترب نتيجة

واستؤنف القتال في الغداة ، وظهر العرب في اليوم الثاني على الفرس فلدجأوا الى خنادقهم وحصونهم ، فأحاط العرب بها ، وضربوا نطقا حولها

مجلس النعمان العسكري

وطال الحصار وامتدت ايامه ، فعقد النعمان مجلسا عسكريا حضره كبار قواد الجيش نذكر منهم حذيفة بن اليمان والمغيرة بن شعبة وعتبة بن عمرو وطلحة الاسدي وبشير بن الحصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وربيع بن عامر ونعيم بن مقرن وجريز بن عبد الله الحميري والاقرع بن عبد الله الحميري وجريز بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس الكندي ووائل بن حجر وغيرهم من اعيان العرب وكبار قوادهم وسألهم رأيهم في الخطة التي يجري عليها بعد ما طال امد الحصار ، وبعد ما امتنع القوم وراء حصونهم ؛ فعرضت اقتراحات شتى وأشار كل واحد بما اعتقد انه الافضل ، وكان الرأي الذي اتفق الحاضرون على الاخذ به وتنفيذه رأى طلحة الاسدي ، ومؤداه ان ينشب المسلمون معركة في الغداة مع الفرس ثم يتظاهرون بالانكسار ويرتدون فيلدح الفرس بهم ، فيخرج عليهم فريق من العرب يكمن في الليل ويأتيهم من ورائهم فيضعهم العرب بين نارين ، وينصرف فريق منهم الى نهاوند فيحتلها ويرفع راية العرب عليها

ونفذ الجيش الخطة في الغداة فباشر القعقاع بن عمرو القتال ، وقاد النعمان بنفسه القوة التي كنتت للفرس ، وتراجع القعقاع امامهم متظاهرا بالهزيمة فبرزوا اليه كأنهم جبال وقد تعاهدوا ان لايفروا والقوا ورائهم حسك الحديد لتلا ينهزموا

وما زال ينسحب حتى عرف انهم اصبحوا في داخل الكمين ، فوقف امامهم وصمد لهم ، وانقض عليهم النعمان من الورا بقواد بعد ما كبر ودعا لنفسه بالشهادة ، فكانت من اشد المعارك هولاء ، وساح الدم حتى زلقت به الدواب وزلق فرس النعمان في الدم خلال المعركة فسقط ومات ، وقيل انه قتل برمية سهم فتناول الراية نعيم بن مقرن ودفعها الى حذيفة بن اليمان ، وكتبوا خبر موت القائد لئلا تضعف القوة الادبية في الصدور واستمرت المعركة حتى الليل وانتهت بفوز العرب وتمزيق جيش الفرس ، وطاردهم العرب حتى همدان فاستولوا عليها ، واسر نعيم بن مقرن الفيروزان قائد جيش الفرس العام

فتح الفروع

ويسمى العرب نصر نهاوند ، فتح الفتوح ، فقد ضمن لهم الاستيلاء على ايران وانا لهم كنوز كسرى وتحفه

بشرى الفتح في المدينة

ولما تم الفتح خرج طريف بن سهم اخو بني ربيعة الى المدينة يحمل بشرى الانتصار ، وكان عمر على عادته يتنسم الاخبار ويسال الركبان ، فلما جاءه وبشره بالفتح سر؛ وبكى ، حينما نعى اليه النعمان حتى اخضلت لحيته وترحم عليه . ثم قدم الى المنبر فبشر المسلمين بما آتاهم الله من نصر

مضوع اهل الجبال

ولما تم فتح نهاوند خضعت همدان والمناطق المجاورة لها وقدمت الطاعة وقبيل ان تدفع الجزية فكتب حذيفة - وقد حل محل النعمان في القيادة العامة - العهد الآتى الى اهل ماد دينار (الدينور) وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما اعطى حذيفة بن اليمان اهل ما دینار ، اعطاهم الامان على انفسهم
واموالهم وارضيتهم ، لا يغيرون عن ملة ، ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المنعة
ما ادوا الجزية في كل سنة الى من وليهم من الساميين على كل حالم في ماله ونفسه على
قدر طاقته ، وما ارشدوا ابن السبيل واصبحوا الطرق ، و اضافوا جنود الساميين من
مر بهم فأوى اليهم يوما وليلة ونصحوا ، فما غشوا وبدلوا فدمتنا منهم بريئة
شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩ »

٣٠

فتح ابراهه

كانت معركة نهاوند - وكان العرب يسمونها فتح القنوج - خاتمة الاعمال العسكرية العربية الكبرى في ايران وكما فتحت معركة القادسية لهم الطريق الى المدائن وجعلتهم يسيطرون على شطر الامبراطورية الفارسية الغربي ، فقد فتحت لهم معركة نهاوند الطريق الى نصفها الشرقي وسهلت لهم سبل الاستيلاء عليها واستصفائها واستقر الجيش العربي في نهاوند بعد افتتاحها واتخذها قاعدة له في الدور الجديد ، وارسل قواد فحاصرت همدان وفتحتها كما فتحت ماه دينار (الدينور) وقد فتحها ابو موسى الاشعري

واصدر عمر بن الخطاب التعليمات من المدينة الى قواده في البصرة والكوفة بمتابعة الاعمال العسكرية في ايران والقضاء على سلطة الحكومة الامبراطورية لانه نحقق ان لا استقرار في ايران مادام يزدجرد فيها ، يثير الناس على العرب ويعريهم بهم ويؤلبهم على قتالهم . ولا بد لنا من الاعتراف بان هذا الملك بذل الجهد وما فوقه لانقاذ بلاده ، والدفاع عن قومه ؛ ولئن خانه الحظ وسقط صريعا في نهاية المعركة وخسر حياته كما خسر تاجه فالذنب ليس ذنبه ، وانما هي النواميس الطبيعية والاجتماعية قضت بما تم . والبقاء للافضل والاصلاح في هذا الوجود . وبذل الشعب الفارسي نفسه كما بذل الامبراطور ولم يحجم عن النضال وقاتل على كل شبر ارضا تقريبا من بلاده ، واستسلم اخيرا للاقدار وخضع للفاتحين

خطط العرب العسكرية في هذه المرحلة

ويلاحظ للباحث في خطط العرب العسكرية في المرحلة الجديدة انهم زحفوا على ايران من ثلاث جهات :

- ١ - من الجنوب وقد باشر الاعمال العسكرية في هذه المنطقة جيش البصرة ، فتقدم من الاهواز واصطخر لفتح جنوبي ايران
- ٢ - من الوسط وقد باشر الاعمال العسكرية في هذه المنطقة جيش الكوفة اى جيش نهاوند ووجهته خراسان
- ٣ - من الشمال وقد تولى العمل فيها جيش الكوفة ايضا وكانت وجهته اذربيجان والايغال في الزحف حتى ارمينية والقوقاس

وتقلد قيادة جيش الجنوب عبد الله بن عبد الله بن عتبان فسار من البصرة حتى اصبهان فاحتلها وصالح اهلها على الجزية وشهد ابو موسى الاشعري (قائد جيش البصرة) هذا الفتح وتقلد نعيم بن مقرن قيادة جيش الوسط (نهاوند) فسار حتى خراسان وفتح في طريقه قزوين

وتقلد قيادة جيش الشمال عتبة بن فرقد وبكر بن عبد الله وقد مشى اليها كل منهما من ناحية فسار الاول من الموصل وسلك طريق اربيل - راوندوز - رايات الحالى . وهو ايضا من طرق المواصل الكبرى ويبلغ طوله نحو ٢٦٨ ميلا ويتألف من المنطقتين الآتيتين :

- ١ - الموصل - اربيل والمسافة بينهما ٦٦ ميلا
- ٢ - اربيل - راوندوز - صاوجيولاق - تبريز (عاصمة اذربيجان) ومسافته ١٩٢ ميلا

ومشى الثانى من حلوان (منطقة قصر شيرين) الحاضرة قاصدا اذربيجان فسار الى الجنوب الشرقى حتى منطقة السليمانية فحلبجة فكمشاه ومنها اتجه الى اذربيجان موغلا في قلب ايران ولقى هذان الجيشان مقاومة شديدة فأمر عمر نعيم بن

مقرن ان ينجدهما بسماك بن خرشة الانصارى فلدق بهما وتم لهم فتح اذربيجان
وكتب لهم عمر كتاب الصلح

وانتشرت جيوش العرب فى كل ناحية من ايران تفتح وتخضع حتى بلغت بحر
الخرزر شمالا وحدود افغانستان شرقا وظلت تطارد يزدجرد وقواه حتى وصل اى بلخ
ومات شريدا بعد ذلك سنة ٣٠ فى خلافة عثمان قتله رجال ماهوية حاكم خراسان كما
يقول مؤلف الشاهنامه فى مرو ورموا بجثته فى النهر (نهر جيحون) وكان ذلك
خاتمة امره كما كان فيه انقراض الدولة الساسانية وافول نجمها

وقوف معركة الفتح الاسلامى

ووقفت جيوش العرب الزاحفة فى خراسان وكان يقودها الاحنف بن قيس
عند نهر جيحون وهو الحد الفاصل بين ايران وافغانستان كما وقفت فى الشمال عند
جبال قفقاسيا ، وكان ذلك فى سنة ٢٢ للهجرة ، وابى عمران يأذن لقواده بعبور
نهر جيحون والزحف على بلاد الترك والافغان ومنازلة الارمن وكانت لهؤلاء دولة فى
الشمال وكان العرب بلغوا تفليس واحتلوها وامرهم بان يلزموا البلاد التى فتحوها
ويعنوا بتنظيم امورها ، وغزيت غزوات وفتحت فتوحات فى عهد عثمان بن عفان.
سنعود الى تفصيلها فى مكانها

تَاخِيصٌ وَتَعْلِيْقٌ

ارخنا في هذا الجزء خمس حوادث من تاريخ الاسلام السياسي وهي :

١ - نشأة الدولة الاسلامية

٢ - فتح الحجاز وجزيرة العرب

٣ - مشكاة اليهود

٤ - حرب الردة

٥ - فتح العراق وايران

وعملا بالطريقة التي سرنا عليها في تدوين كتاب الثورة العربية الكبرى. نريد ان نلخص هنا بايجاز تاريخ هذه الحوادث ونعلق على كل واحدة منها ونبدى ملاحظات قد يساعد ايرادها على فهم كثير من حقائق تاريخنا ويميط اللثام عن بعض خفاياه فنقول :

١ - نشأة الدولة الاسلامية

لم تنشأ الدولة الاسلامية العربية ، طبقا للاساليب التي تنشأ بها الدول في عصرنا ، ويعنى علم الحقوق الاساسية بدرس تحولها وتطورها ، ونظمتها واطاها ، ولم تتكون كما تكونت ، وربما كان هذا التباين في النشأة بين الدولة العربية الاسلامية الأولى - وقد ولدت من ١٣٥٤ سنة - وبين دول العصر الحاضر ، هه مصدر ما بين الباحثين من خلاف على حقيقة وجودها السياسي ، فمنهم من ينكرها وهم اقلون . اما الاكثرية فتؤمن بقيامها وتقول بوجودها

والطرق المتبعة في انشاء الدول وتكوينها مختلفة متباينة في عصرنا الحاضر فاما أن تجتمع هيئة قانونية سياسية ، تمثل امة من الامم ، فتعلن استقلال الامة التي تمثلها وتأسيسها دولة تذكر اسمها واسم عاصمتها ، ثم تبلغ ذلك الى الدول فتعترف بها رسميا وتنشئ علاقات سياسية معها . واما ان تغير حكومة من الحكومات على قطر من الاقطار فتقتطعه من جسم الدولة التي كان خاضعا لها ثم تمنحه الحرية والاستقلال

حينئذى ءدولة خاصة به ويبلغ الدول خبر ظهورها فتعترف بها ، وقد حدث هذا فى خلال الحرب العظمى وفى ختامها ، فقد اعترفت دول الحلفاء بدول جديدة ظهرت فى اثناء تلك الحرب وهى دولة بولندا وتشكوسلوفاكيا والمجر وغيرها ، ويمكن القول بان معظم الدول الحديثة التى نشأت بعد الحرب العظمى سنة ١٩١٨ تكونت على هذا النوال . واما ان يثور شعب على حكومة تحكمه ويحاربها وينفصل عنها فتعترف باستقلاله مرغمة كما فعل الحجاز فى ابان الحرب العظمى

وهناك ايضا طرق واساليب اخرى فى نشأة الدول وتكونها يعرفها من درس القانون الدولى وعلم الحقوق الاساسية وليس هنا موضع التبسط فيها وبديهي ان الدولة الاسلامية العربية الجديدة فى بلاد العرب ، لم تنشأ هذه النشأة ولم تتكون هذا التكون ، لان انشاءها لم يكن الغاية من الدعوة الاسلامية التى دعا اليها نبينا العظيم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب العربى الهاشمى صلوات الله وسلامه عليه ، فهو لم يأت لتأسيس الدول ولا لفتح الممالك ولا للبسطة فى الملك ، كما اثبتنا ذلك فى متن الكتاب ، وانما جاء مبشرا ونذيرا ومرشدا وهاديا الى الناس كافة ، لا الى عنصر من العناصر او شعب من الشعوب ، والقرآن وكتب السنة مشحونة بالآيات والاحاديث التى تؤيد هذه النظرية تأييدا لا يأتبه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

فنشر الدين الاسلامى وتعميمه اذن هو الغرض الاصلى للحركة التى تحركها المسلمون فى ابتداء امرهم ، اما انشاء دولة خاصة بهم ، فقد جاء عرضا وضرورة من الضرورات الاجتماعية ، ومعظم حوادث الكون هى فى الغالب وليدة هذه الضرورة مع العلم ان الدين لم ينفصل عن السياسة الا بعد النهضة الحديثة

لقد كان المسلمون فى مكة اقلية ضئيلة مجردة من كل حول وطول ، وعرضة لكل ظلم واضطهاد ، وكانت قريش تحول بينهم وبين ممارسة شعائرهم الدينية وتسعى لهم على الارتداد عن دينهم . وغنى عن البيان ان طائفة هذا شأنها ، لانفكر فى تأسيس الدول والحكومات ، لانها ليست ذات كيان اجتماعى مستقل ، واقصى همها

ان ترد الهجمات الموجهة اليها ، وتحفظ بكيانها فلا تذوب وتلاشى

وتبدل الحال حينما نزل السامون المدينة ، فتمتعوا بقسط وافر من الحريات واخذوا يجيرون بأرائهم ومعتقداتهم الشخصية لا يخافون عقابا ولا اضطهادا كما اخذوا يؤدون فروضهم الدينية في مسجدهم الجديد ، ولم يتسن لهم مدة ثلاث عشرة سنة ان ينشئوا مسجدا مثله في مكة ، وتلك هي الحرية الدينية ، وكانوا يجتمعون ويتناقشون في الخطط التي يسيرون عليها لنشر دينهم ويعقدون العقود والمعاهدات مع القبائل المجاورة لهم وتلك هي الحرية السياسية . ولقد اتاح اجتماع هذه الحريات وتفاعلها نشوء حياة اجتماعية جديدة توفرت فيها الشروط والمزايا التي يشترطها علماء الاجتماع المعاصرون في تكون الهيئات الاجتماعية وهي :

١ - وحدة المثل الاعلى

٢ - التجانس

٣ - التاريخ المشترك

٤ - اتحاد الذكريات

٥ - الاتحاد العنصرى

ولما كان لابد لكل هيئة اجتماعية مهما كان نوعها وشكلها وغرضها من حكومة تدير شؤونها وتنظم امورها ، وتدبر مصالحها ، وتصون مرافقها ، بدأت الدولة الاسلامية تظهر تدريجيا وتكونت بالفعل قبل ان تتكون بالقوة او قل انها نشأت عمليا قبل ان تنشأ نظريا ، وهو ما كان يحدث غالبا في تكون معظم الدول في القرون الاولى والوسطى

لقد صار السامون يؤلفون الاكثرية المطلقة في المدينة وكانوا يتألفون من ثلاثة

عناصر رئيسية :

١ - المهاجرون السكيون وكان عددهم في ازدياد

٢ - الاوس

٣ - الخزرج

وكانوا جميعا يدينون بالطاعة لصاحب الرسالة الاسلامية ، وينقادون لأوامره ، ويرجعون اليه في شؤونهم الخاصة والعامة ، ويتبعون اوامره ونواهيه ، فينظر في امورهم ، ويفصل في قضاياهم وينصفهم فيطيعونه ، ويتبعون كل ما يصدره اليهم من الاوامر والتعليمات ، وتلك هي وظائف الحكومات في كل عصر ودهر : تسوس الناس وتدبرهم ، وتضرب على يد الباغي وتؤدبه ، وتقيم الاحكام وتنفذها ، وتوزع العدل وتنظمه ، وتسهر على المصالح العامة وتسيرها ، وهو ما كان النبي يباشره بالذات في عهده . وهو ما سار عليه خلفاؤه من بعده

فالدولة الاسلامية نشأت وتكونت عمليا من اليوم الذي وصل فيه النبي الى المدينة . وتسلم زمامها واصبح صاحب السلطان الاعلى في ربوعها ، نعم ان المسلمين لقوا في ابتداء امرهم معارضة من ابن ابي ، ومقاومة من اليهود ، ما لبثوا ان ذلوهما (المعارضة والمقاومة) وتعلبوا عليهما ففردوا بالسيادة وبسطوا نفوذهم على شمالي الحجاز ثم اتبعوه بجنوبيه ، وكان النبي يعين عاملا (حاكما اداريا) من قبله على كل بلد يفتتحه او يدخل في الاسلام ساما كما فعل في مكة وتيما وعمان والبحرين واليمن ، وكان هؤلاء العمال يتلقون منه التعليمات مباشرة وينفذون اوامره ، و يقيمون احكام الاسلام ، و اى دليل مادى يصح الاستشهاد به على ان النبي انشأ حكومة ثابتة اقوى من هذا الدليل ، ولا سيما متى ذكرنا ان القبائل في الحجاز ما كانت في حروبها وغزواتها تعنى بالاستيلاء على الاراضى ولا بافتتاح المدن ولا ببسط النفوذ ، بل كان اقصى همها السلب والنهب والحصول على المال ، ثم تعود بعد ذلك الى ديرتها الاصلية تاركة البلاد لاهلها . وقد تزد الاسلام عن هذا وما كان السامون يمدون ايديهم بسوء الى القبائل التي تدخل في دينهم ، بل كانوا يرحبون بها ويدمجونها في جامعهم وهيئتهم الجديدة ، اما القبائل اليهودية التي صالحتهم بعد ما حملوا عليها فقد اكتفوا منها بالجزية طبقا لما جاء في دستورهم (القرآن)

٢ - فتح الحجاز وهزيمة العرب

ولقد اعتبرنا انتصار المسلمين في بدر - وان لم يخرجوا في الاصل ، للقاء قريش ولم يسعوا لقتالها - فاتحة الحروب التي انتهت باخضاع الحجاز ، ففي بدر ظهر المسلمون عسكريا ، وفي بدر اثبتوا انهم ذوو قوة ، وفي بدر تغلبوا على قريش وهزموها ، وكان عددها ضعف عددهم على اقل تقدير . كما كانت قواها المادية الاخرى تزيد على قواهم اضعافا مضاعفة . وبديهي ان الغنائم التي غنموها منها ، والسلاح الذي استولوا عليه ، واموال الفداء التي قبضوها ، ساعدتهم على توسيع نطاق جيشهم ، فازداد ونما فاخضعوا به الحجاز ثم جزيرة العرب ، ولكن بالسلام لا بالحرب ، فقد خافت القبائل بأس جيشهم الجديد الموحد القيادة والغاية ، وحسبت حساب نشاطه وسرعته ، فاقبلت وفودها الى المدينة تعلن دخولها في الاسلام وانتظامها في الهيئة الاجتماعية الجديدة ، فاستقبلها المسلمون بالترحاب واستعانوا بها في عملهم العظيم ، وهكذا كان عددهم ينمو بدون انقطاع ، وما دخل الاسلام قلبا وخرج منه

فطريقة «السلام المسلح» - وتسير عليها دول اورو با في عصرنا الحاضر ، متنافسة في الاكثار من المعدات الحربية ، وبناء الاساطيل ، لاعتقادها انها انفي للحرب - هي الطريقة التي اتبعها المسلمون في فتح جزيرة العرب فقد عملوا في السنوات الاولى ، على استمالة القبائل وضما اليهم ، وادخلها في دائرتهم ، ولما كثر عددهم وازداد سوادهم اصبحوا بطبيعة الحال يؤلفون اكبر قوة في داخل الجزيرة ، فهايتهم القبائل الاخرى والقت اليهم الزمام وجاءتهم طائفة مختارة لثلا يسيروا اليها او يحملوا عليها ، لانها شعرت بعجزها عن لقاءهم ومقاومتهم ، وهكذا فشا الاسلام في الجزيرة ودانت به القبائل فافادها في حاضرها ومستقبلها ، وانقذها من حالي الفوضى والجهالة ، وضمن لها الاستقرار والهدوء ، فلا تفاخر في الانساب ، ولا تعاضم بالآباء ، ولا غزوات ولا غارات ، ولا نهب ولا سلب ، فقد ابطل ذلك الاسلام والغاه ، واقام مقامه نظام حكم جديد مطابق لحالة البلاد الاجتماعية كما انشأ حكومة قوية بسطت نفوذها على بلاد العرب كلها

وارسلت عمالها وموظفيها فانتشروا وسيطروا يؤيدهم جيش قوى ، جنده المسمون كافة ، وقائده الاعلى الرسول وامراؤه الصحابة . ومعنى ذلك ان النبي لم يقتصر على نشر الدين واذاعة تعاليمه بل انشأ بالفعل دولة هذه اركانها وعناصرها :

١ - دستور مسنون كامل حاو لجميع الاحكام « القرآن »

٢ - حكومة منظمة لها ديوان « سكرتارية » وجند وشرطة نشرت نفوذها في الداخل وانشأت صلات خارجية مع بعض الدول في خارج الجزيرة واتصلت بعضها ببعض

٣ - جيش ينفذ دستورها ووامرها ، وقد كان المسمون كافة جند هذا

الجيش

٤ - موارد مالية ثابتة (اموال الصدقات والحراج والجزية) وقد جبا المسمون الصدقات في عصر الرسول من القبائل كما جبا الجزية من اليهود والنصارى الذين خضعوا في شمالي الحجاز وفي اليمن

٥ - شعب يطيعها وينفذ اوامرها ويلتف حولها

٦ - وطن ثابت ذو وحدة جغرافية ؛ فقد خضعت جزيرة العرب لهذه الدولة ، ولم يكن لها حتى ختام العهد النبوي ، رعايا اجانب ، بل كان رعاياها من ابناء العرب انفسهم

وخلاصة القول انه توفرت لهذه الدولة جميع العناصر التي يشترط توفرها في هذا العهد لقيام الدول وفي مقدمتها الوطن « الارض » والوحدة الجغرافية ؛ فقد قامت في بلاد عربية ؛ والوحدة العنصرية ، فقد كان جميع رعاياها من العرب اى انها منهم واليهم ؛ والموارد المالية ، وقد ضمنها لها نظام الزكاة والصدقة والجزية ؛ ووحدة الغاية وسنستوفي البحث عن اوضاع هذه الدولة ونظمها في الكتاب الثالث واسمه « نظام الحكم في الدولة الاسلامية »

٣ - مشكلة اليهود

ومشكلة اليهود كانت من المشكلات الخطيرة التي واجهت المسلمين في ابتداء ظهورهم ، وaban نشأتهم ، فقد ساء النازلين منهم في المدينة وحولها - وكانوا يؤلفون قوة كبيرة قوية في شمالي الحجاز - أن يعظم أمر المسلمين ، وان ينتشر نفوذهم ، وان ينتزعوا منهم السيادة الاقتصادية والسياسية على بلاد الشمال ، فعكفوا على مقاومتهم سرا وعلنا ، املا بان يتغلبوا عليهم ، ويقضوا على نفوذهم

ولقد دل النضال الذي دار بين المسلمين واليهود على تفكك عرى الروابط الاجتماعية بين ابناء هذا العنصر ، وعلى ان شأنهم ما كان يختلف عن شأن القبائل الاخرى القاطنة في بوادي الحجاز ، فقد انقسموا الى شيع واحزاب ضعفت بينها الروابط (الصلات) ولم يخف أمرهم على المسلمين فهاجموا قبائلهم الواحدة بعد الاخرى بادئين بالاصغر والاضعف ، فقصوا عليهم وسلبوهم ما كان لهم من نفوذ وسلطان ولذلك لم ير يهود خيبر وتيما ووادى القرى بدا من الخضوع للمسلمين حينما هاجموهم بعد ما كانوا يتمتعون بنفوذ عظيم ، وبعد ما كانوا يقولون انهم الناس ، وراى عمر بن الخطاب في عهده ان مصلحة المسلمين السياسية والاجتماعية تقضى باجلاء البقية الباقية من هؤلاء فاجلوا مع النصارى ايضا ، فلم يبق في الحجاز ، سوى الدين الجديد ، وبقيت في اليمن والعراق والشام ولا سيما في حوران وفلسطين طوائف كثيرة من النصارى واليهود اقرها الاسلام على دينها ، ولم يتعرض لها ، واكتفى منها بالجزية وكانت تسقط عن كل من يدخل في الاسلام من افرادها

وطبيعى ان الغنائم التي غنمها المسلمون من يهود الحجاز ، والاسلحة التي صادرها منهم ، والاراضى التي وضعوا يدهم عليها - وكانت لليهود زراعة نامية حول يثرب وفي خيبر وبقية المناطق التي ينزلونها ، واطم منيعة كما كانت لهم تجارة واسعة - ساعدتهم في عملهم العسكرى وفي توطيد بنيان دولتهم الجديدة ، وفي نشر نفوذهم ، فهابتهم القبائل الاخرى ، وكانت تحسب حساب اليهود ، وتظن ان المسلمين

لن يقدروا على اخضاعهم والاستيلاء على ارضهم وحصونهم ، فلما صار امرهم الى مآصير اليه ، وتلاشت قواهم العسكرية والمادية كانت قريش في مقدمة من خضع للمسلمين وانقاد اليهم . وقد كان فتح مكة بعد خيبر ؛ وتلا ذلك خضوع قبائل نجد واليمن وحضرموت ، ومعنى ذلك أن انتصار المسلمين في خيبر وانجازهم امر اليهود اوقع الرعب في قلب قريش ، وكانت تتوهم ان سفينة الاسلام لن تلبث ان تتحطم حين ارتطامها بحصون اليهود فلما هاجموا خيبر وفتحوها وعادوا سالمين ، اسقط في يد قريش ولم يجد المسلمون كبير مقاومة حينما حملوا حملتهم الكبرى عليها فاستسلمت اليهم ودخلت في طاعتهم ومن تحصيل الحاصل القول بان فتح مكة زاد في نفوذ الاسلام زيادة عظيمة فهو فضلا عن فائدته الادبية ، ضمن للمسلمين تأييد قوة قريش عسكريا وماليا واقتصاديا فانحازت اليهم ، ووضعت في مواردها تحت تصرفهم ، وشدت ازر الدولة الجديدة ، وقد كان مدير وها وولاة امورها من ابنائها ورجالها وشجعانها ، لانها ادركت ان عزها في عز هذه الدولة ، سيما ولم يبق ما يستوجب الخلاف والنزاع ، بعد ما ارتضت دين الاسلام ، ونبتت عبادة الاوثان ، واستقبلت حياة جديدة وعهدا جديدا كان ايمن من العهد القديم وابرک واجزل ، فقد انالها التفوق والسيادة لاعلى جنوبى الحجاز وحده - وما كان نفوذها المادى فى الجاهلية يتجاوزده - بل على الشرق كله فانقاد اليها ، وخضع لابنائها ، فحكموه وتولوا قياده مئات السنين

٤ - هرب الردة

ولئن تسنى للمسلمين حل مشكلة الخلافة بسهولة وبدون عناء وقد نشأت بسبب وفاة النبي فذلك لم يتيسر لهم فى مشكلة الردة ، والباحثون من المؤرخين متفقون على أنه كان لعزيمة ابى بكر ، وقوة ايمانه ويقينه اعظم تأثير فى اخمادها والقضاء عليها ، لقد كانت فتنه الردة طعنة نجلاء وجهت الى قلب الدولة العربية الاسلامية ، وكان فوز دعائها معناه الرجوع الى نظام الجاهلية واستعادة كل قبيلة من القبائل ما تفقده من استقلال داخلى بخضوعها للدولة الجديدة ، ورجوعها الى ما كانت

عليه قبل الاسلام حيث لم يكن سلطان فوق سلطانها ولا نفوذ يعلو نفوذها فالردة حركة سياسية وان اصطبغت بالصبغة الدينية في الظاهر وقد وصفناها في متن الكتاب بانها ثورة رجعية يراد بها القضاء على نظام الحكم الجديد والتخلص من الواجبات التي يقضى بها دستور الدولة الجديدة (القرآن) والعودة الى عهد الفوضى القديم

وقد تجلت الردة في صور واشكال شتى ، ومعنى ذلك ان القبائل المرتدة لم تكن على وفاق بينها وان كلا منها كان يعمل منفردا مما سهل للمسلمين التغلب عليها واخضاعها ، ولولا ذلك لكانت المهمة اصعب واشق . وما يستحق الذكر انه كان بين ابناء القبائل التي ارتدت اناس اقاموا على التمسك بدينهم واخلصوا له وانفصلوا عن المرتدين ولم يسبحوا في تيارهم وبينهم ابناء عمومتهم ، وهذا نادر في تاريخ القبائل ، وقد اعتادت ان تجعل العصبية فوق كل اعتبار فيشد ابن العم ازرار بن عمه ويخوض المنايا تأييداً له ، وهذه احدى نتائج رسوخ عقيدة الاسلام في صدور هؤلاء الذين شاؤوا بعودهم عن الفتنة حركة دعائها بين قومهم ، وكانوا عوناً للمسلمين كما كانوا عيوناً لهم يطلعونهم على الجليل والحقير من احوال قبائلهم

وكذلك يجب ان لا ننسى ما كان لادعاء النبوة من اثر في اذكاء نار هذه الفتنة السياسية ، وما يستوقف النظر بوجه خاص ، ان ثلاثة من ادعيائها هم من اهل نجد ، وكان الرابع يمانيا وقد ظهر وقتل والنبي في قيد الحياة ، اى انه لاعلاقة لحركته بحركة الردة ، وخاض بعض انصاره فتتها مع الخائضين يوم قام سوقها ، ولم يلق السامون كبير عناء في القضاء على حركتهم واستئصال شأفتهم

وثمة اعتبار محلي خاص ، لا نشك في انه اثر اثره في بعض قبائل نجد ، وحملها على ان تقف من حكومة المدينة الموقف الذى وقفته ، فقد كبر عليها ان تظل خاضعة لحكومة ابى بكر القرشية - الانصارية - المضرية - وان تؤدى اليها الزكاة ، وهى لا ترى نفسها دونها في القوة والعصبية ولذلك لم تتردد في تأييد طليحة الاسدى ومسيامة الحنفي ، حينما قاما يدعيان النبوة ، توهما منها ان النبوة هى الوسيلة الوحيدة لادراك

السيطرة والنفوذ، املا بان تنال على يد هذين الدعين ما نالته قريش على يد محمد ابن عبد الله، وقد جهر بذلك احد اقطاب بني حنيفة حينما صرح بانه وان كان لا يشك في كذب مسيامة وصدق محمد الا ان كذب هذا احب اليه من صدق ذلك لانه من ابناء قبيلته؛ واستمات بنو اسد وبنو غطفان في الدفاع عن قضية طليحة، استماتة بنى حنيفة في الدفاع عن قضية مسيامة، ولو اتفقت قوى هؤلاء وهؤلاء وانضم اليهم بنو تميم ووجدوا القيادة، لما تسنى لجيوش ابى بكر اخضاعهم بسهولة سيما وهى لم تتغلب عليهم وهم متفرقون الا بعد عناء عظيم، وقد وصفنا ما لقيه خالد يوم عقرباء وكيف ان الدائرة كادت ان تدور عليه، وقد اعترف المؤرخون الاسلاميون بانه كان بين بنى حنيفة انفسهم من ثبت على الاسلام، وكان عوناً للمسلمين في نضالهم مع مسيامة وانصاره وما كان هؤلاء يقاتلون مع مسيامة حبا فيه، وانما كانوا يسعون للتخلص من سلطة المدينة، وقد ظنوا ان موت النبي مؤذن بزوالها، فلما استخلف ابو بكر، وظهر ان المسلمين يعزّمون السير على سنته، وتنفيذ ما جاء به من احكام قاموا وثاروا يريدون نقض هذا النظام والتخلص منه، والرجوع الى ما كانوا عليه من نظم الجاهلية والتتع بالاستقلال الداخلى المطلق، وتلك هى «الرجعى» السياسية، وهذا هو معناها فى الاصطلاح العصرى

فاذا قيل لنا ان هنالك قبائل، لم تحاول الخروج على النظام كله، وانها طلبت وضع الزكاة عنها، اى اعفائها من دفع الضرائب، المفروضة عليها لخزينة الدولة وان غيرها طلب وضع الصلاة، نجيب ان اختلاف المظاهر لا يؤثر وانه لو تساهلت حكومة المدينة، مع قبيلة من القبائل او اظهرت شيئاً من الضعف والاستكانة لأطمعت الآخرين فيها، وحملتهم على طلب المزيد، وما كانت غايتهم الحقيقية سوى التخلص من النظام نفسه، لأنه لا يتفق مع ما اعتادوه من استقلال ولا مع الانفة التى شبوا عليها فى احضان قبيلتهم

وجملة القول ان المسلمين لقوا عناء عظيماً فى اطفاء فتنة الردة فكفهم القضاء عليها دماء غالية، وافقدهم عدداً كبيراً من رجالهم، فعدد من قتل منهم فى معركة

عقرباء وحدها يزيد كثيرا على عدد الذين قتلوا في سبيل فتح الحجاز وبلاد العرب الاخرى ، وما ذلك الا لان بنى حنيقة استقامت في الدفاع عن قضيتها ، وكانت تقاتل دون ظننها ونسائها ومالها ، ولو كتب للحنيفيين الفوز في يوم عقرباء لواصلوا الزحف حتى المدينة ، ولارتفع شأن مسيامة ، واعظم نفوذه ولتبدل تاريخ جزيرة العرب ولسار في اتجاه غير الاتجاه الذي سار فيه

وكانت معركة عقرباء هذه خاتمة المعارك التي دارت في بلاد العرب بين انصار النظام الجديد وبين خصومه ، فاما انجلت عن اندحار هؤلاء وفشلهم واستقرت قواعد الدولة الجديدة وخضعت القبائل ، وقد تردد بعضها فعلا لمعرفة نتيجة النضال الدائر ، فينضم الى الفريق الغالب وهو ما جرى فعلا في اثناء النضال بين المسلمين وقريش ، وهو ما يتكرر في جزيرة العرب حتى الآن بدون انقطاع تقريبا ، فمن دأب قبائلها ان لا تشارك في نضال يدور بين قوتين من قواتها تتنازعان السيادة والنفوذ الا اذا اضطرت ، لانها تأبى المغامرة وتنفر منها ، في حين انها لا تتردد في الانضمام الى الغالب وتقديم الطاعة له ، وسيان عندها فاز هذا ام ذلك مادام كلاهما عربي وما دامت لا تطمع بان تحوز السيادة والنفوذ لنفسها

وحدث بعد عقرباء ما حدث بعد فتح مكة ، فقدمت القبائل كلها الطاعة والخضوع لحكومة ابي بكر ودفعت الزكاة ، واقامت احكام الدين ، ولولا ثبات ابي بكر ومن معه من الصحابة واستبسالهم في القتال والنضال ، لما انتشر الاسلام بمثل ما انتشر به من السرعة الزائدة ، ولما انشأ المسلمون تلك الامبراطورية العظيمة ، ولحرمت الحضارة من الخدمات الكبرى التي اسداها لها العرب بنقلهم الحضارتين اليونانية واللاتينية

وكانت بلاد فارس وقد وقف جيش خالد بعد انتهائه من حروب الردة وفراغه من امر نجد على حدودها ، في مقدمة الاقطار التي اقدم المسلمون على مهاجمتها في المرحلة الجديدة لاعتبارات عديدة ايجابية وسلبية بسطناها في متن الكتاب وسنم ببعضها هنا

٥ - مهاجمة الامبراطورية الفارسية

كانت هنالك عوامل عدة تغرى المسلمين بمهاجمة فارس وتدفعهم الى قتالها واقتحام حدودها بعضها سلبي وبعضها ايجابي وهى :

١ - ما بشرهم به رسولهم من انهم سيفتحون بلاد كسرى ويستولون على خزائنه واخوانه

٢ - كتابه الى كسرى بالدعوة الى الاسلام ورفض هذا قبول الدعوة ، وتمزيقه الكتاب ، وقول النبي حينما نقل اليه ذلك « مزق الله ملكه »

٣ - رغبة ولاة امور المدينة في فتح ميدان جديد للعرب يقاتلون فيه ويكافحون بعد ما انتهى امر الجزيرة كلها وخضعت للدولة الجديدة ، فالحرب والغزو من « العادات المحلية » عند العرب

٤ - وفود بعض ابناء العراق من رعايا الامبراطورية الفارسية الى المدينة ومقابلتهم ولاة امورها وطلبهم تجهيز حملة على العراق لانقاذ العرب من سكانه وتحريرهم ، وضمهم الى الدولة الجديدة باعتبارهم ذوى عصبيتها ، فالعربي ابن عم العربي حيثما كان وانى وجد ، وذلك شعار العرب في كل زمان ومكان

٥ - الرغبة في امتلاك العراق ونشر الاسلام في ربوعه ويعد من اخصب بلاد العرب ، واكثرها ثروة وغنى

ولا بد لنا بهذه المناسبة من الاعتراف بان نظام توزيع الغنائم الذى جاء به الاسلام - و يقضى بتوزيع اربعة اقسام الغنيمة او ٨٠ في المئة على الجيش المحارب ، واستبقاء العشرين الاخرى لبيت المال (خزينة الدولة) لانفاقه على المصالح العامة - كان له كبير الأثر في تنشيط حركة النضال وفي حمل العرب على مواصلته ، فهو فضلا عن الثواب الاخرى الذى يضمنه للمجاهدين الاحياء منهم والاموات ولا سيما الذين يسقطون صرعى في الميدان فانه يضمن فائدة مادية لمن يظل حيا في حالة النصر والفوز وهو سهم من الغنيمة ويناله بنسبة عادلة بعد اخراج سهم بيت المال وهو مخصص للمصالح العامة كما قلنا

ولقد نسخت الشرائع الحديثة هذا النظام فحل محله نظام التجنيد الاجبارى ، ويجعل الجندى المحارب تحت كفالة الدولة وتقدم اليه كل ما يحتاج اليه مدة وجوده فى الجيش وتساعد عائلته اذا كان له من يعوله اذا سقط صريعا فى ابان الخدمة ، اما فى صدر الاسلام فما كانت الدولة مسئولة عن حاجيات الجندى وشؤونه ، ما عدا السلاح وكانت تقدمه لمن لا يملكه فكان هو الذى يتنازع فرسه ويقدم له علفه ، وكانوا يسهمون لاصحاب الخيل باكثر من سهم المشاة عند توزيع الغنائم ، وكان الجندى نفسه يتدرك طعامه وشرابه وكسوته ايضا ، واشترط الماسمون حينما افتتحوا البلدان فى الشام وفلسطين ومصر على سكانها فى عقود الصلح ان يقدموا لمن يربهم من جند المسلمين الطعام لمدة ثلاثة ايام ، وهى مدة الضيافة المقررة عند العرب لا يسأل فيها الطارق عن المكان الذى يقصده ، والقصد من ذلك ان تترك له فرصة يستريح فيها من عناء السفر ويطلع على ما هو فى حاجة الى الاطلاع عليه من شؤون القطر الذى يزوره ، ويقف على المعلومات التى يحتاج اليها ، فيسير على هدى بعد انقضاء مدة الضيافة ويدبر نفسه بنفسه من دون تعب ولا نصب . على ان نظام التجنيد عند الماسمين طرأ عليه تحول كبير فى عهد عمر بن الخطاب واصبح من المصالح الكبرى التى يعنون بها ويسهبون على تنظيمها ، وسنفضل أخباره فى الكتاب الثالث حين الكلام على نظام الحكم فى عهد الخلفاء الراشدين

ولقد اصاب ابو بكر فى غزو العراق اغراضا شتى فحقق للماسمين ما بشرهم به نبينهم من امتلاك ايوان كسرى كما نشر الدين الاسلامى فى تلك البلدان الغنية العظيمة واوجد مورد رزق لسكان الجزيرة ، وقد آثرت فيهم حروب الردة والغزوات المتتابعة التى غزاها المسلمون فى خلال عشر سنوات ودر عليهم ارباحا طائلة فتدفقت انهار الثروة فى المدينة وعاش الناس مترفين منعمين ، يؤيد ذلك ما نشرناه فى سيرة سعد بن ابى وقاص فقد ترك يوم توفى ثروة قدرت بربع مليون درهم ، وهو مبلغ عظيم ، لا نظن ان عربيا امتلك مثله فى الحجاز قبل الاسلام وما كانت ثروة الموسر الواحد من بنى مخزوم وكان يضرب بهم

المثل في الأثرء في مكة تزيد عن ٦٠ الف درهم واذا قيل لنا ان سعدا جمع هذه الثروة لانه كان قائدا من كبار القواد نقول ان هنالك آخرين أثروا ايضا كالزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف والنسبة محفوظة بين القواد والجنود في كل حال . وهي تدل على نمو الثروة بعد غزو العراق والشام

تلك هي الاسباب الايجابية التي دفعت المسلمين الى غزو العراق وبعثتهم على مهاجمة امبراطورية كانت تعد من اعظم الامبراطوريات في عصرها وكانت تنافس الامبراطورية الرومية وكانت باتفاق الآراء اعظم امبراطورية عرفها التاريخ القديم وتجاذبها حبل المجد والفخار ، ولطالما اكتسح جندها بلاد الروم ولطالما دوخوهم وهددوا عاصمتهم ، ومعنى ذلك ان قوى الفرس العسكرية كانت عظيمة ، وكل نسبة مفقودة بين قوتهم وبين قوى العرب التي هاجمتهم في الشرق وانشبت اظافرها في جسم دولتهم وما زالت بها حتى قوضت بنيانها ودكت اركانها وورثت ارضها وديارها والمملك لله يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم

وبين الباحثين من العلماء خلاف في تعليل الاسباب المادية التي ضمنت النصر والتفوق للمسلمين ومكنتهم من اخضاع فارس وانتزاع ملك الاكاسرة ، ويورد كل واحد منهم اسبابا وعللا يعتقد انها لاسواها هي التي عجلت في فوز خالد والمثنى وسعد والنعمان والاحنف . وينتجى كل واحد من هؤلاء (الباحثين) ناحية خاصة يعكف على دراستها ، فيتمسك بعضهم بالعامل الاقتصادي ، ويجعله السبب المباشر في غزو العرب للعراق وفي انهزام الفرس ، ويتمسك آخرون بالعامل الاجتماعي ، ويرون ان ماغشى فارس في الفترة التي تقدمت ظهور الاسلام من غواش وما تسرب اليها من فساد واضطراب ، تتج عن انتشار الاحاد والاباحية ساعد على سقوط هذه الامبراطورية تحت سنايك خيل العرب

ويقول آخرون انه كان للإضطرابات السياسية الداخلية وقد نمت وكثرت في تلك الفترة فتعدد سقوط الملوك وقيامهم وازدادت المؤامرات والدسائس أثر كبير في اضعاف الدولة وتسرب الحلل اليها وانفضاض القلوب من حولها ، وملاشاة

تفوذها ، سيما وقد سبق الغزو العربي غزورومي فقد بلغ هرقليوس المداين بجيوشه واحتلتها بعد ماهزم الجيش الفارسي وشتت قواه وأملى على الفرس شروط الصلح الذي ارادها فانصاعوا مضطرين وبديهي ان هذا الانكسار المريع انهك قوى الفرس ، فلم تستطع ثبانا امام المسلمين الذين تدفقوا من غربي جزيرتهم يحملون ديننا جديدا ، وتعاليم جديدة ويسرون تحت قيادة جمعت شملهم ووحدت صفوفهم وانشأت منهم امة جديدة تطمح الى المجد وتطمع في امتلاك العالم واخضاعه

ولقد مرت المعارك التي دارت بين المسلمين والفرس في خمسة ادوار :

١ - الدور الاول وهو دور الحروب غير النظامية وقد امتد سنة واحدة تقريبا وكان بطل هذا الدور خالد بن الوليد فقد اكتسح جنوبي العراق وفاز على الفرس فوزا ميينا وهزمهم في المعارك التي دارت بينه وبينهم وظل يتقدم حتى الانبار (الفلوجة) وانتهى هذا الدور بالاستيلاء على الحيرة قاعدة المناذرة

واشتدت الحروب في ميدان الشام ، وحشد الروم قوة كبيرة للمسلمين ، فأرسلت القيادة العامة من المدينة امرا الى خالد بان يقصد الشام بنصف جيشه ويترك النصف الآخر بقيادة المشي بن حارثة الشيباني ، لنجدة الجيش المحارب هنالك ، فسار على الفور وقاد العرب في المعركة الفاصلة وكان قدومه من العوامل التي ضمنت الفوز لهم فانتصروا على الروم وانتزعوا منهم الشام وفلسطين ومصر وما زالوا يطاردونهم حتى جبال طوروس

وجلا العرب بعد سفر خالد عن الاماكن التي فتحوها ورابطوا على حدود الصحراء لان القوى التي بقيت في هذا الميدان لم تعد تكفي لصد الفرس والتغلب عليهم . واخذوا يحاربون حرب عصابات اى حربا غير نظامية ، مكثفين بشن الغارات على مراكز اعدائهم وازعاجهم من دون ان يشتبكوا معهم في معركة فاصلة ، لعدم تكافؤ القوى . على ان الحال تحول قليلا بعد وصول ابي عبيد وقد غلبه الفرس وهزمود . فلم ير الخليفة بدا من مواصلة الحرب في هذا الميدان ، على منوال جديد ، وكانت معركة اليرموك قد انتهت بانتصار المسلمين وفوزهم ، فأعد جيشا جديدا في

المدينة اختار لقيادته سعد بن ابي وقاص من اقطاب المهاجرين وكان عاملا على هوازن (عتيبة) فاستقدمه وسيره الى فارس فكان ذلك مستهل الدور الثاني وقد ابتداء بنصر القادسية وانتهى بفتح المدائن

ولا بد لنا من التنويه بالاعمال الجليلة التي عملها المثنى بن حارثة الشيباني في الدور الاول فقد ابلى احسن بلاء وكان من كبار العاملين على تحرير العراق وبسط نفوذ العرب عليه

ويرى بعض المؤرخين ، ان المثنى هذا وهو من بكر بن وائل اى من عرب العراق هو اول من اهاب بالمسلمين الى مناجزة فارس ، فقد دأب هو وقومه على مهاجمة اطراف العراق فسمع به ابو بكر فاستقدمه اليه فاما قابله اقترح عليه ان يوليه غزو فارس ، وسهل امرهم عنده ورغبه في حربهم ، فكتب له عهدا بذلك فعاد الى مناطق الحدود وباشر العمل : ولما انتهت حروب الردة وتم النصر لخالد ، امره ابو بكر ان يسير الى العراق بجيشه وان يكون على صلة بالمثنى ، كما سير عياض بن غنم بطريق الجوف لمهاجمة شمالي العراق فيكون الزحف من الجانبين « الشمال والجنوب » ، وحالت حوائل عسكرية دون تقدم عياض ، فادركه خالد وانقذه واتحد الجيشان في العمل وانضمت اليهما قوة المثنى ففعلوا الاعاجيب ، وحل المثنى محل خالد حينما رحل الى الشام ومات متأثرا بجراحه قبل افتتاح الدور الثاني تاركا وصية لسعد عمل بها . وكان من القواد المبرزين في الفنون الحربية كما كان من اشجع الشجعان ويجعله بعضهم وخالد بن الوليد في درجة واحدة

وكان الدور الثاني اقصر من الاول ، فقد حارب المسلمون الفرس حربا نظامية وجاءهم بقوى كبيرة ونازلوهم في القادسية في معركة ميدان كبيرة ختمت بانتصارهم وقتل قائد الفرس الاكبر ، ولم يطل سعد الاقامة هنا بل واصل تقدمه الى المدائن فدخلها واجلى الفرس عنها

ولقد بحثنا في كل ما وقع بأيدينا من كتب العرب والفرنجية لمعرفة اليوم والشهر الذي وقعت فيه معركة القادسية فلم نجد من عنى بتحديدتها او ذكر اسم الشهر

الذى دارت فيه كما ان كل واحد منهم ذكر السنة خلاف ما ذكرها غيره ، فبعضهم يرى انها كانت فى سنة ١٣ وآخرون فى ١٤ وغيرهم فى ١٥ و ١٦ و ١٧ ويرى طه الهاشمى وهو آخر من كتب فى هذا الباب انها كانت فى شهر اكتوبر « تشرين الاول » سنة ٦٣٥ وهو يوافق شهر شعبان سنة ١٥

والذى نرجحه ان القادسية كانت فى شهر شعبان سنة ١٤ وهذه هى الاعتبار التى نستند اليها فى هذا الترجيح :

١ - مات ابو بكر فى شهر جمادى الاولى سنة ١٣ والمعارك دائرة فى ميدان الشام فأوصى خليفته بان يعنى بفتح فارس وان يرسل اليها القوى فورا وان يعيد من الشام من جند العراق اليه لانهم ادرى به فنفذ هذا وصيته وارسل النجيدات كما اصدر امرا بارجاع هذا الجيش فعاد بعد ما اشترك فى فتح دمشق وقد فتحت بعد اليرموك بستة اشهر كما سيأتى معنا فى الكتاب الثانى

٢ - ما أجمع عليه المؤرخون الثقات وهو ان معركة اليرموك دارت فى شهر رجب سنة ١٣ الموافق لشهر سبتمبر « ايلول » سنة ٦٣٤ اى قبل القادسية بثلاثة عشر شهرا

٣ - ما اجمع عليه المؤرخون الثقات وهو ان جيش العراق العائد من الشام وصل والمعركة دائرة فاشترك فيها وكان اشراكه من العوامل التى ضمنى الفوز للمسلمين

ولا ريب ان المدة المنقضية بين اليرموك والقادسية وهى ١٣ شهرا (رجب سنة ١٣ - شعبان سنة ١٤) كافية لوصول اوامر عمر الى ابى عبيدة بارسال هذا الجيش وسفره و وصوله . اما لو اعتبرنا ان المعركة دارت فى شهر شعبان سنة ١٥ فلا يبقى هنالك وجه للقول بوصول هذا الجند حين المعركة اذ لا يعقل ان يتأخر سنتين فى الطريق . كما انه لا يبقى هنالك وجه لتسمية يوم القادسية الثالث باغواث والمجمع عليه انهم وضعوا له هذا الاسم لوصول « الغوث » اى المدد من الشام والمقصود بذلك الجيش الذى اشترك فى اليرموك

٤ - لان الروايات التى سردناها فى متن الكتاب عن شدة اهتمام عمر بقتال

الفرس وعقده الاجتماعات واختياره سعدا لمنصب القيادة لا تجعل مجالا للشك في ان المعركة دارت في المدة التي ذكرناها وبينها وبين ارتقائه منصب الخلافة ١٦ شهرا وهي مدة كافية لحشد الجيوش ووصول القوى ، مع تسليمنا بما يروونه وهو ان سعدا قضى ٤ اشهر بعد وصوله الى القادسية يعد معدات القتال لمدة ١٢ شهرا وقد انقضت بين بدء خلافة عمر وبين وصول سعد الى القادسية مدة كافية لاستقدام سعد وكان على صدقات هوازن (اى في منطقة الطائف وهوازن هذه هي نفس قبيلة عتيبة وتنزل في منازلها القديمة بين الحجاز ونجد)

٥ - لان المسافة بين المدينة والقادسية غير بعيدة كما هو الحال في الميادين الاخرى كميدان الشام وفلسطين ومصر فلا تزيد عن ٨٠٠ كيلومتر تقطع عادة في ٢٠ يوما . ولا ريب ان قرب المسافة من جهة وسهولة الاتصال من جهة تساعد على الاسراع في حشد القوى وتؤيد مذهبنا اليه

٦ - ما اجمع عليه المؤرخون وهو ان عتبه بن غزوان انشأ البصرة في سنة ١٥ ولم تنشأ الا بعد القادسية وفوق كل ذى علم عليم

ولقد كانت معركة القادسية خاتمة دور عسكري حافل امتد سنتين وخمسة أشهر . فقد ابتداء بزحف خالد على جنوبي العراق في شهر جمادى الاول سنة ١٢ اى بعد معركة عقرباء بشهرين وانتهى بوصول سعد الى الميادين (عاصمة الامبراطورية) في شهر شوال سنة ١٤ وافتتاحها وانتزاع شطر الامبراطورية الغربي من ايدي اصحابها وابتداء الدور الثالث بزحف العرب شرقا الى جلولاء (قزلباط) . ويلوح لنا ان هذا الزحف كان في السنة الخامسة عشرة اى بعد القادسية بسنة فقد كانت المعركة التي دارت في هذه المنطقة من المعارك الخطيرة وساعد العرب انتصارهم فيها على توطيد اقدامهم في الميادين وفي جنوبي العراق ، كما ساعدهم على فتح شماله ، وعلى توطيد نفوذهم في شرقي جبال حميرين ، واتخذها الفرس قاعدة لاعمالم العسكرية في هذه المرحلة ، وختم هذا الدور بمعركة نهاوند الكبرى (فتح الفتوح) فقد مزق العرب هنا كل ما بقى للفرس من قوى عسكرية ، واستولوا على منطقة جبلية حصينة ، كان قادة

الفرس يعتقدون ان العرب سيقفون امامها عاجزين لانهم ما كانوا تمرنوا حتى ذلك الوقت على حروب الجبال والمراطة حول الاسوار والخنادق ، وسهل انتصار نهاوند للعرب الاستيلاء على نصف الامبراطورية الشرقى وجعلهم يسيطرون عليه ، كما اضعف القوى الادبية فى صدور الفرس فنجح اكثرهم الى التسليم والدور الرابع هو دور الاعمال العسكرية الختامية وقد اوغل فيه العرب وانبشوا فى انحاء فارس كلها واستولوا عليها قطرا بعد قطر ومقاطعة بعد مقاطعة، وظلوا يتقدمون حتى بلغوا نهر جيحون شرقا وبحر الخزر شمالا وقضوا على الامبراطورية وابدوها

اكنتساح امبراطورية الفرس وما استغرقه

لقد استغرق فتح الامبراطورية الفارسية ١٣ سنة تقريبا اكتسحها المسلمون من اقصاها الى اقصاها وتغلبوا على الفرس وقد قاتلوا على كل شبر من اراضيهم تقريبا وظلوا يطاردونهم من نهر الفرات حتى نهر جيحون - وهو الحد الفاصل بين بلاد ايران الحاضرة و بين افغانستان وكان كذلك فى العهد القديم - فوقفوا عنده ، حتى استؤنفت الأعمال العسكرية فى العهد الاموى فاجتازوا النهر واحتلوا ما وراءه ونشروا الاسلام فى آسيا الوسطى

ونرى من الواجب ان نذكر أن نضال العرب لم يكن قاصرا على هذا الميدان وحده فقد كانوا ينازلون الروم فى الشام وفلسطين ومصر وطرابلس الغرب وتونس وكيليكية فى نفس الوقت الذى كانوا يحاربون فيه الفرس ، اى انهم كانوا يخوضون الحرب مع الروم والفرس فى وقت واحد و ينازلونهم هنا وهناك ، ولعل هذا هو السر فى طول زمن النضال فى الميدانين ، ولو تفرغ المسلمون لاحدى الدولتين وصبوا قواهم عليها لما قاومتهم كل هذه المدة الطويلة ، ولقصر امد الحرب

كفاءة القيادة العامة

ولا يسع الباحث الا ان يذكر بالثناء ما اظهرته القيادة العامة للعرب فى المدينة

من كفاءة زائدة في ادارة الاعمال العسكرية الباهرة التي عملت في هذين الميدانين ، فقد كانت تديرها بمهارة وكانت ترسم الخطط للقواد وتمدهم بالنجادات عند الحاجة وترقب اخبارهم ، ولعل ذلك كان من جملة العوامل التي ضمنت لهم التفوق والانتصار على جيشين عظيمين كانا من اعظم الجيوش في عصرهما . ومن تحصيل الحاصل القول بان التاريخ العسكرى لم يسجل منذ بدأ الناس بتدوينه ، اخبار نصر يضاھى بعظمته النصر الذى ادركه العرب على الروم والفرس ، وسيظل معنا لا ينضب للشغلتين بالعلوم التاريخية والعسكرية يجدون فيه مادة غزيرة للبحث والدرس

اعمال العرب فى ربيع قرنه

لقد تم للعرب فى مدة لا تزيد عن ربيع قرن ما لم يتم لغيرهم من الامم التي عرفها التاريخ سواء من تأخر عنهم ومن تقدم فقد عملوا فى هذه الفترة الصغيرة الاعمال الآتية :

- ١ - جاءوا بسريرة من اعظم الشرائع التي عرفها التاريخ واكملها واتقنها
- ٢ - انشأوا دولة لا عهد للعرب بمثلها فى تاريخهم : فتحت الجزيرة وحاربت الروم فى الشمال وانتزعت منهم نحو نصف ممتلكاتهم فى آسيا وافريقية ، وحاربت الفرس ودكت دولتهم وورثتها
- ٣ - انشأوا حكومة تدرجت تدرجا طبيعيا ، فبعد ما كانت فى اول الامر تتألف من رئيس وسكرتيرين وعمال اصبحت بعد انقضاء سنوات على تأسيسها تملك دواوين ومصالح وصارت ذات نظام ثابت راسخ
- ٤ - انشأوا جيشا قويا منظما قهروا به الفرس والروم ، واستولوا على معظم الاجزاء المعروفة من العالم التمدن فى ذلك الوقت ، ووضعوا لهذا الجيش نظاما جديدة يسير عليها فى تعبئته وسوقه وقيادته
- ٥ - انشأوا هيئة اجتماعية جديدة متضامنة متماسكة بعدما كانوا قبائل يقاتل بعضها بعضا ، وبعدها كان الجار يفتك بجاره والاخ يفتك باخيه

٦ - قضاوا على تقاليد الجاهلية وعاداتها فلا تفاخر بالآباء ولا تنازب باللقاب ،
بل السكل سواء امام الشرع والقانون

٧ - نشروا الامن في انحاء جزيرة العرب وفي البلاد التي خضعت لهم ، ووزعوا
العدل ، وضمنوا المساواة ، ومنعوا الاعتداءات فانقاد الناس اليهم واقبلوا عليهم ، ورأوا
فيهم محررين ينقذونهم من ظلم الحكومات التي كانت تسيطر عليهم وتذيقهم الوان
النكال والعذاب

الفئة الداهلية ومركبة الفتح

هذا بعض مايرد على ذهن الباحث وهو يحاول تلخيص الاعمال التي عملها
العرب في خلال ربع قرن لانتشار الاسلام بينهم وظهور دولتهم الجديدة في المدينة
اى منذ وصول النبي مهساجرا اليها حتى ابتداء عهد عثمان بن عفان الخليفة الثالث ،
فقد اوقفت الاضطرابات الداخلية التي ظهرت في اواخر عهده حركة الفتح وعطلتها تعطيلاً
موقتاً لاشتغال قواد الجيش بها ، واشترك بعضهم فيها ، على انها ما لبثت ان عادت في
العهد الاموى الى ما كانت عليه ، حينما استقرت قواعد الدولة الاموية الجديدة
فافتتح المسلمون المغرب الاقصى ودخلوا الاندلس واستولوا على اسبانيا وواصلوا
تقدمهم في اواسط آسيا فاستولوا على افغانستان وتركستان واوغلوا في الشرق حتى
اخضعوا معظم ممالكه ، كما بلغوا اسوار القسطنطينية في زحفهم من سورية وأنشأوا
اسطولا كبيرا ساد البحر الابيض وسيطر عليه

مهرب الاسلام والامبراطورية الرومية

وقد خصصنا الكتاب الثانى للكلام عن حروب الاسلام والامبراطورية
الرومية (الرومانية) فاستوفينا البحث عن فتح الشام ومصر وطرابلس الغرب وتونس
واوردنا معلومات قيمة طريفة عن حالة تلك البلاد الاجتماعية والسياسية حين مهاجمة
العرب لها وعن قوة الدولة الرومية ونظامها السياسى والعسكرى وعن حصونها
ومعداتها على منوال جديد

نظام الحكم في دولة الخلفاء الراشدين

وخصنا الكتاب الثالث للبحث عن نظام الحكم في دولة الخلفاء الراشدين وعن تحوله ووضعه وعن الفتنة الداخلية واسبابها وعواملها ، وتبسطنا في الكلام عن التنافس بين الامويين والهاشميين في الجاهلية والاسلام معتمدين في ذلك على اوثق المصادر من عربية واوربية متجردين عن كل اعتبار حزبي ، وغير راغبين الا في خدمة التاريخ العربي الاسلامي خدمة خالصة ، لاعتقادنا ان عهد التشيع والتحزب قد انقضى وانه يجدر بالعرب والمسلمين ان يتدبروا تاريخهم ويستوعبوه فقد يث فيهم روحا ثقيل عثارهم وتعيد عصر مفاخرهم

الدولة الاموية

والكتاب الرابع خاص بالدولة الاموية واعمالها العسكرية ، وفتوحاتها في الشرق والغرب واستيلائها على الاندلس وغرب اوربا والكتاب الخامس خاص بالكلام على نظام الحكم وتحوله في العهد الاموي وعن الاضطرابات الداخلية وعن العوامل التي ادت الى سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية . وسنواصل اصدار الكتب حتى نصل الى عهدنا الحاضر ان شاء الله فتم ما شرعنا فيه من تدوين هذا التاريخ ، ومنه سبحانه وتعالى نستمد العون والتوفيق

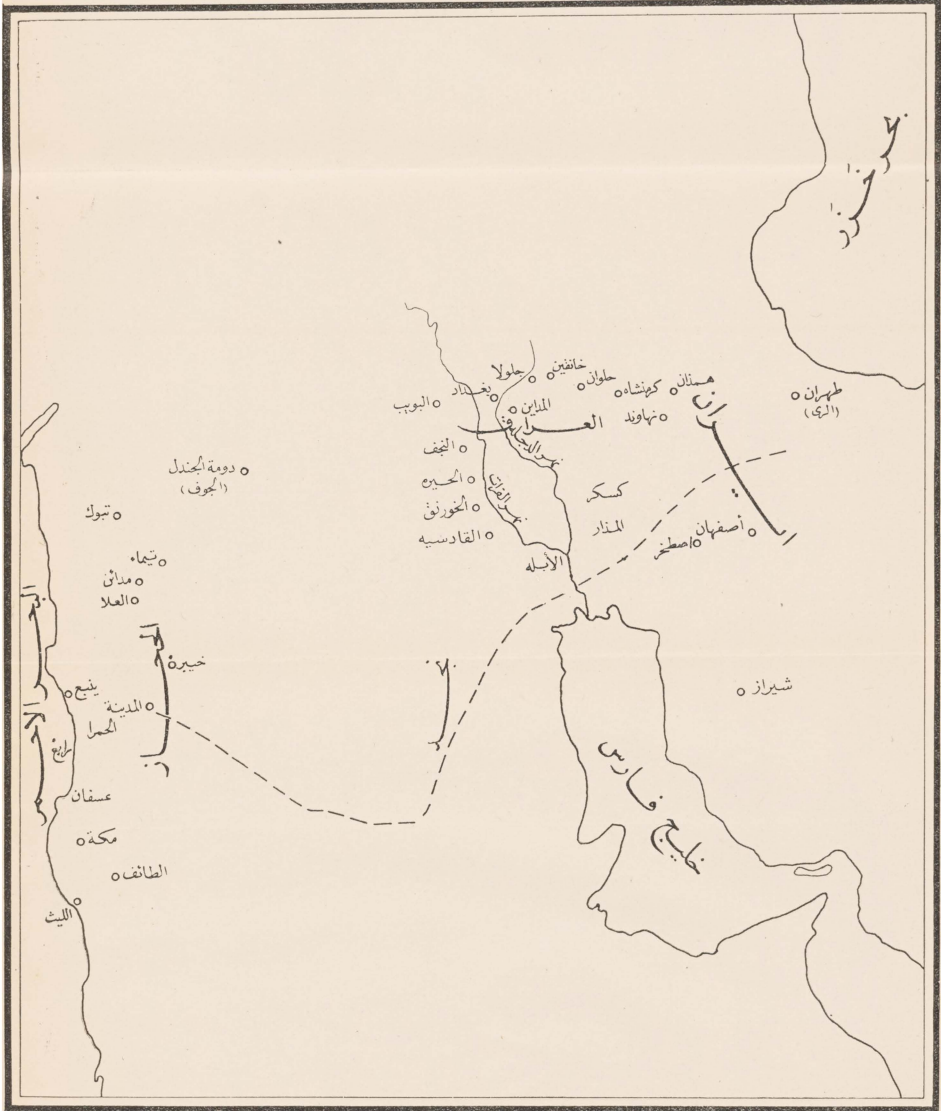
القاهرة في ١٥ رمضان المبارك سنة ١٣٥٣ و ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣٤

ابضاح

ذكرنا في الصفحة الثانية أن الوهابيين هدموا القبة التي أقيمت فوق المكان الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ولم نذكر السبب الذي بعثهم على هدمها ، وهو رغبتهم في القضاء على بدعة زيارتها وقد فشت كثيرا

خريطة

البنججان الإسلامية في العراق وإيران



تَقْوِيمُ الْكِتَابِ

ص	
١	نظام الحكم في الحجاز قبل الاسلام
٥	معنى الدعوة الاسلامية
٧	المقاطعتان الاقتصادية والاجتماعية
٨	التجاء النبي الى الطائف
٩	دعوته في المواسم واتصاله بالاوس والخزرج
١١	الاوس والخزرج
١٢	اصل الاوس والخزرج ، عدد نفوسهما
١٥	قريش تأتمر بالنبي وتقرر اغتياله
١٨	الهجرة
٢٠	في طريق المدينة
٢١	رواية البخارى لحديث الهجرة
٢١	الطريق الذى سلكاه
٢٢	اول مسجد في الاسلام
٢٢	اول جمعة في الاسلام
٢٥	بيان الدولة الجديدة
٣٠	اتحاد الاوس والخزرج
٣٠	الاخاء بين المهاجرين والانصار
٣١	اليهود في شمالي الحجاز
٣٥	بين المسلمين واليهود
٢٦	تأثير العوامل الاقتصادية في هذا النزاع
٣٨	قريش

	ص
النضال بين الساميين وقريش	٤١
سرايا الساميين وبعوثهم العسكرية : سرية حمزة - سرية عبيدة بن الحارث وسرية سعد بن ابي وقاص ، وغزوة الابواء ، واول محالفة مع قبيلة في الشمال والمخالفة الثالثة ، وغزوة بواط ، وغزوة سفوان أو بدر الاولى وغزوة العشيبة وسرية عبد الله بن جحش الاسدي	
غزوة بدر الكبرى	٤٨
فتح الحجاز	٥٥
معلومات جغرافية عامة عن الحجاز	٥٧
صدى انتصار بدر	٥٨
الأعمال العسكرية في شرقي المدينة	٦٣
اول اصطدام بين الساميين واليهود - جلاء بني قينقاع	٦٥
قريش تطالب بثأرها - ابو سفيان يستطلع حالة المدينة ويعمل لاستمالة اليهود ومحالفتهم	٧٢
غزوة غطفان	٧٥
غزوة احد	٧٧
جبل احد - وصفه ، الشقاق في جيش الساميين ، اليهود والدفاع عن المدينة ، تعبئة الجيش ، المعركة ، عوامل فشل الساميين	٧٩
اجلاء بني النضير ، بعث عاصم بن ثابت ، بعث بئر معونة ، انذار بني النضير ، اليهود يرفضون الانذار . السامون يحاصرونهم	٨٨
العودة الى نجد	٩٤
الخدق وقریظة - عناصر الاتحاد الجديد - قوات جيش الاحلاف - تدابير الساميين وقواتهم - مقابلة بين القوتين - اشتراك بني قريظة في القتال - التذرع بالاساليب السياسية - ثورة الطبيعة - استئصال بني قريظة - خسارة الساميين	٩٦

- ١٠٩ بعد الخندق
- ١١٣ الأعمال العسكرية في شمالى المدينة
- ١١٥ صلح الحديبية - قریش تعترف بالدولة الاسلامية
- ١٢١ التبشير بالاسلام فى خارج الجزيرة - كتب النبى الى قيصر الروم والى كسرى والى المقوقس والى النجاشى والى ملك غسان والى صاحب اليمامة والى صاحب البحرين
- ١٢٨ لماذا لم تفتح الحبشة
- ١٣٠ فتح خيبر - فدك تطلب الامان - مهاجمة وادى القرى وتيماء
- ١٣٤ فتح مكة : الزحف على مكة - النزول بمر الظهران - تداير قریش - كيف دخل المسلمون مكة - مقاومة بسيطة - نتائج فتح مكة
- ١٤٢ غزوة حنين وحصار الطائف - ثقيف وهوازن تجتمعان - قوة المسلمين وتعبثهم - قوة القبائل وتدايرها - القبائل تباعث المسلمين
- ١٤٨ انتهاء الاعمال العسكرية فى الحجاز وبيان عنها
- ١٥٤ بيان عن الغزوات وقتلاها
- ١٥٥ بيان عن السرايا وقتلاها
- ١٥٧ عدد قتلى المسلمين فى جميع المعارك - عدد قتلى غير المسلمين
- ١٥٩ فتح نجد
- ١٦١ نجد - معلومات جغرافية موجزة عنها
- ١٦٢ وفود نجد فى المدينة
- ١٦٥ فتح اليمن وحضرموت
- ١٦٧ اليمن - معلومات جغرافية عامة عنها
- ١٦٨ دولة التبابعة فى اليمن
- ١٧٢ اول بعث اسلامى الى اليمن

١٧٥ وفود اليمانيين في المدينة

١٧٧ وفود المسلمين الى اليمن

١٧٩ بيان نبوى الى اهل اليمن

١٨٢ حضرموت تدخل في الاسلام

١٨٣ فتح البحرين وعمان

١٨٥ البحرين وعمان - معلومات جغرافية موجزة

١٨٦ كيف اسلمت البحرين

١٨٧ كيف اسلمت عمان

١٨٩ حروب الردة

١٩١ تأثير وفاة النبي في جزيرة العرب

١٩٣ اول اجتماع سياسى في الاسلام - الدعوة الى اميرين - عمر يعارض في هذا

الاقتراح - ابو عبيدة يخطب - الانصار يعدلون خطتهم - الاوس تنضم الى

المهاجرين

١٩٦ ابو بكر الصديق - سيرته

١٩٩ خلافة ابى بكر

٢٠٠ اول بيان سياسى في الاسلام

٢٠٢ الردة - وصية ابى بكر لاول جيش يسيره

٢١٠ مدعو النبوة وحركة الردة - طليحة الاسدى - مسيامة بن حبيب - الاسود

العنسى - سجاح بنت الحارث

٢١٢ بزاخة - من هو طليحة الاسدى - الهجوم على المدينة - منشور ابى بكر الى

المرتدين - عهده الى قواده - عدد الجيش الاسلامى

٢٢٠ خالد في حروب الردة - تدايره العسكرية

٢٢٤ سجاح : خالد عند بنى تميم

- ٢٢٦ مسيلمة بن حبيب - مسيلمة يزور النبي
- ٢٣٠ حرب اليمامة
- ٢٣٤ الاسود العنسى
- ٢٣٦ حضرموت والبحرين وعمان
- ٢٣٩ فتح العراق وايران
- ٢٤١ معلومات جغرافية عامة
- ٢٤٢ الاسلام وفارس
- ٢٤٥ الاكاسرة
- ٢٤٨ العلاقات بين العرب والفرس - دولة المناذرة في جنوبي العراق - الفرس وعرب الشمال - الديوان العربي في المداين
- ٢٥٣ مجلس شورى الصحابة يقرر مهاجمة فارس
- ٢٥٥ خالد بن الوليد - سيرته
- ٢٥٩ اعمال المسلمين العسكرية في جنوبي العراق - المعركة الاولى بين العرب والفرس والثانية والثالثة ، الفرس يعبثون جيشا جديدا - دجلة والفرات والسواد - الفرس ينقلون ميدان القتال - فتح الحيرة - اول جزية يقبضها المسلمون - خالد يستقر بالحيرة - خالد ينذر كسرى وقواده - خطة عسكرية جديدة
- ٢٧٠ مصير حملة الشمال - افتتاح الجوف - الحرب في شمالي العراق
- ٢٧٣ خالد في ميدان الشام - اعمال خليفة خالد في العراق
- ٢٧٥ ابو بكر يوصى بفتح فارس
- ٢٧٦ عمر ينفذ وصية ابي بكر - المثني يخطب - قائد جديد لجيش العراق
- ٢٧٨ عمر بن الخطاب - سيرته
- ٢٨١ استئناف القتال في ميدان العراق - اعمال ابي عبيد العسكرية - ابو عبيد يهاجم الفرس - اول انتصار للفرس على المسلمين
- ٢٨٦ عمر يعلن التعبئة العامة

٢٩٠ سعد بن ابى وقاص

٢٩٢ فى طريق القادسية - تعليمات عسكرية - نعى المثنى ووصيته - الى شراف -
تعليمات جديدة - استعداد الفرس
٢٩٧ المساعون يعملون لحقن الدم - مفاوضات المداين - وفد سعد الى كسرى -
كسرى يطرد الوفد

٣٠١ مفاوضات جديدة بين سعد ورستم - اقوال ربعى - حذيفة عند رستم - المغيرة
ابن شعبة عند رستم - اقوال الفردوسى فى الشاهنامه

٣٠٦ قبل المعركة - رواية الفردوسى - الوفود والغاية من ارسالها

٣٠٩ المعركة الكبرى - وصول نجيدات من الشام - المؤرخون والمعركة - وصف
الفردوسى لمعركة القادسية

٣١٤ كيف ابلغ خبر الفوز الى المدينة

٣١٦ فتح المداين - رواية الفردوسى لاحتلال المداين

٣٢٠ جلولاء

٣٢٢ الاعمال العسكرية فى الشمال

٣٢٤ الاهواز - الهرمزان فى الميدان - عمر يبحث اسباب الانتفاض

٣٢٩ اصطخر

٣٣١ الجزيرة - فوز عياض

٣٣٣ اكتساح ايران

٣٣٧ جبال حمرين

٣٤٠ نهاوند : تعليمات الخليفة للقائد الجديد - تعليمات عسكرية اخرى - الحملة
تزحف - طليحة الاسدى يقود المقدمة - المعركة الاولى - مجلس النعمان

العسكرى - فتح الفتوح - بشرى الفتح فى المدينة - خضوع اهل الجبال

٣٤٦ فتح ايران - خطط العرب العسكرية فى هذه المرحلة - وقوف حركة الفتح

الاسلامى

٣٥٠ تلخيص وتعليق